

مستويات التحليل الأسلوبي

دراسة تطبيقية على

"جزء عم"





100

100

100

100

مستويات التحليل الأسلوبي

دراسة تطبيقية على "جزء عم"



الدكتور

مرتضى علي شرارة

الأردن

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد - الأردن

2014

الكتاب

مستويات التحليل الأسلوبي دراسة تطبيقية على "جزء عم"

تأليف

مرتضى علي شرارة

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 242

القياس: 24*17

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2013/7/2661)

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9957-70-762-0

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد - شارع الجامعة

تلفون: (27272272 - 00962)

خلوي: 0785459343

فاكس: 27269909 - 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com

almalktob@hotmail.com

www.almalkotob.com

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن - العبدلي - تلفون: 5264363 / 079

مكتب بيروت

روضة الفدير - بناية بزي - هاتف: 471357 1 00961

فاكس: 475905 1 00961

الإهداء

- إلى والدي العزيز، الذي غرس حب اللغة والأدب في نفسي منذ نعومة أظفاري.
- إلى والدتي الحبيبة، التي بدعائها وحنانها أتذوق طعم التوفيق والإكرام من الله في حياتي.
- إلى زوجتي الغالية، التي بتهيئتها الجولي للكتابة والبحث فكأنها كتبت وبحثت معي.
- إلى أبنائي وبناتي الأحبة، الذين آمل أن تكتحل عيونهم بهذا العمل المتواضع، ويسيروا على طريق البحث الرصين والعلم النافع.
- إلى أقربائي وأصدقائي، الذين شحذوا همتي، وأتحفوني بالتقدير.
- إلى أساتذتي الفضلاء، الذين أرشدوني لأحلق في آفاق العلم والمعرفة.
- إلى كل طالب علم، يحث الخطا في طريق الرشاد والسمو.
- إلى كل من يستحقون أن يهدي إليهم الخير.

أهدي هذا العمل المتواضع. وأسأل الله تعالى القبول والمزيد من التوفيق.

المحتوى

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| 1 | المقدمة |
| 7 | تمهيد |
| 7 | سور الجزء وترتيبها |
| 10 | المكي والمدني في جزء عم |
| 14 | خصائص السور المكية |
| 14 | الخصائص الأسلوبية |
| 19 | الخصائص الموضوعية |
| 23 | خصائص جزء عم |
| 27 | الفصل الأول: المستوى الدلالي في جزء عم |
| 27 | القسم الأول: المجالات الدلالية |
| 32 | المجال الأول: القيامة والحساب |
| 33 | النفخة الأولى |
| 40 | النفخة الثانية |
| 44 | الحشر والحساب |
| 44 | اصطفاف الملائكة |
| 46 | إبراز الجحيم |
| 51 | الخوف والحسرة والذلة |
| 53 | نشر الصحف |
| 58 | المجال الثاني: الجزاء |
| 59 | الجزاء المادي للمؤمنين |
| 62 | الجزاء المادي للكافرين |
| 68 | الجزاء المعنوي للمؤمنين |
| 72 | الجزاء المعنوي للكافرين |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| 75 | الجزءان المادي والمعنوي معاً |
| 75 | المجال الثالث: نعم الله تعالى |
| 75 | النعم المادية |
| 85 | النعم المعنوية |
| 89 | الفصل الثاني: الاستعمال الصرفي في "جزء عم" |
| 90 | إحلال صيغ محل أخرى |
| 92 | تعدد الصيغ للفظ الواحد |
| 93 | الحذف في الصيغ |
| 94 | اختيار الصيغ |
| 95 | الصيغ المركبة |
| 97 | البناء للمجهول |
| 99 | الفصل الثاني: المستوى الصوتي |
| 101 | جرس الألفاظ |
| 108 | التكرار الصوتي |
| 111 | المقاطع الصوتية |
| 113 | الفاصلة القرآنية |
| 117 | أنواع الفواصل القرآنية وتطبيقاتها في الجزء |
| 121 | علاقة الفاصلة بالسورة والمقطع |
| 124 | قضية مراعاة الفاصلة |
| 129 | الفصل الرابع: المستوى التركيبي البلاغي |
| 130 | التقديم والتأخير |
| 132 | تقديم المسند إليه |
| 133 | تقديم المسند |
| 135 | تقديم المفعول به |
| 137 | تقديم الجار والمجرور والظرف |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|----------------------------------|
| 138 | الحذف والذكر |
| 140 | الذكر |
| 141 | الحذف |
| 141 | حذف المسند إليه |
| 142 | حذف المسند |
| 146 | التنكير والتعريف |
| 147 | التعريف |
| 147 | الضمير |
| 155 | اسم الإشارة |
| 157 | الاسم الموصول |
| 158 | المعرّف بال |
| 160 | المضاف إلى معرفة |
| 162 | التنكير |
| 165 | الفصل والوصل |
| 165 | الفصل |
| 167 | مواضع الفصل |
| 167 | الفصل بين المفردات |
| 169 | الفصل بين جملتين |
| 171 | الوصل |
| 171 | الوصل بين المفردات |
| 173 | الوصل بين الجمل |
| 174 | من أغراض الوصل والفصل في جزء عمّ |
| 181 | الفصل الخامس: المستوى البلاغي |
| 181 | القسم الأول: المستوى التصويري |
| 181 | أنواع الصور الحسية |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|------------------------------|
| 183 | وظائف التصوير الحسي |
| 183 | التشخيص |
| 185 | التجسيم |
| 187 | الانزياح في جزء عمّ |
| 188 | الكناية |
| 190 | المجاز |
| 192 | التشبيه |
| 195 | المشاهد في جزء عمّ |
| 201 | القسم الثاني: المستوى اللفظي |
| 201 | التكرار اللفظي |
| 201 | أنواع التكرار اللفظي |
| 207 | أساليب التكرار اللفظي |
| 210 | التقابل والتماثل |
| 210 | التقابل |
| 210 | التقابل المفرد |
| 211 | التقابل المركّب |
| 215 | الإجمال والتفصيل |
| 216 | أبنية الإجمال والتفصيل |
| 216 | البنية الثنائية |
| 218 | البنية المتعددة |
| 221 | الخاتمة |

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين. وبعد، فإن القرآن الكريم كان وما يزال مجالاً واسعاً لعدد ضخم من الدراسات في مختلف الموضوعات قديماً وحديثاً، لا بل إن القرآن أحدث أبواباً جديدة من العلم لم تكن لتوجد لولاه، كعلوم التجويد، والتفسير، والقراءات، وغيرها.

والحق إن القرآن الكريم قد حث العرب والمسلمين على تقعيد علوم البلاغة العربية، وتتبع مراميها البيانية، واستجلائها. وفي عصرنا الحديث، توالى الدراسات القرآنية، وأثريت المكتبة القرآنية إثراء كبيراً. ووجدنا أن الدارسين شرعوا يطبقون مناهج التحليل الأدبي الحديثة على النظم القرآني، منطلقين من أنه الأرقى - بلا ريب - بلاغياً ومعنوياً وأسلوبياً، وينبغي أن نستخدم إزاء شموخه الأسلوبى ما يتاح لنا من وسائل التحليل المتعددة، للوقوف على مكان الإبداع، وأسرار الجمال، فيه.

ومن تلك المناهج التي استخدمت في تحليل النظم القرآني المنهج الأسلوبى، الذي يأخذ بمعطيات علم اللغة العام، ويفيد من المعطيات الجمالية والتركيبية اللغوية، ويوظف أدوات اللغة كلها في تحليل النصوص، للكشف عن جوانب الإبداع فيها، وللوقوف على خصائصها الأسلوبية، التي تميزها من غيرها. وقد وقفت على مجموعة من الدراسات الأسلوبية، منها ما تناول سوراً قرآنية بعينها، كدراسة تناولت سورة الكهف، وأخرى تناولت سورة مريم. ومنها ما تناول مجموعة من السور التي تنظمها سمات أسلوبية واحدة، كالدراسة التي تناولت السور المدنية. ومجموعة من الدراسات التي تناولت أجزاء عم. وهي: دراسات قرآنية في جزء عم، لمحمود لحلة. وتأويل القرآن الكريم (جزء عم) لمحمد أمين شيخو، ورسالة ماجستير بعنوان جزء عم دراسة أسلوبية، لإبراهيم عقلة الحجاج، مقدمة في جامعة مؤتة. وقد أفدت من هذه الدراسات جميعاً. ولكنني رغبت في التوسع في تحليل النظم القرآني في جزء عم. ذلك إن دراسة إبراهيم الحجاج أغفلت كثيراً من الجوانب الأسلوبية في جزء عم. ودراسة محمود لحلة كانت - في رأيي - موسعة وجيدة وأفدت منها كثيراً، إلا إنها لم تتناول المستوى الدلالي بما يروي الظماً. ودراسة شيخو تركز على التأويل. ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة، إذ ستكون مكملية لتلك الدراسات، وإضافة متواضعة إلى هذا المجال القرآني المبارك.

وستتناول الدراسة آخر الأجزاء القرآنية كاملاً وهو جزء عمّ، حيث سيكون المادة الرئيسية للدراسة، إلى جانب بعض ما يدور في فلكه من نصوص تفسيرية، ودراسات تناولته في المستويات المختلفة، الدلالية منها، والنحوية، والتصويرية، والإيقاعية، والبلاغية، وغيرها.

وستركّز الدراسة في المقام الأول على الجانب التطبيقي في المنهج الأسلوبي، حيث سيكون النظم في الجزء القرآني المعني مجالاً واسعاً لتطبيق المنهج عليه، وسيكون اختباراً حقيقياً يظهر إلى أي مدى يصلح هذا المنهج لتناول جانب من النظم القرآني بالتحليل، وذلك بعد أن طبّق المنهج على نصوص أدبية، شعرية ونثرية، وحظي بالقبول من كثير من الدارسين، لما يتسم به من الشمولية والإحاطة؛ تتمثل باستيعابه لمستويات متعددة من التحليل في تناول النص الأدبي. مع الإدراك الكامل أن النظم القرآني هو كلام الله المنزل، وأما النصوص الأدبية سواء أكانت شعرية أم نثرية هي من كلام البشر. ولكن صفة الشمولية التي يتميز بها هذا المنهج تجعله - فيما أظن - جديراً بأن ينال شرف المحاولة لتحليل النظم القرآني الكريم.

ولن تغفل الدراسة بطبيعة الحال الجانب النظري للمنهج الأسلوبي، حيث ستوطىء به، وتسوقه مقدمات موضحة للجانب التطبيقي، وستنثره أحياناً في ثنايا التطبيق، حيثما استدعى المقام ذلك. وبما أن الجانب النظري ليس هو المستهدف من هذه الدراسة، فسيكون حضوره بالقدر الملائم لتطبيقه.

وسيفلب على هذه الدراسة المنهج الوصفي، وهو أحد مناهج التحليل داخل الأسلوبية، يدرس العلاقة بين اللغة والفكر، ويهتم بالأبنية اللغوية، ووظائفها المختلفة، ويسمى أسلوبية التعبير⁽¹⁾. وقد اعتمدنا هذا المنهج بالذات لأنه هو الذي يتضمن أدوات للتحليل تتسم بالشمولية والإحاطة من كل المستويات، حيث إن الدراسات الوصفية تقوم على وصف ظواهر النظام اللغوي من خلال دراسة المستويات اللغوية كلها، وهي تدرس النصوص الأدبية من الخارج، انطلاقاً من أن السلوك اللغوي هو الكاشف للمكنون العاطفي والتعبيري الذي ينطوي عليه النص. ومن هنا ستركّز هذه الدراسة على مفردات الوصفية الأسلوبية في سعيها لتحليل آيات جزء عمّ، وهي الأسلوبيات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية.

(1) يوسف أبو العدوس: الأسلوبية: الروية والتطبيق، دار المسيرة، عمّان، 2007، ص 91.

وغلبة المنهج الوصفي في التحليل الأسلوبي على هذه الدراسة لايغني عدم حضور مناهج أسلوبية أخرى فيها أحياناً، ففي تناولنا الدلالي لـ 'جزء عم' استخدمنا الأسلوبية الدلالية بوصفها مقدمة للأسلوبية الوصفية؛ المنهج الرئيس في هذا التحليل. ولكننا استأنسنا كذلك بمنهج الدائرة الفيلولوجية⁽¹⁾، وهو منهج أسلوبي ثان، يهتم بدراسة علاقة التعبير بمبدعه. وهو مرتبط بالنقد الأدبي، ويطلق عليه أسلوبية الكاتب، أو الأسلوبية الفردية. وأفادنا هذا المنهج في استجلاء السمات الأسلوبية المكررة في 'جزء عم'.

وأفدنا كذلك من المنهج الأسلوبي الوظيفي في مستواه التواصل الذي يهتم بالبنيين السطحية والعميقة للنص، ويعنى كذلك بالجانب الدلالي للكلمات وعلاقاتها، وأثر هذه العلاقات السياقية في تكوين البنية الشكلية للنص⁽²⁾. وأبرز ما أفدنا منه في هذا المنهج نظريات 'ريفاتير' فيما يتعلق بمصطلحه 'القارئ-الجمع' وهو مجموع الانفعالات التي يثيرها النص في قارئه، ومختلف التحليلات الأسلوبية، والترجمات، وقراءات الأجيال المختلفة... وبما أنه مجموع قراءات فلا يخضع التحليل لذاتية القارئ الفرد⁽³⁾. وهذا ينسجم مع واقع تناولنا للنظم القرآني الذي تناولته قراءات لا متناهية عبر الأجيال. وما اعتمدنا اللافت على مجموعة من كتب التفسير، وكتب البلاغة القرآنية، قديماً وحديثاً، ودراسات مختلفة حول النظم القرآني في 'جزء عم' إلا تكريس لمصطلح 'القارئ-الجمع'.

وأفدنا كذلك من نظرية السياق لـ 'ريفاتير'، التي جاءت مكملية لمصطلحه السابق 'القارئ-الجمع'. حيث يكون السياق معياراً، والأسلوب إنمّا يتحقق بانحراف ما عن هذا المعيار، وهو ما يقود إلى ما سمّاه 'ريفاتير' المنبّه الأسلوبي⁽⁴⁾. وسوف نلاحظ الإفادة من مصطلح 'ريفاتير' عند تناولنا لمجازات القرآن الكريم وكنياته وصوره في 'جزء عم'.

ويجدر بالذكر أن الدراسة لم تفد من المنهج الأسلوبي الإحصائي إلا قليلاً، وقُصر ذلك على إحصاء السور في 'جزء عم'، وعدد آياتها، والموازنة العددية بين السور. والمنهج الإحصائي هو

(1) في اللغة الإنجليزية: philologue، وترجمتها: فقيه لغوي. عن كتاب: دليل الدراسات الأسلوبية، جوزيف ميشال شريم، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1984. ص 159.

(2) بيير جيرو: الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط2، 1994، ص 54-55.

(3) صمود، حمادي: الوجه واللقب في تلازم الحداثة والتراث، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م، ص 171-172.

(4) صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1985، ص 171، 166.

الذي يُعنى بإحصاء عدد الأفعال والأسماء والصفات والضمائر والظروف وحروف الجر وغيرها، بغية تحديد الملامح الأساسية للأساليب، أو تمييز ما يعتبر خواص أسلوبية مما ورد عشوائياً في النص⁽¹⁾. وجاء عدم الاهتمام الكافي بهذا المنهج الإحصائي من قناعة متواضعة لدى الباحث بأن شيوع النزعة الرقمية والإحصاء في التحليل ربما يؤثر سلباً على الصبغة اللغوية المتناسكة والجميلة للنظم. وهاهو يُبَيِّرُ جيرو نفسه مؤسس الأسلوبية الإحصائية يقول: 'يُخلط الإحصائيون غالباً بين الكم والنوع، ولم ينجحوا حتى يومنا هذا في تحديد العلاقة الوظيفية بين المستويين. ولهذا السبب، شكلت تحليلاتهم عموماً جداول حزينة من العوامل والانزياحات العددية لا يظهر معناها، وإذا ظهر كان مفرطاً وساذجاً في نظر كل أولئك الذين يكرهون أن يقننوا القيم الجمالية في مجرد علاقات كمية'⁽²⁾. ثم يستدرك 'جيرو' مبيناً جدوى الإحصاء إذا كان معالجاً معالجة ملائمة، وهو يرى أن الإحصاء أداة فعالة في دراسة الأسلوب، إلا أن تطبيقاته لم تثبت هذه الفعالية لغاية الآن⁽³⁾. ويظهر لي أنه ليس بالإمكان أن أقوم بتلك المعالجة الإحصائية الملائمة التي أشار إليها 'جيرو'، لذلك نأيت بنفسني عن ذلك.

تتوزع هذه الدراسة على خمسة فصول، بناء على مستويات التحليل الأسلوبي الوصفي، ويسبق هذه الفصول تمهيد ناقشت فيه قضايا تتعلق بالقرآن الكريم بعامه، وب'جزء عم' بخاصة، لما لها من مساس بطبيعة الدراسة، نحو ترتيب سور الجزء، وقضية المكى والمدني، بالإضافة إلى خصائص السور المكية، وتحقيقها في الجزء بوصفه جزءاً مكياً تقريباً كما سيتبين، ثم خصائص الجزء التي ينفرد بها وتميزه من باقي القسم المكى.

ومستناول الدراسة في فصلها الأول المستوى الدلالي في 'جزء عم' أناقش فيه مجالين، أولهما: القيامة والحساب. وثانيهما: نعم الله - مظاهر قدرته. والفصل الثاني للاستعمال الصرفي، أدرس فيه سبعة موضوعات، هي: إحلال صيغ محل أخرى. تعذد الصيغ. الحذف في الصيغ. اختيار الصيغ. الصيغ المركبة. المغايرة في الصيغ.

وفي الفصل الثالث من هذه الدراسة سأتناول المستوى الصوتي في الجزء، وضمن أربعة عناوانات هي: جرس الألفاظ. التكرار الصوتي. المقاطع الصوتية. وأخيراً الفاصلة القرآنية. أما

(1) يوسف أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، دار المسيرة عمان، 2007، ص 152.

(2) بيير جيرو: الأسلوبية، ص 134.

(3) السابق، ص 135.

الفصل الثالث فسيكون من نصيب المستوى التركيبي البلاغي، وسيتركز على أربع ثنائيات هي: التقديم والتأخير. الحذف والذكر. التنكير والتعريف. ثم الفصل والوصل.

والدراسة في فصلها الرابع والأخير ستركز على المستوى البلاغي بقسميه التصويري واللفظي. القسم التصويري سيتشعب إلى عنوانات ثلاثة: الصور الحسية. الانزياح. وأخيراً المشاهد. أما القسم اللفظي، ففيه ثلاثة موضوعات: التكرار اللفظي. التقابل والتماثل. ثم الإجمال والتفصيل. ثم تنتهي الدراسة بخاتمة سوف تلخص واقع التناول التحليلي في كل المستويات المذكورة، ونخرج ببعض الاستنتاجات التي تمخضت عنها الدراسة، وبعض التوصيات.

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أحمد الله تعالى على توفيقه لي في استكمال هذا الموضوع. كما لا يفوتني أن أشكر أستاذي الدكتور نايف العجلوني¹ المشرف على هذه الدراسة، وأثمن توجيهاته القيّمة، وملحوظاته الدقيقة المهمة، في مراحل الدراسة كافة. كما وأشكر كل من ساعدني في رحلة كتابتي لهذه الرسالة، وأزجي لهم عظيم التقدير والعرفان، وأسأل الله للجميع ولنفسي دوام التسديد والتوفيق والرشاد في الطريق الذي يرتضيه رب العباد.

تمهيد

سور جزء عم وتركيبها

'جزء عم' هو الجزء الأخير من أجزاء القرآن الكريم الثلاثين، ويتكوّن من سبع وثلاثين سورة، تمتاز كلّها بالقصر قياساً بمعظم سور القرآن الكريم في أجزائه التسعة والعشرين الأخرى، خصوصاً إذا ما قارناها بسور مثل البقرة وآل عمران وغيرها من طوال السور. غير أن سور هذا الجزء نفسها تتفاوت فيما بينها من حيث الطول والقصر، فبعضها يتألف من ست وأربعين آية، مثل سورة النازعات التي هي الأولى في الجزء في عدد الآيات، إذ تتوزع آياتها القصيرة على صفحة ونصف الصفحة تقريباً من صفحات المصحف الموسوم بالمصحف العثماني، المطبوع في بلاد الحرمين، وبعضها القصير جداً؛ تتكون من ثلاث آيات قصار، مكتوبة على سطر ونصف السطر تقريباً من أسطر المصحف المذكور.

و سورة النازعات كما ذكرت هي الأولى من حيث عدد الآيات في 'جزء عم'، بالرغم من أنها ليست السورة الأولى من حيث الترتيب فيه، إذ تسبقها سورة النبأ التي أخذ الجزء مسماً من أول كلمة فيها 'عم'، وتتكون من أربعين آية قصيرة. وليست هي وحدها التي تسبق سورة النبأ في عدد آياتها، بل إن سورة عبس ذات الاثنتين وأربعين آية قصيرة هي كذلك تسبق سورة النبأ، وهي التي تحتل المرتبة الثالثة في ترتيب سور الجزء.

ولا ضير من إجراء مقارنة توضيحية بين ترتيب السور في 'جزء عم' بحسب عدد آياتها، وترتيبها بحسب ما هي مرتبة في المصحف العثماني، وسنجد أن ترتيب السور بحسب ترتيبها في المصحف هو الآتي: النبأ، النازعات، عبس، التكويد، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، البينة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس.

وأما ترتيب السور بحسب عدد الآيات فيها - وعدد الآيات مثبت بمحاذاة اسم كل سورة - فهو كالآتي: النازعات (46)، عبس (42)، النبأ (40)، المطففين (36)، الفجر (30)، التكويد (29)، الغاشية (26)، الانشقاق (25)، البروج (22)، الليل (21)، البلد (20)، الانفطار

(19)، الأعلى⁽¹⁹⁾، العلق⁽¹⁹⁾، الطارق⁽¹⁷⁾، الشمس⁽¹⁵⁾، الضحى⁽¹¹⁾، العاديات⁽¹¹⁾، القارعة⁽¹¹⁾، الهمة⁽⁹⁾، الشرح⁽⁸⁾، التين⁽⁸⁾، البينة⁽⁸⁾، الزلزلة⁽⁸⁾، التكاثر⁽⁸⁾، الماعون⁽⁷⁾، الكافرون⁽⁶⁾، الناس⁽⁶⁾، القدر⁽⁵⁾، الفيل⁽⁵⁾، المسد⁽⁵⁾، الفلق⁽⁵⁾، قريش⁽⁴⁾، الإخلاص⁽⁴⁾، العصر⁽³⁾، النصر⁽³⁾، الكوثر⁽³⁾.

ومما ينبغي ذكره حين التطرق إلى موضوع عدد الآيات في سور القرآن أن هنالك من علماء القرآن من يذهب إلى القول إن البسملة هي آية من كل سورة ماعدا سورة التوبة، ومن أولئك الشافعية⁽¹⁾. حيث يستدل أصحاب هذا القول بما روي عن ابن عباس: 'ما كنا نعلم انقضاء السورة إلا بتزول بسم الله الرحمن الرحيم في أول غيرها'⁽²⁾، ولن أخوض في هذه المسألة الخلافية، فليس هاهنا محلها، وإنما أشرت إليها إشارة عابرة وجدتها جديرة بالتنبؤ إليها لما عمدت إلى ترتيب سور "جزء عم" بحسب عدد الآيات، لأنه وفقا للقول الذي أوردناه من أن البسملة هي آية من كل سورة عدا التوبة، فينبغي أن تزداد البسملة على أعداد آيات السور التي رتبناها. إلا أننا لم نتبع هذا الرأي في هذه الدراسة، بل انتهجنا ما عليه المصحف العثماني الذي لم يثبت البسملة آية من كل سورة، وهو الشائع بين المسلمين.

وفي ترتيب القرآن بحسب ما هو مثبت في المصحف الشريف المتداول بين الناس في أيامنا ثلاثة مذاهب؛ أولها: أن الترتيب لم يكن بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إنما كان باجتهاد من الصحابة، وقد استدلوا على ذلك بأن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور فيها قبل جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان، حيث اختلف كل من مصاحف أبي بن كعب وعبدالله بن مسعود والإمام علي ابن أبي طالب في ترتيب السور فيها بحسب ما أثبتت الروايات⁽³⁾.

وثاني المذاهب في ترتيب سور القرآن هو: أن هذا الترتيب كله توقيفي بتعليم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كترتيب الآيات. واستدل أصحاب هذا الرأي بإجماع الصحابة على مصحف عثمان بدون أن يشذّ منهم أحد، الأمر الذي ما كان ليحدث لو أن الترتيب كان بالاجتهاد، إذ كان سيتمسك أصحاب المصاحف المخالفة لهذا الترتيب بمخالفتهم. بل الأمر أنهم قد

(1) المقدسي، شهاب الدين أبو محمد، كتاب البسملة، تحقيق: عدنان بن عبدالرزاق الحموي، منشورات الجمع الثقافي في أبوظبي، 2004، ص 112.

(2) السابق، ص 115.

(3) محمد عبدالعظيم الزرقاني: مناهل العرفان، ج 1 دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995، ص 249.

عدلوا عن مصاحفهم فأحرقوها. واحتج أصحاب هذا الرأي كذلك بأن السور المتجانسة في القرآن نحو سور المسبحات - أي التي تبدأ بسبح لله أو يسبح لله - لم يلتزم فيها الترتيب والولاء، وهذا على حد قولهم يطل الرأي القائل باجتهاد الترتيب⁽¹⁾.

وأما ثالث هذه المذاهب في ترتيب سور القرآن الكريم فهو القائل بأن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة. ويرى مؤلف كتاب 'مناهل العرفان' أن هذا الرأي هو أمثل الآراء، ويحتج على ذلك بوجود أحاديث تفيد ترتيب بعض السور توقيفا، وأحاديث خلت مما يفيد التوقيف، بل إنه يشير إلى آثار صرحت بأن الترتيب في بعضها كان عن اجتهاد، ولكنه يذكر أن الاختلاف وقع بين مؤيدي هذا القول في السور التي توقف في ترتيبها والسور التي اجتهد في ترتيبها، وقد أورد الآراء المتضاربة لمؤيدي هذا المذهب من أمثال القاضي أبي محمد بن عطية، وأبي جعفر بن الزبير، والسيوطي⁽²⁾.

غير أن الزركشي في 'برهانه' يجعل الخلاف من أساسه لفظيا، ذلك أنه نقل عن الإمام مالك بن أنس أن الصحابة ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم، فالخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي، أو بمجرد إسناد فعلي، فيبقى لهم فيه مجال للنظر⁽³⁾.

وأراني أميل إلى الرأي الثاني الذي يقول بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم، إذ لو كان الترتيب بالاجتهاد لما وجدنا أن سور 'جزء عم' - وهو موضوع هذه الدراسة - ستكون على ما هي عليه الآن من الترتيب، حيث لاحظنا من خلال المقارنة بين الترتيب بناء على عدد الآيات والترتيب بحسب ما هو مثبت في المصحف الشريف أنه لو كان الترتيب بالاجتهاد فإنه كان سيرا على عدد الآيات وأحجام السور، كما نجد أنها قد روعيت في ترتيب السور الطوال في القرآن نحو البقرة وآل عمران وغيرها. بيد أن ذلك لم يحدث، بل نجد أن سورة 'الفجر' ذات الثلاثين آية قد تقدمت عليها سورة 'الطارق' ذات السبع عشرة آية، والأمر ذاته مع سورتي 'الشمس' و'الليل'، فتقدمت الأولى على الثانية، مع أن عدد آيات سورة 'الليل' إحدى وعشرون، وآيات سورة 'الشمس' هي خمس عشرة، لا بل نجد أن 'الكوثر' وهي أقل سور القرآن آيات، وتشارك مع سورتي 'العصر' و'النصر' في ثلاث

(1) الزرقاني: مناهل العرفان، ج 1، ص 25-26.

(2) السابق: ص 251-252.

(3) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في حل القرآن، ج 1، دار المعرفة، بيروت، 1972، ص 35.

آيات لكل منها- نَجدها قد تقدمت على سور نحو الناس والكافرون ذات الست آيات.

أما ما أشار إليه مؤلف 'مناهل العرفان' من أن هنالك روايات وأحاديث أثبتت الرأي الثالث القائل بأن بعض السور قد رتب توقيفاً، وبعضها رتب اجتهاداً، فنقول لو أن هذه الروايات صحّت وتواترت لكانت وصلت وبلغت أصحاب المذهب الثاني القائل بالتوقيف في ترتيب السور كلها، ولكان هؤلاء أخذوا بتلك الروايات، وعدلوا عن رأيهم، أو ما كان لهم مثل هذا الرأي أصلاً، وفيهم علماء كبار من أمثال أبي جعفر النحاس الذي قال: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثلة: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال⁽¹⁾. وفيهم أبو بكر الأنباري الذي يقول: أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف. كله من النبي ﷺ فمن قَدّم سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن⁽²⁾.

وإذ وقفنا على هذه القضية المتعلقة بترتيب سور القرآن الكريم، فلأنا نرى أن ترتيب سور 'جزء عم' حسبما هي مثبتة في المصحف بمسّ موضوع هذه الدراسة الأسلوبية التي سنتناول الجزء القرآني بوصفه وحدة واحدة تجمعها قواسم دلالية ولغوية وصوتية مشتركة، ولأن الدراسة سنتناول سور الجزء بوصفها لبنات جزئية ضمن بناء متماسك محكم متناغم. فإن ترتيب هذه اللبنات - السور سيكون مهماً في تحقيق هذا التناغم المفترض في الجزء القرآني الأخير. وما يدعونا إلى هذا الافتراض هو التوقيف في ترتيب السور الذي هو رأي قوي كما لاحظنا، والذي جعل الأنباري يعتقد أن الإخلال فيه هو إخلال وإفساد للنظم القرآني كما مرّ، وهذا جليّ الإشارة إلى ما افترضته من تناغم أسلوبى بين سور 'جزء عم' بناء على معطيات كثيرة منها ترتيب السور الترتيب المعروف.

المكي والمدني في 'جزء عم'

ومن القضايا التي لها صلة أساسية بموضوع هذا البحث كذلك قضية المكي والمدني؛ إذ إن السور المدنية - كما ثبت بالبحث والدرس - لها خصائص أسلوبية ولغوية تميزها من السور المكية،

(1) الزرقاني: مناهل العرفان، ج 1، ص 251. وقد نقله من كتاب الإتيان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى، ص 138. والحديث رواه الإمام أحمد في المسند، مج 4، ص 107، طبعة دار الفكر، بيروت.

(2) نقله جلال الدين السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ص 137. وكذلك الزرقاني: مناهل العرفان، ج 1، ص 251.

كما أن للسور المكية بدورها خصائص تميزها من السور المدنية⁽¹⁾. وبما أن هذه الدراسة تتناول النظم في جزء كامل من القرآن الكريم يشتمل على سور مكية وأخرى مدنية، فلا بد لنا من التعرض لهذه القضية ومناقشتها، لنبين ما الذي اتفق على ما هو مكّي في هذا الجزء، وما هو مدني، وإيها وقع فيه الاختلاف بين أهل الاختصاص في هذا المجال.

وقد ذهب العلماء المسلمون في تحديد المكّي والمدني من السور ثلاثة مذاهب: فالأول يرى أنّ المكّي: ما نزل قبل الهجرة. والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة⁽²⁾. والقول الثاني: أنّ المكّي: ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني: ما نزل بالمدينة⁽³⁾. أما القول الثالث: إنّ المكّي: ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة⁽⁴⁾. ونلاحظ أنه في هذا النوع الأخير قد روعي المخاطبون. في حين روعي المكان في الرأي الثاني. واعتمد الرأي الأول على الترتيب الزمني في مراحل الدعوة الإسلامية. وأراني أميل إلى القول الأول، لأنه يتيح لقارئ القرآن المتذوق تلمس فرق الأسلوب في التنزيل القرآني قبل الهجرة وبعدها.

والخوض في هذه القضية سيبيّن لنا ما إذا كان المكّي أو المدني هو النوع الذي غلب على جزء عمّ، وسيساعدنا ذلك في استجلاء خصائص أسلوبية واضحة ومحددة لهذا الجزء القرآني. وسيبيّن لنا كذلك ما إذا كانت السور المدنية والمكية تجمعها صفات مشتركة، انطلاقاً من فرضية سنعمد إلى إثباتها في هذا البحث، مفادها أن لجزء عمّ خصائص أسلوبية تميزه من باقي أجزاء القرآن، الأمر الذي سيجعل المكّي والمدني فيه يشتركان في هذه الخصائص، مع استقلال كل منهما ببعض المزايا التي مكّنت العلماء من التثبت من مكية السورة أو مدنيتهما. ولكن بما أنها في جزء واحد فنفترض اشتراكها في خصيصة أسلوبية واحدة ميّزت هذا الجزء من غيره.

وقضية المكّي والمدني هي قضية ذات أبعاد عميقة، وقد خاض فيها العلماء المختصون قديماً وحديثاً، بحيث لا نجد كتاباً في علوم القرآن إلا وقف عليها بشكل مسهب. وسنقف عليها بما يخدم موضوع البحث، وهو - بالتحديد - تبيان السور المكية والمدنية في جزء عمّ، وأثر ذلك على

(1) عهود عبدالواحد: السور المدنية: دراسة أسلوبية وبلاغية، دار الفكر، عمان، ط 1، 1999، ص 233-236.

(2) بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 187.

(3) جلال الدين السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد: الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1987م، ج 1، ص 28.

(4) السابق، ص 28.

أسلوبية هذا الجزء، لمعرفة ما إذا كان توزع الجزء بين مكّي ومدني قد جعله متنوع الأسلوب. وبتحديد أدق، لمعرفة ما إذا كانت السور المدنية والمكية قد انصهرت في بوتقة أسلوبية واحدة ميّزت الجزء، أم لا، بحيث كانت خصائصها كسور مدنية أو مكية أبرز بوصفها سوراً تشترك في إطار أسلوبى واحد.

ما نخدمنا في هذا البحث - كما مرّ - هو أن نعرف ما أجمع العلماء على مدنيته وما أجمعوا على مكّيته في جزء عمّ، ثمّ ما كان محلّ اختلاف بينهم. وقد وجدنا أنّ السورة الوحيدة المجمع على مدنيّتها هي سورة النصر بحسب ما ورد في كتاب مناهل العرفان⁽¹⁾. أمّا المجمع على مكّيته فهو تسع وعشرون سورة، يشمل معظم سور الجزء، وهي: النبأ، النازعات، عبس، التكويد، الانفطار، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، المزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، المسد⁽²⁾.

والمختلف فيه هي السور الآتية: القدر، البيّنة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس. بيد إنّ الزركشي قطع بمكية ثلاث من السور المختلف فيها، وهي: الإخلاص والعلق والناس، حيث قال: "أول ما نزل من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ثمّ ن والقلم... ثمّ قل يا أيها الكافرون ثمّ سورة الفيل ثمّ الفلق، ثمّ الناس، ثمّ قل هو الله أحد، ثمّ والنجم إذا هوى..."⁽³⁾. وموضوع كل من هذه السور الثلاث يؤكّد ما ذهب إليه الزركشي، حيث تدور كلها حول حمد الله وتوحيده وبيان صفاته والاستعاذة به، وهذا كله من خصائص السور المكية. وأسلوبها يؤكّد ذلك أيضاً، حيث تحكّمها موسيقاً لغوية رائعة، مؤتلفة، متناسبة كأنها قطعة واحدة، وفقراتها قصيرة، وفواصلها متماثلة.

وأما سورة الزلزلة المختلف فيها أيضاً، فقد ذهب ابن كثير من القدماء، وسيد قطب من المحدثين إلى القول بمكيّتها، مع أنّ العلماء كادوا يجمعون على مدنيّتها، وما دفع قطب إلى تبني هذا الرأي هو موضوع السورة المنصب على قيام الساعة وأهواله⁽⁴⁾. وإلى جانب الموضوع فهناك الأسلوب أيضاً، فهو يعزز الرأي بمكية السورة. إذ إنّها قصيرة الفقرات، متماثلة الفواصل، وآياتها

(1) الزرقاني: مناهل العرفان، ج 1، ص 201.

(2) السابق، ص 201.

(3) السابق، ص 194.

(4) سيد قطب: تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط 10، 1982، مج 6، ص 3954.

متناسبة الطول تقريبا، وعلى صعيد التصوير فيها فقد ازدحمت بالصور المتحركة بسرعة وبقوة، فهي مشاهد متتابعة تجعل ذلك الموقف الرهيب ماثلا للعيان مما تختص بأمثاله السور المكية، ويكثر فيها، وبخاصة التي تبتدئ بـ 'إذا' ⁽¹⁾.

وسورة 'القدر' هي مكية على الأرجح أيضا، نظراً لطبيعة موضوع السورة وأسلوبها، حيث إن الموضوع يتناول ليلة نزول القرآن، ومن المقطوع به أن هذا حدث في مكة. أما من حيث الأسلوب فهي قصيرة، ذات فواصل قصيرة رائية فقط ⁽²⁾.

والأمر نفسه مع سورة 'المطففين'، للأسباب نفسها، فهي مكية الموضوع والأسلوب. وهناك من يرى أن صدر هذه السورة قد يكون نزل بالمدينة، وهو ما يشير إلى المتلاعبين بالموازين المطففين، أما بقية الآيات فهي تندرج تحت الموضوعات المكية. من قبيل تبيان آمال الفجار وصحائف الأبرار وحال استهزاء الجرمين وتغامزهم ⁽³⁾.

أما سورة 'البينة' فعلى الأرجح أنها مدنية. استناداً على قاعدتي الموضوع والأسلوب، فموضوع السورة يأخذ منحى حاجة أهل الكتاب، وبيان مصير الكافرين منهم، ثم ينتقل إلى ذكر الجنة والنار بوصفه جزاء للأعمال. ولم تقف السورة على ذكر أهوال النار. وهذا كله يندرج تحت الأسلوب المدني في القرآن الكريم. وهو ما ذهب إليه ابن كثير من القدماء، إذ جزم بمدنية السورة معتمداً على حديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ⁽⁴⁾.

والخلاصة هي أن جزء عم يكاد يكون مكيّاً بالكامل، لولا سورتان فيه، إحداهما قطع بمدنيتها، وهي سورة النصر، والأخرى رجحت مدنيتها، وقامت على ذلك براهين تكاد تكون حاسمة، وهي سورة 'البينة'. إذن فلدينا خمس وثلاثون سورة مكية من أصل سبع وثلاثين، ومثل هذه النتيجة الجلية تقودنا مبدئياً إلى القول إن الأسلوب المكي سائد في هذا الجزء القرآني، حتى إن السورتين المدنيتين - وبالأخص سورة 'النصر' - تأثرتا إلى حد ما بهذه الصبغة المكية، وكادتتا تتماهيان مع أسلوبية الجزء لولا احتفاظهما بخصائص مدنية يحكمها الموضوع والأسلوب في مستوى من المستويات.

(1) عهود عبد الواحد: السور المدنية، ص 24.

(2) أحمد عباس البديوي: أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، دار عمار، عمان، ط 1، 1999، ص 75.

(3) انظر: السابق، ص 73-74.

(4) السابق: ص 75.

ومثل هذه النتيجة ستجعل هذه الدراسة تنطلق في منحيين، أولهما: تبيان أهم خصائص السور المكية في كامل القرآن، وتتبع مدى تحقق هذه الخصائص في "جزء عمّ المكي" بالكامل تقريبا، وهذا سيكون في مرحلة أولى. وثانيهما محاولة استجلاء خصائص أسلوبية تميّز ذلك الجزء من سائر القسم المكي في القرآن الكريم. وبعبارة أخرى، تستهدف الدراسة في مرحلتها الأولى إلى تمييز "جزء عمّ" بخصائص تجعله مستقلا بأسلوب خاص عن سائر القسم المكي في القرآن، فضلا على القسم المدني فيه.

وستكون هذه الدراسة في إطار المنهج الأسلوبى الذي يستخدم أدوات اللغة المختلفة لتحليل النصوص واستجلاء خصائصها ومكامن الإبداع فيها، وأرجو أن يوفقنا الله تعالى إلى حسن الوقوف على أسرار الإبداع والجمال في جزء من أجزاء كتابه المجيد.

خصائص السور المكية ومدى تحققها في "جزء عمّ":

خصائص هي جمع للمفردة "خاصة"، وهي لغةٌ خلاف العامة، وخاصة الشيء ما يختص به دون غيره⁽¹⁾. وقال الراغب الأصفهاني: التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصّص تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتعميم⁽²⁾. وما ثبت لكل باحث في أسلوب القرآن الكريم أنّ هنالك خصائص تميّز السور المكية من السور المدنية فيه، وتلك الخصائص تشعب في نوعين، أولهما يتمحور حول الأسلوب، والثاني يندرج في إطار الموضوع.

أولاً: الخصائص الأسلوبية.

وأهم خصيصتين أسلوبيتين للسور المكية اشترك "جزء عمّ" فيهما مع سائر القسم المكي هما:

1- قصر الآيات:

السور المكية امتازت بقصر الآيات مع جزالة اللفظ، بما يصحح الأذان، ويشد وقعته على السامع. فقد ناسب قصرها وجزالتها وسرعة إيقاعها المخاطبين بها من أهل مكة والعرب في بدايات

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط 1 ج 1، ص 297، مادة تخصّص.

(2) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط 1، ص 150.

الدعوة، ويناسب كذلك كل مقبل جديد على الإسلام في كل زمان ومكان، إذ تقوم تلك السور أمامه كومضات وإشارات سريعة تهديه إلى الطريق السوي. ثم بعد أن تترسخ لديه عقائد التوحيد والمعاد والنبوة والقضاء والقدر، ينتقل إلى معرفة التشريع والأحكام المبثوثة في السور المدنية. أوليس أول ما يتعلمه الأطفال المسلمون من القرآن هو هذه السور المكية القصيرة في جزء عم؟ حيث تترسخ لديهم عقائد الإيمان منذ نعومة أظفارهم. وهو تماما ما احتاج إليه المسلمون الأوائل، أو بالأحرى ما احتاج إليه الناس في بداية نزول القرآن، إذ جاء خطابا سريعا موجزا، مكثفا، ذا تأثير عظيم في النفس البشرية. فهو سريع موجز كي يستظهره الناس بسهولة، ومكثف كي يعملوا فكرهم فيه بعد الحفظ، فتفتح لهم أبواب واسعة تدخلهم بقوة في فضاء الإيمان وساحات اليقين. لا كما احتل بعض الباحثين من أن ذلك لأن المخاطبين، وهم عرب الجزيرة أهل فصاحة، فيناسبهم الإيجاز دون الإطناب. كما أنهم أهل لاجحة ومشاقة فيناسبهم أن يخاطبوا بقوة الألفاظ الزاجرة⁽¹⁾. وكأنهم بذلك حصروا خطاب القرآن بعرب الجزيرة في تلك المرحلة حسب. والحال أنه للناس جميعا في كل زمان ومكان.

وهذا ما التفت إليه الموروث النقدي والبلاغي العربي، فيقول أبو هلال العسكري: "وتختير الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التمام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له، وأدعى للقلوب إليه. وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحق بالمقام والحال، كان جامعا للحسن، بارعا في الفضل، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام"⁽²⁾.

ونجد صدى ذلك في طرح أسلوبي يدعى الاختيار النفعي³ حيث ينبغي لمنشئ النص المبدع أن يكون واعيا لحال المخاطب وظروفه المختلفة ليتسنى له أن يكون مقنعا له ومؤثرا فيه⁽³⁾. ومن أبصر وأعرف من الخالق بحال خلقه؟ وتجدد الإشارة إلى أن الاختيار النفعي يرتبط بنوع آخر هو

(1) البدوي: أهم خصائص السور والآيات المكية، ص 35.

(2) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل: كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل

إبراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1952م، ص 141.

(3) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 168.

الاختيار النحوي الذي يقوم على قواعد اللغة بمفهومها الشامل الصوتية والصرفية والدلالية⁽¹⁾، وهي المباحث التي ستكون محاور لهذه الدراسة. والارتباط بين هذين الاختيارين يقوم على أن طبيعة المقام التي يناسبها اختيار نفعي من نوع ما، هي كذلك تستدعي اختياراً نحوياً مناسباً، أي أن الاختيار النفعي سيحكم الاختيار النحوي من حيث اختيار الطبيعة اللغوية التي تناسب ذلك المقام. ومن الجدير بالذكر أن النقاد يجمعون على أهمية الاختيار في الدراسات الأسلوبية، ويتضح ذلك عند جاكوبسون؛ إذ عرّف الوظيفة الشعرية بأنها إسقاط مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف، فالاختيار ناتج على أساس قاعدة التماثل والمثابة والمغايرة والترادف والطباق. بينما يعتمد التأليف وبناء المتواليات على المجاورة⁽²⁾. كما أن لمسألة الاختيار بوصفها قاعدة أسلوبية مساساً بنظرية التأثير والاتصال التي قال بها ولفجانج آيسر⁽³⁾ والتي تنص على أن الإبداع القائم على الاختيار مرتبط بالمبدع وبالمتلقي على حد سواء⁽⁴⁾. ومن هنا تتضح أهمية نظرية أسلوبية أخرى هي نظرية الاستقبال التي لها ارتباط وثيق بما ذكرنا.

وعوداً إلى خاصية قصر الآيات وجزالتها في السور المكية، وسنجد هذا متحققاً كامل التحقق في جزء عم، حيث تطالعنا سورة النازعات، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ﴾ (النازعات 6-9). فالآيات بائنة القصر، لكنها في منتهى الجزالة والتأثير ودقة النظم، وفيها إشارة إلى نفختي الصور⁽⁴⁾. يدل عليهما قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر: 68). وبمقارنة الآيات الثلاث من سورة النازعات بالآية السابقة من سورة الزمر تتضح لنا خاصيتا القصر والجزالة المؤثرتان في النفس ذلك التأثير السريع والعميق، حيث تكثيف المعنى في إطار إيقاعي سريع يجعل العقل والقلب يعملان، كل واحد منهما في أجوائه، فالعقل للتعلم في المعنى، والقلب للتفاعل مع الإيقاع السريع المؤثر. كما تتجلى خاصية قصر الآيات وجزالتها أكثر ما تتجلى في سورة التكويد، وهي السورة

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق: ص 168.

(2) رومان جاكوبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988م، ص 33.

(3) محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1989م، ص 38.

(4) محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 2، 1974، مج 20، ص 184.

الرابعة في 'جزء عم'، حيث يقول المولى عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ (التكوير: 1-9). وقصر الآيات هنا واضح جلي، وجزالتها منقطعة النظر، وتأثيرها عظيم من حيث تصويرها المكثف لمشاهد متلاحقة من يوم القيامة والبعث ضمن إيقاع سريع يعكس سرعة وقوع تلك الأحداث، ولكن في الوقت نفسه تعكس الألفاظ بقوتها وإيجاءاتها المخيفة مدى شدة ذلك اليوم وأهواله.

وإذا استعرضنا سورة من وسط الجزء الكريم، فستقابلنا سورة الشمس، وهي ذات إيقاع سريع، وفواصل متقاربة جداً، حيث الآيات الأولى تتكون من كلمتين حسب: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤﴾. وأوضح ما فيها هو سرعة الإيقاع، غير أنها تحمل مضامين واسعة، فهي آيات شديدة التكثيف، فلو أراد عالم أن يوضح للناس مضمون الآية الأولى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ لاحتاج إلى الكثير من الكلام والوقت حول الشمس وخلقها وضوئها وماهيتها... إلخ.

وفي آخر الجزء تطالعنا سورة الإخلاص، وهي السورة العجيبة التي تضمنت التوحيد بكل عظمته ومعانيه وعمقه، وعبرت عنه بعبارات قصيرة سريعة مكثفة قليلة، حيث انحصرت السورة في أربع من الآيات. وعلى قصرها فقد احتاجت من صاحب التفسير الكبير إلى اثنتي عشرة صفحة من القطع الكبير لتفسيرها ومتابعة تشعباتها ومراميقها العميقة والكثيرة⁽¹⁾. وكذلك الأمر مع صاحب تفسير الميزان، فقد فسرها في خمس من الصفحات ذات الخط الضئيل⁽²⁾، وهو قليل من كثير، في حق هذه السورة العظيمة.

(1) الرازي، محمد بن ضياء الدين عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، د.ت.ج. 32، ص 174-185.

(2) انظر: الطباطبائي: الميزان، مج20، ص387-391.

2- كثرة القسم:

وهو متحقق بوفرة في جزء عم، خصوصا في استهلالات السور. نحو: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾^(١) و﴿النَّاسِطَاتِ ذُشْطًا﴾^(٢) و﴿السَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾^(٣) (النازعات: 1-3). ونحو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾^(٤) و﴿الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾^(٥) و﴿شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾^(٦) (البروج: 1-3). وكذلك كل من سور: الطارق، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر. وجاء القسم في أواسط كل من سور التكويد: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾^(٧) و﴿الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(٩) (التكويد 17-20)، والانشقاق: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾^(١٠) و﴿اللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾^(١١) و﴿الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾^(١٢) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾^(١٣) (الانشقاق 16-19). ويلحظ أن القسم جاء بأسلوين، الأول: القسم بحرف القسم الواو، وهو الأكثر شيوعا كما مر معنا في كل من النازعات والبروج والطارق والفجر والشمس والليل... حيث جاء القسم بالواو للفت الانتباه إلى عظمة المقسم به، ذلك أن بعض ما أقسم به المولى يمثل نعمة من نعمه العظيمة على عباده، كالشمس والليل والحنس وهي النجوم. وبعضه يمثل موجودا له دور في حياة الإنسان نحو النازعات وهي - بحسب بعض الأقوال - الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وقيل هو الموت يتزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا^(١٤). وسواء أكان المراد هو الملائكة، أم الموت، فلهما دور كبير في حياة الإنسان.

وبعض ما أقسم الله به مثل قيمة زمانية للإنسان، وينطوي على تنبيه له للالتفات إلى تلك القيمة والإفادة منها، نحو ما نلجده في القسم الذي استهل فيه الباري - جلّ وعلا - كل من سور الفجر والعصر والضحى والليل والبروج حيث جاء القسم باليوم الموعود وبالشاهد والمشهود في سورة البروج. واليوم الموعود هو يوم القيامة، والشاهد كما ذهب بعض التفاسير هو يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة على اختلاف كبير في تفسيرهما. وقد يكون الشاهد هو يوم النحر والمشهود يوم عرفة، أو الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة، وللمفسرين فيهما أقاويل كثيرة وصلت إلى ثلاثين قولاً بحسب ما أورد صاحب الميزان^(١٥). لكن وإن اختلفت تفاسيرها فهي تشير إلى قيم زمانية

(١) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20 ص 179.

(٢) السابق، ص 249.

اكتسبتها هذه الأيام. ولعلّ هذا الاختلاف بين المفسرين - فيما أرى - كان مبعثه القسم ذاته الذي يدل على العظمة والقيمة الكبيرة، فجاء الاختلاف مرتكزا على محاولاتهم تحديد أعظم الأيام وأهمها للإنسان.

والنوع الثاني من القسم هو القسم بصيغة 'لا أقسم' بدخول 'لا النافية' قبل القسم. وفائدتها تأكيد القسم لا نفيه. و كان هذا شائعا على لسان العرب، أي لا يقسم بالأمر المراد إلا تعظيما له⁽¹⁾. ونجده في جزء عمّ في ثلاثة مواضع، فقد استهلكت به سورة البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَإِلَى وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ (البلد: 1-4). وجاء متوسطا في سورتي التكويد: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٠﴾﴾ (التكويد 17-20). والانشقاق: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ ﴿١٦﴾ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ ﴿١٧﴾ إِذَا أَسَقَ لَتَرَكُنَّ ﴿١٨﴾ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق 16-19).

والملاحظ الأسلوب في القسم هو أنه ينطوي على إيجابية تثري المعنى المراد معنويا، وتلفت الانتباه إليه، ونحث على التأمل في قيمة وجوده، سواء أكان هذا الشيء مادياً أم معنوياً. فالقسم يكون أسلوباً يناسب النص الدعوي والخطاب الذي يدعو إلى التغيير، وإلى التفكير في قيمة الأشياء، وإلى تحرر العقل من جموده وغفلته.

ثانيا: الخصائص الموضوعية

الخصائص الموضوعية هي التي تتخذ من موضوع السورة ومضمونها ركيزة لتحديد انتمائها إلى أحد القسمين القرآنيين المكّي والمدني، حيث يكون ذلك الموضوع مطروقا بوفرة في أحد القسمين، ولا يعدم وجوده في القسم الآخر، لكن يكون وجودا قليلا لا يشكل ميزة واضحة. وأهم خصيصتين موضوعيتين في الجزء هما:

⁽¹⁾ عزيزة يونس بشير: النحو في خلال القرآن الكريم، دار مجدلاوي، عمان، ط 1، 1998م، ص 179.

1- تناول قصص الأنبياء والأمم السابقة⁽¹⁾.

وقد تحققت هذه الخاصية في جزء عمّ في خمس من سوره، هي: النازعات والبروج والفجر والشمس والفيل. ففي النازعات نجد ذكرا لقصة النبي موسى عليه السلام مع فرعون، وانحصرت في الآيات 15-25 من السورة.

وأما في سورة البروج فهناك إشارة إلى قصة أصحاب الأخدود، وهي القصة التي لم تطرق إلا في هذه السورة، حيث تضمنتها الآيات 4-10. والقصة هي قصة الجبابرة الذين خدّوا أخدودا وأضرموا فيها النار وأمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم⁽²⁾.

وتطالعنا قصة ثمود في سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: 11-15). وفي سورة الفجر هنالك إشارات سريعة لأقوام عاد وثمود وفرعون⁽³⁾.

وحظيت سورة الفيل بقصة أصحاب الفيل المعروفة والمثبتة مفصلة في كل كتب التفسير، نحو التفسير الكبير⁽⁴⁾، وهذه القصة لم تذكر إلا في هذه السورة، شأنها شأن قصة الأخدود التي استأثرت بها سورة البروج كما مر معنا، وشأن قصة يوسف عليه السلام التي انفردت بنقلها السورة المسماة باسمه يوسف.

وقد ظهر الإيجاز في قصص الأنبياء والأمم السابقة في جزء عمّ جليا بما يتناسب وطبيعة الجزء. وهو الأمر الذي سيتم بحثه لاحقا بشيء من التفصيل إن شاء الله.

(1) البدوي: أهم خصائص السور والآيات المكية، ص 37.

(2) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج 20، ص 251.

(3) انظر: سورة الفجر، 6-13.

(4) انظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 96.

2- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر والتذكير بزوال الدنيا وحتمية يوم الحساب⁽¹⁾. وهي متحققة تحقّقاً بارزاً في 'جزء عم' ولنجد ذلك في سور كثيرة من الجزء، بل في معظم سوره. فتزخر سورة النبأ بتصوير يوم الحساب ومصائر الكافرين والمؤمنين فيه، في آياتها 17-40. كذلك اشتملت سورة النازعات على نصيب وافر من ذكر يوم الحساب، تمثل في مرحلتين: المرحلة الأولى تتمثل في الآيات 6 إلى 9. والمرحلة الثانية تمثلها الآيات 34 - 46. وعليه فقد استحوذ هذا الموضوع على خمس عشرة آية من ست وأربعين هو مجموع آيات سورة النازعات، أي ما يعادل ثلث السورة.

وكانت الآيات العشر الخاتمة في سورة عبس' منصبة كذلك على موضوع يوم القيامة والحساب. في حين ابتدأت سورة التكويد بذكر يوم القيامة ذكراً قوياً، في أربع عشرة آية من مجموع آياتها التسع والعشرين، أي ما يعادل نصف السورة تقريباً. والأمر نفسه في سورة الانشقاق' حيث ابتدأت السورة وختمت في الحديث عن يوم القيامة. وكذلك كل من سور المطففين' والتي فيها ذكر كثير ليوم القيامة. والغاشية' التي تزخر بالحديث عن ذلك اليوم. وكل من الفجر، البلد، الليل، البيّنة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، والهمزة، كلها أتت على ذكر يوم القيامة والحساب، بتفاوت في ما بينها إذ كان الموضوع الرئيسي في بعضها مثل الزلزلة' والقارعة، أو كان ذكره مكملًا لموضوع ابتدأت به السورة، على نحو ما نجد في سورة البلد' التي ختمت بإشارة إلى النار المؤصدة بوصفها جزاء أصحاب المشأمة الكافرين الذين سبق الحديث عنهم في وسط السورة. وكذلك في سورة الفجر' التي وردت فيها إشارة إلى مشاهد القيامة من اصطفاف الملائكة وسوق جهنم وعذاب الكافرين، فكانت هذه خاتمة مناسبة للحديث السابق عن عدم إكرام اليتيم، وعدم الخض على طعام المسكين، وحب الدنيا والمال. وهي الأمور التي مبعثها عدم الإيمان بيوم الحساب الذي يتحقق فيه العدل الإلهي، ويقتص فيه من الظالمين.

والأمر نفسه مجده في سور الليل، البيّنة، العاديات، والتكاثر'. إذ كان ذكر يوم القيامة أو الإشارة إليه مكملًا لموضوع سابق متعلق به، وغالباً هو موضوع حب الدنيا، والتعلق بها وطول الأمل فيها. فكان من الملائم أن تنتهي تلك السور بما يقطع على الغافل أمله، وعلى الظالم تماديه، وعلى الكافر كفره بذلك اليوم الحق الذي لا مفر منه.

(1) عهود عبد الواحد: السور المدنية، ص 27.

ويبدو لي أن تناول سور وآيات "جزء عم" ليوم القيامة قد تعددت أساليبه من حيث الطول والقصر، وتنوعت ألفاظه من حيث الشدة والتوسط، وتفاوتت إيقاعاته من حيث التأثير والسرعة. فما ورد في سورة القارعة على سبيل المثال يختلف عما ورد في سورة العاديات؛ ففي الوقت الذي نلاحظ فيه الشدة والإيقاع المدوّي والألفاظ التي تقرر القلب قرعاً في سورة القارعة، كما سوف تقرر تلك القارعة قلوب الناس، نجد أن الأمر يختلف في سورة العاديات، حيث تنتهي السورة بآيات ثلاث: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، ففيها هدوء الجرس والدعوة إلى التأمل والتفكير في ذلك اليوم المحتوم والتحذير منه. وقد ركزت الآيات الثلاث على مشهدين من مشاهد يوم القيامة يُعدان هادئين بالمقارنة مع الأحوال العنيفة في ذلك اليوم، وهما مشهد الخروج من القبور، ومشهد كشف النوايا والحساب أمام العليم بذات الصدور.

والأمر نفسه سنكتشفه لو عقدنا المقارنة نفسها بين سورتي الزلزلة والتكاثر، وبين الغاشية والبلد. والخلاصة أن السور التي كان موضوعها الرئيسي هو يوم القيامة ظهرت فيها شدة الألفاظ وقوة الإيقاع والتصوير المخيف لأحوال ذلك اليوم، في حين أن السور التي لم يكن موضوعها الرئيسي هو يوم القيامة، بل كان مكملاً لموضوع رئيسي أو جزءاً من نسيج متعدد للسورة، فقد كان فيها التصوير ليوم القيامة أقل شدة، وأميل للتوسط، وأكثر دعوة للتأمل والتفكير والحذر منه، من أن يكون إخافة تصويرية إيقاعية. ويعزز ذلك ما أشار إليه سيد قطب في معرض تفسيره لسورة النازعات من التباين في الإيقاع بين الشدة والهدوء داخل السورة الواحدة، تبعاً لتباين الموضوع المعني⁽¹⁾.

كان ذلك رصداً لما توافر في "جزء عم" من أهم خصائص السور المكية بشقيها الأسلوبية والموضوعي، وقد رأينا كيف أن الجزء قد مثل الطبيعة القرآنية المكية خير تمثيل. غير أن لجزء عم كذلك خصائص ينفرد بها، تميزه من سائر القرآن المكي ذاته، فضلاً على القرآن المدني. وسأعرض فيما يأتي أهم هذه الخصائص التي تميز بها الجزء أسلوبياً وموضوعياً والتي استخلصتها من خلال مقارنات قمت بها بين سور الجزء وسائر السور المكية.

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3811.

خصائص 'جزء عم':

1- تكثيف المعنى:

ويكون ضمن عبارات موجزة وإيقاع سريع في كثير من مواضع الجزء، ولم ينفرد 'جزء عم' بقصر الآيات وإيجاز العبارات وسرعة الإيقاع، فقد أشبهته في ذلك كثير من سور القرآن المكية في غيره من الأجزاء، نحو سور الصافات، الواقعة في الجزء الثالث والعشرين، ونحو سور الطور والنجم والواقعة والرحمن الواقعة في الجزء السابع والعشرين، وغيرها الكثير. وأمّا التكثيف - أي تضمين العبارة القصيرة المعنى الواسع - والاختصار فهما ميزتان في الجزء. فلو قارنا قصة موسى الواردة في سورة النازعات - سورة الثانية في 'جزء عم' - بالقصة نفسها الواردة في سورة طه، وهي سورة مكية واقعة في الجزء السادس عشر من القرآن الكريم، لوجدنا الفرق واضحاً ولافتاً للنظر من حيث حجم الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات، ففي النازعات نلاحظ أن الحدث الذي يمكن أن نعنونه بـ 'تكليم الله لموسى' قد حظي بآية واحدة في تلك السورة، وهي الآية 16: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْأَوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾. في حين حظي الحدث نفسه في سورة طه بثلاث عشرة آية، وهي الآيات 11-23: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْأَوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا وَأَهْشَأُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِئَرْيَا مِنْ ءَايَاتِنَا أَكْثَرَ ﴿٢٣﴾﴾ (طه: 11-23). حيث التكثيف جلي في النازعات، وفي المقابل لمجد التفصيل واضحاً في سورة طه.

ولمجد أن حدثاً آخر في القصة نفسها، وهو ما يمكن أن نسميه 'تكليف الرب لموسى' قد انحصر في آيات ثلاث في سورة النازعات، وهي الآيات 17-19: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ

﴿قُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبُ﴾ ٥٨ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿٥٩﴾. في حين حظي الحدث نفسه بأربع وعشرين آية من آيات سورة طه، وهي الآيات 24 - 48. وكذلك نلاحظ أن حدث محادثة موسى لفرعون ودعوته، والذي المحصر في آيتين حسب من آيات سورة النازعات، نجد أنه قد استحوذ على عشر آيات في سورة طه، وهي الآيات 49-59.

والأمر نفسه مع حدث 'جمع السحرة' حيث اختصر في سورة النازعات بآية واحدة، بل نستطيع القول أنه انحصر بكلمة واحدة هي 'حشر' في الآية 23 من السورة: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾. في حين تمّدد هذا الحدث في سورة طه فاستحوذ على ست عشرة آية هي الآيات 60 - 76. وحين نأتي إلى حدث إهلاك فرعون وجنوده بالإغراق، ستطالعنا آية واحدة حسب من سورة النازعات أشارت إلى هذا الحدث إشارة شديدة التكثيف، حيث لم تذكر الآية كيفية الإهلاك، بل عبّرت عنه بالأخذ، وبينت علة هذا الأخذ بترميز احتاج من المفسرين أن يقفوا عنده متأملين، حين قال المولى عز وجل في الآية الخامسة والعشرين من السورة: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾. حيث ذكر صاحب التفسير الكبير أن لهاتين الكلمتين - أي الآخرة والأولى - وجوها للتفسير، منها أنه قصد بالأولى قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: 38). والأخرى قصد بها قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾^(١). وساق أقوالاً أخرى ليس هنا محلها. وغاية ما يهمنا في هذا المجال هو أن نلاحظ كيف أن التكثيف في هذه الآية وصل إلى درجة الترميز، في الوقت الذي نجد فيه أن سورة طه أوضحت نهاية فرعون وبعض تفاصيل إهلاكه في آيتين هما: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعَبَادِي فَاضْرِبْ لَهُم مَّحْطًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَبِجُودِهِ فَعَبَّيْهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾. فاتضح في الآيتين أن فرعون قد تبع موسى وقومه نحو البحر، ثم أغرقه الله عز وجل بحسب ما هو معروف.

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج 3، ص 24-43.

والمشهد نفسه لإهلاك فرعون بالفرق، نجده حظي بآيات كثيرة في غير سورة طه من السور الملكية، نحو سورة الدخان في آياتها 23-24، وكذلك في سورة الإسراء في الآية 103 وغيرها. وكلها توضح طبيعة الإهلاك وبعض التفاصيل المحيطة به، بخلاف ما رأينا من تكثيف وترميز في سورة النازعات.

2- قصر سوره:

وقد سبقت الإشارة إلى هذه التخصيص على نحو الإيجاز، فجزء عمّ بحق هو جزء قصار السور، ذلك إنّ أقصر سور القرآن موجودة فيه، نحو سور: الكوثر والعصر والنصر، لثلاث آيات لكل منها. وهناك سورتا الإخلاص وقريش ذات الأربع آيات. ويكفي أن نقول أنّ ثلثي سور الجزء لم تتجاوز في عدد آيات كل منها الخمس عشرة آية، وأنّ نصف سوره لم تتجاوز العشر آيات، وقصر السور في جزء عمّ ميزة واضحة له انفرد بها بين سائر أجزاء القرآن الكريم.

3- كثرة القسم فيه:

فقد أحصينا سبعة وثلاثين موضعاً للقسم في هذا الجزء، سواء ما كان منها باستعمال أو القسم، أم ما كان باستعمال لا أقسم. وهذا العدد من مواضع القسم في هذا الجزء لا نجد نصفه في الأجزاء الأخرى، لا بل لا نجد ثلثه، فالجزء الذي يأتي تالياً بعد جزء عمّ من حيث عدد مواضع القسم فيه هو الجزء التاسع والعشرون جزء تبارك الذي يتضمن ثمانية مواضع للقسم حسب. وربما تشير كثرة القسم في الجزء إلى عظم وأهمية المعاني الواردة فيه، مما يستدعي القسم عليها للفت الأذهان إلى عظمتها تلك.

4- انفراده بفواصل متتالية بحروف لم تتكرر في غيره من الأجزاء:

نحو الفاصلة السينية في سورة الناس، والفاصلة ذات الهاء المقرونة بالالف في سورتي الزلزلة والشمس، وفاصلة الحاء المقرونة بالالف في العاديات، والكاف في سورتي الانفطار والشرح، والتاء في كل من التكويد والانفطار والانشقاق.

الفصل الأول

المستوى الدلالي - المجالات الدلالية - جزء عمّ

توطئة:

التحليل اللغوي للنصوص الأدبية هو من الأمور التي اهتمت بها الدراسات النقدية الحديثة، إذ يكون النص ولغته هما محور الدراسة، ذلك أن لغة النص هي التي توضّح ما فيه من ثراء ينبع من داخله، ولا يفرض عليه من الخارج.

وإحدى تطورات الأسلوبية الدلالية هي عمليات التحويل الدلالي التي قال بها كوهين⁽¹⁾ والتي تجري بين عناصر الكلام وفق مستويين، هما: الاختيار والتوزيع. الأول منهما يتصل بدراسة التعبير اللغوي بمعزل عن التعابير اللغوية الأخرى في النص. أما التوزيع فيتناول التعبير اللغوي من واقع ارتباطه بالوحدات اللغوية الأخرى في النص. ويطلق على الاختيار مصطلح الأسلوبية التفكيكية. أما التوزيع فيطلق عليه مصطلح الأسلوبية البنيوية⁽²⁾. وفي تناولنا للمستوى الدلالي سنستأنس بهذين الأسلوبيين، حيث سندرس طائفة من ألفاظ الجزء كل واحدة على حدة، ثم نضمها جميعا في علائق دلالية، تشكل نسيجاً متكاملاً، تتبلور فيه فكرة عامة، ربما هدف القرآن الكريم إلى إيصالها بالطريقة التي سميت فيما بعد بالتوزيع. ويجدر بالذكر أن ما سنقوم به من تحليل باستخدام تلك الأدوات الأسلوبية، في هذا المستوى وفي غيره، ستمليه علينا طبيعة النظم القرآني المتميزة، وستدور تلك الأدوات في فلك ذلك النظم العظيم المتفرد، لا العكس، فحاشا أن يكون القرآن مقوداً لا قائداً. لذلك عمدت إلى استعمال كلمة استئناس بالمنهج لا تطبيق المنهج فيما يختص بهذا النظم القرآني المتفرد.

وبما أن جزء عمّ ثريٌّ بمحشد من الألفاظ المتقاربة في المعنى والمتضاربة لتقديم دلالات واحدة، فضلاً عن كثير من الألفاظ المتضادة أيضاً، فإن الأسلوبية الوصفية ستكون مناسبة جداً طريقةً للتحليل فيه، ذلك أن المنهج الأسلوبي الوصفي غرضه الأساس دراسة القيم التعبيرية

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 107.

القائمة على متغيرات أسلوبية، أي أشكال مختلفة للتعبير مثل الترادف والتضاد وغيرها⁽¹⁾. وكذلك ستكون الأسلوبية الوصفية مناسبة للتحليل هنا من جهة أنها تهتم بالمحتوى العاطفي إلى جانب المحتوى الفكري وهو الأبرز، متجاوزة الدراسات البلاغية القديمة القائمة على الأنماط والصور التقليدية⁽²⁾. إذ إن التوافق بين استعمال الأشكال اللغوية والبنى النحوية يحدث أثرا فكريا وعاطفيا لدى الجماعة اللغوية، ويجعل التعبير اللغوي يرقى إلى مستوى الأسلوب اللغوي، وهو مادة البحث في الدراسات الأسلوبية⁽³⁾.

وسنفيد في هذه الدراسة لبعض ألفاظ جزء عمّ منزعين من التناول اللفظي للنصوص الأدبية، أولهما ما أسماه عبد الملك مرتاض "المعجم الفني"⁽⁴⁾. والمقصود به: ما يتشكل للأديب من انفراد لفظي يميزه من غيره من الأدباء، ومعجم خاص به يتوضّح ويظهر جليا عند تحليل نصوصه الإبداعية، وتصنيفها تحت مجموعة من المجالات اللفظية الفنية⁽⁵⁾.

وثاني المنزعين: هو دراسة الحقول الدلالية. والمجال الدلالي أو الحقل الدلالي هو: عبارة عن مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالاتها وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمات الألوان، في اللغة العربية، فهي تقع تحت المصطلح العام كون، وتضمّ ألفاظا مثل: أحمر - أزرق - أصفر - أخضر - أبيض... الخ⁽⁶⁾. وهو في نظر نستيفن أولمان: قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة⁽⁷⁾. ويهدف إلى جمع كل الكلمات التي تخص حقلًا معينًا لكشف صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام⁽⁸⁾، بدون إغفال سياقتها الذي ترد فيه، فهو يصفها ويخلصها من كل الدلالات الماضية التي توطأت معها الذاكرة، وأتاح لها أن

(1) جيرو: الأسلوبية، ص 53.

(2) السابق: ص 52.

(3) أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص 93.

(4) انظر: عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري: دراسة تشرّحية لقصيدة أشجان مهنية، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1986، ص 241 ومابعد، وانظر كذلك: أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي، بيروت ط 4، د.ت، ج 2 ص 61، وانظر: محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر، ط 1، 1989 م، ص 73.

(5) انظر: مرتاض: بنية الخطاب الشعري، ص 241.

(6) أحمد غنّار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط 1، 1982 م، ص 79.

(7) السابق: ص 79.

(8) السابق، ص 80.

تحتشد فوقها، وهو بذلك يبعث لها قيمة حضورية جديدة. غير أن الكلمة توجد مستقلة في الذهن عن جميع استعمالاتها، ولديها القابلية لتشكّل جديد حسبما تقتضيه الظروف⁽¹⁾. وهو ما يسمّى تفجير الطاقة المخزنة في الكلمات، وهو الوجه الحقيقي للإبداع⁽²⁾. ومع إدراكنا الكامل لتفرد النظم القرآني، إلا أنه يشترك مع النصوص الأدبية في أنه يتكون من ألفاظ عربية مؤلفة تؤدّي معاني معينة، وعليه فيمكن دراسة هذه الألفاظ، والسعي قدر الإمكان إلى تحري علاقاتها الدقيقة، وتوزيعها تبعاً للمعاني المنشودة، ومراعيها الواسعة، وتنوعاتها، وهذا كله تمليه علينا عظمة القرآن الكريم، واتساعه وإعجازه وتفردّه.

والألفاظ القرآن الكريم بالذات لديها تلك القابلية الكبيرة المتميزة لتشكلات جديدة دائمة، بما تمتلك من طاقة كامنة، وهو ما عبّر عنه بمقولة أن القرآن يبقى غصّاً على مرّ الزمان. ونحن نرى براهين ذلك ماثلة أمامنا تمثل بما يخرج علينا بين الفترة والأخرى من دراسات وكتب تجلّي جوانب جديدة في بلاغة ودلالات وأسلوب القرآن الكريم لم تكن معروفة من قبل. وتقوم هذه القراءات الجديدة للنص القرآني على قاعدة أنّ الذات القارئة هي في حركة تجديدية دائمة لا تنتهي مع النص، وهو ما ظهر عند سبيترز باسم القراءة الإبداعية التي هي علاقة متبادلة ومستمرة بين الذات والموضوع⁽³⁾.

وسيكون تناولنا للواقع الدلالي في جزء عمّ مستأنساً إلى حد كبير بالمنهج التواصلّي في إطار التحليل الأسلوبي، إذ إن هذا المنهج يهتم جداً بالصيغة الدلالية للكلمات وعلاقاتها، وأثر هذه العلاقات السياقية في تكوين البنية الشكلية للنص. وتكون مهمة الدارس الأسلوبي هنا هي كشف التفاعل الخلاق بين الجانبين الشكلي والدلالي في النص⁽⁴⁾. وهو الأمر الذي يأمرنا به القرآن الكريم حين يدعونا إلى تدبّر آياته والتعمق فيها: أفلا يتدبرون القرآن، أي التوصل إلى ما ترمي إليه الألفاظ من معان دقيقة ربما تتجاوز الاستعمال البشري المألوف الذي تعوزه الدقة في كثير من الأحيان.

(1) ج فندريس: اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950 م، ص 231-232.

(2) انظر: محمد عبدالمطلب: البلاغة و الأسلوبية، القاهرة، 1984 م، دن، ص 228-234.

(3) جبر: الأسلوبية: ص 79.

(4) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 137.

وبالنظر إلى ما قاله 'جاكوبسون' في حديثه عن الوظيفة الشعرية حول جدولي الاختيار والتوزيع اللذين يطابقان مصطلحي العلاقات الرأسية والعلاقات الأفقية عند 'دي سوسير'، فنلاحظ أن ما قالاه هو بمثابة صدى للواقع اللغوي لألفاظ 'جزء عم' وتوزيعاتها الدلالية. إذ إن الحدث الألسني عند 'جاكوبسون' ينطوي على عمليتين متواليتين في الزمن، ومتوافقتين في الوظيفة، هما: اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة، ثم تركيبه لها تركيباً تقتضي بعضه قوانين النحو، وتسمح ببعضه سبل التصرف في الاستعمال. فالعمل الأدبي هو تطابق لجدول الاختيار على جدول التوزيع. وهذا يؤدي إلى التناغم بين العلاقات الاستبدالية 'الغيبية'، أي التي يتحدد الحاضر منها بالغائب، والعلاقات الركنية 'الحضورية' التي تمثل تواصل سلسلة الخطاب وفق أنماط بعيدة عن العفوية والاعتباط. فتحليل العمل الأدبي يعتمد على السياق، إذ إن كل إشارة لغوية لها وظيفة ضمن النص الذي تكون فيه، والوظائف بمجموعها تدرس في سياق العمل الفني⁽¹⁾. وهذا ما سنلاحظه فعلاً في أثناء تناولنا الدلالي لـ 'جزء عم' فيما سيأتي. مع إدراكنا بطبيعة الحال للفارق الجوهرى بين العمل الأدبي البشرى والنص القرآنى المنزل.

إذاً نحن جمعنا في تناولنا الأسلوبى للمستوى الدلالي في 'جزء عم' بين أدوات للتحليل تنتمي كلها إلى المنهج الأسلوبى، ولكنها تندرج ضمن مناهج أو اتجاهات فرعية ضمن ذلك المنهج العام. أولها تندرج في إطار المنهج الوظيفى أو الأسلوبية التواصلية، وهي نظرية 'القارئ-الجمع' التي جاء بها 'ريقاتير'، ضمن ما سمي بالأسلوبية البنوية، والتي تأخذ بالاعتبار كل الآراء والتحليلات المتراكمة حول نص بعينه. وثانيها هي الاختيار والتوزيع التي جاء بها 'جاكوبسون' وهي تندرج في الأسلوبية التواصلية كذلك. وعليه فإن دراستنا لهذا المستوى ستكون بمثابة استئناس بالأسلوبية من أطرافها المتعددة، وهو ما قد يثري التحليل لنظم ثري ولا ريب. مع إدراكنا بأن لكل منهج من هذه المناهج رؤيته وأسلوبه وأدواته في التحليل، والتي تتنافر وتتضارب تبعاً للأساس الذي قامت عليه. ولكنها على أقل التقادير تندرج داخل نسيج التحليل الأسلوبى العام الذي يهتم بمختلف جوانب النص، الداخلية والخارجية، السطحية والعميقة.

وغني عن البيان أن نقادنا القدامى وعلى رأسهم 'عبد القاهر الجرجاني' التفتوا إلى مسائل دقيقة في أدوات التحليل الأسلوبى. يقول الجرجاني: 'إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ

(1) الهادي الجطلاري: مدخل إلى الأسلوبية نظرياً وتطبيقاً، مكتبة عين، الدار البيضاء، 1992م، ج 1، ص 4 وما بعدها.

مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ⁽¹⁾. وهو ما عرف بنظرية النظم التي ارتبطت به، وسبق معاصريه بها، تلك النظرية التي حظيت باهتمام المحدثين من نقاد الأدب، حين هضموها وزادوا عليها، مع اعترافهم بالأسبقية له، وخصوصا حينما اطلعوا على فكرة العدول التي صرّح بها 'نوم تشومسكي'، ولاحظوا ما بين الفكرتين - أي النظم والعدول - من تقارب على تباعد زمنيهما⁽²⁾. ويبدو لي أنّ تشومسكي ربما اطلع على نظرية النظم عند الجرجاني وأفاد منها، وقدمها بصيغة عصرية، وهو ما يدعونا إلى ضرورة الاهتمام بموروثنا النقدي التحليلي اهتماماً أكبر، والبناء عليه وتطويره، لا التناكُر له وإسقاطه في إزاء النظريات المعاصرة، بذريعة معاصرتها حسب، وأحيانا بدون تعمق فيها واستجلاء لسليبياتها والقصور فيها.

وعوداً إلى المجالات الدلالية، فالسور المكية لها مجالاتها الدلالية التي تميزها من السور المدنية - كما أوردنا سابقاً - ذلك أنّ السور المدنية توجهت في غالب آياتها إلى الحديث عن الحقائق الشرعية في العبادات والمعاملات، والحلال والحرام، والأحوال الشخصية، والقوانين الدولية، وشؤون السياسة والاقتصاد، وأحوال السلم والحرب، ووقائع المعارك والغزوات⁽³⁾. أمّا السور المكية فهي غالباً ما طرقت موضوع الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر، وحتمية يوم الحساب، وزوال الدنيا، والتأكيد على مبدأ وحدانية الله، ووصف يوم الجزاء والثواب والعقاب، وذكر قصص الأمم السابقة وأنبيائهم وما آل إليه مصيرهم⁽⁴⁾.

وبما أنّ جزء عمّ في غالبه مكّي - كما مرّ معنا - وتتجلّى فيه الطبيعة المكية موضوعياً وأسلوبياً، فستكون مجالاته الدلالية - ولا شك - منسجمة ومتناغمة مع المجالات الدلالية للسور المكية عامة. غير أنّ جزء عمّ تفرّد عن باقي القسم المكّي في تناوله لبعض تلك المجالات طويلاً وقصراً. فمثلاً يكاد موضوع قصص الأنبياء والأمم السابقة يكون الموضوع الأكثر تناوُلًا في الآيات المكية بشكل عام، ولكن ليس في جزء عمّ بشكل خاص، بالرغم من كونه مكّي، لذلك لا يمكن أن ندرس هذا الموضوع بوصفه مجالاً دلالياً في الجزء، في حين أنّ هناك مواضيع تشكل بقوة مجالات

(1) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، 1978م، ص38.

(2) انظر: محمد عبدالمطلب: بحث ألنحو بين عبدالقاهر الجرجاني وتشومسكي، مجلة فصول، مج 5/ع 1: ص32.

(3) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط 8، 1974م، 231.

(4) عهود عبد الواحد: السور المدنية، ص17.

دلالية واضحة في 'جزء عم'، فقد اتضح لنا بعد استقراء شامل للآيات ومضامينها أن ثلاثة مجالات دلالية استحوذت على 'جزء عم'، وهي:

أولاً: يوم القيامة وما يتضمنه من مشاهد وأحداث وحساب: وقد حظي بمئة وإحدى عشرة '111' آية من مجموع آيات الجزء التي بلغت خمسمئة وخمسا وستين '565' آية.

ثانياً: الجزاء: والمقصود به مصائر الناس في الآخرة إلى جنة أو إلى نار، وتفاصيل ذلك الجزاء بشقيه. وقد حظي هذا الموضوع بمئة وثلاث آيات '103' من مجموع آيات الجزء.

ثالثاً: نعم الله تعالى: ونقصد بها النعم المادية والمعنوية التي امتنّ بها المولى عز وجلّ على عباده، والتي هي كذلك مظاهر قدرة باهرة، وحكمة بالغّة للرب العظيم. وقد استحوذ هذا الموضوع على أربع وتسعين '94' آية من مجموع آيات الجزء.

وأما ما تبقى من الآيات في غير هذه الموضوعات الثلاثة، والتي تبلغ مئتين وسبعاً وخمسين '257' آية، فقد تناولت موضوعات شتى، لا تشكل في حجمها الكمي مجالات دلالية واسعة. المجال الدلالي الأول: القيامة والحساب.

وهو أكبر الحقول الدلالية في 'جزء عم'. والقيامة: يوم البعث يقوم فيه الخلق بين يدي الحي القيوم. قيل أصله مصدر قام الخلق من قبورهم قياماً وقيامة. ويقال: هو تعريب قيما بالسريانية بهذا المعنى⁽¹⁾.

والحساب: هو محاسبة الله الناس يوم القيامة، فقد جاء في تاج العروس: إنما سمي الحساب في المعاملات حساباً لأنه يعلم به ما فيه كفاية ليس فيها زيادة على المقدار ولا نقصان⁽²⁾. وهو أسم مصدر، وقوله تعالى: والله سريع الحساب، أي حسابه واقع لا محالة، وكل واقع فهو سريع⁽³⁾. وقد جمعنا بين القيامة والحساب في حقل دلالي واحد لأن القيامة بوصفها مصطلحاً إسلامياً عقائدياً يتضمن، في ما يتضمن، محاسبة الله الخلق على أعمالهم، ثم تقرير مصيرهم إلى جنة أو إلى نار. ومن المعلوم أن من أسماء يوم القيامة يوم الحساب، وكأنهما شيء واحد.

(1) محمد مرتضى الزبيدي: معجم تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، مج 9، ص 37، مادة قيم.

(2) الزبيدي: معجم تاج العروس، مج 1، ص 210، مادة حسب.

(3) السابق.

والسور التي اشتملت على ألفاظ القيامة والحساب في جزء عم هي: النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الغاشية، الفجر، العلق، الزلزلة، العاديات، القارعة، وأخيراً التكاثر. فهي ست عشرة سورة من أصل سبع وثلاثين، معظمها من السور الكبار في الجزء، تشكل أكثر من ثلثيه، وبتعداد الصفحات فهي تشكل ما يرقى إلى الخمس عشرة صفحة من مجموع صفحات الجزء البالغة اثنتين وعشرين صفحة حسب المصحف العثماني. لهذا فقد جاءت الآيات التي تناولت موضوع القيامة والحساب هي الأكثر؛ إذ بلغت مئة وإحدى عشرة آية، كما مر آنفاً.

وقد وجدنا أن الألفاظ التي تنتمي إلى حفل القيامة والحساب الدلالي تتشعب إلى أربع شعب، وستناولها كلاً على حدة في ما يأتي:

1- ألفاظ النفخة الأولى وآثارها.

النفخ في الصور كما ورد في التفسير الكبير⁽¹⁾ فيه قولان أحدهما أن الصور جمع الصور فالنفخ في الصور عبارة عن نفخ الأرواح في الأجساد والثاني أن الصور عبارة عن قرن ينفخ فيه⁽²⁾. والنفخ مرتان: نفخة أولى، ونفخة ثانية. أما النفخة الأولى، فلا توجد لفظة صريحة لها في جزء عم كذلك الموجودة مثلاً في سورة الزمر الآية 68: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾⁽³⁾. ولكن توجد ألفاظ كثيرة تشير إلى ما سيحدث بعد هذه النفخة وما يمكن أن نسميه آثار النفخة الأولى، والألفاظ هي: - ترجف الراجفة: في سورة النازعات: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (النازعات: 6). قال الفخر الرازي أن الراجفة في اللغة تحمل وجهين أحدهما الحركة لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ (المزمل: 14). الثاني الهدئة المنكرة والصوت الهائل من قولهم رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيف⁽²⁾. ويخلص إلى القول: الراجفة صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد⁽³⁾. وينقل القول المشهور بين الجمهور أن

(1) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 10.

(2) السابق، ص 34.

(3) السابق.

الراجفة هي النفخة الأولى⁽¹⁾، أو هي: الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها⁽²⁾. وهذا يؤكد ما رأيناه من أن الراجفة هي أثر من الآثار المترتبة على النفخة الأولى.

- دُكَّتْ: تشبه الراجفة في المعنى، وتستدعي اسماً افتراضياً، هو الداكّة مقابل الراجفة، لكن المصرح به هو الفعل دكت في الآية 21 من سورة الفجر: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. ومعناها: إذا رُجت الأرض وزلزلت زلزلاً وحركت تحريكاً بعد تحريك⁽³⁾.

- زُلْزِلَتْ: تقدم المعنى نفسه الذي قدمته اللفظتان السابقتان. ووردت في سورة الزلزلة في آيتها الأولى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، أي: تنزلزل الأرض عند قيام الساعة وترج رجاً⁽⁴⁾. ونلاحظ أن القرآن قد استعمل ثلاثة من الألفاظ التي تحمل معنى الاضطراب والرج والتحريك الشديد، وهذا يدل على التنوع اللفظي والغنى الدلالي، إذ لا بد أن لكل لفظة من هذه الألفاظ معنى خاصاً يميزها من الأخريات، وإن اجتمعت كلها تحت سقف معنى واحد رئيسي. وربما تنوعت الألفاظ للمعنى الواحد تبعاً لتنوع الفاصلة القرآنية، فعلى سبيل المثال ناسبت لفظة الراجفة الفاصلة القرآنية في سورة النازعات المنتهية بالتاء المربوطة المسبوقة بالفاء، وكذلك ناسبت دكا الفاصلة المتوازنة في سورة الفجر التي هي على وزن فُعْلًا.

- كُوِّرَتْ: لفظة مستندة إلى الشمس في مستهل سورة التكويد: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، حيث جاء مسمى السورة مشتقاً من هذا الفعل. وللتكويد وجهان للتفسير نقلهما الطبري في تفسيره، أحدهما أن تكوير الشمس يعني: ذهاب ضوئها، والآخر يرى أن معناه: رُمي بها⁽⁵⁾. وقد رجّح الطبري القولين، ذلك أن التكويد هو جمع بعض الشيء إلى بعض فمعنى

(1) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 10.

(2) الزمخشري، أبو القاسم جار الله عمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وبيان الألفاظ في وجوه التأويل. دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج 4، ص 212.

(3) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، مج 7، ص 628.

(4) السابق: ص 628.

(5) السابق: ص 552.

تكوير العمامة لفها على الرأس. فتكوير الشمس هو جمع بعضها إلى بعض ولفها ثم الرمي بها⁽¹⁾. ويبدو لي أن ما قاله الطبري من الأخذ بالقولين معا هو الصحيح، إذ إن الآية (9) من سورة القيامة: ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ قد بينت هذا المعنى. فجمع الشمس والقمر يستدعي ذهاب ضوئها لما فيه من معنى المزج والإطفاء، ويستدعي الرمي كذلك لما فيه من تحريكها من مكانها لغاية جمعها مع القمر. وربما لهذا السبب وجدنا غير مفسر قد أورد المعنيين السابقين تفسيراً للتكوير⁽²⁾.

- أنكدت: المسندة إلى النجوم في سورة التكوير نفسها الآية 2: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ أَنْكَدَتْ﴾ تشير كذلك إلى أثر من آثار النفخة الأولى، وانكدت من الانكدار، وأنكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، وعليه فالمراد سقوط النجوم... ويمكن أن يكون الانكدار بمعنى التغير وقبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها⁽³⁾. والمعنى الأول، وهو التساقط، ذهب إليه كذلك صاحب التفسير الكبير⁽⁴⁾.

- سُيِّرَت: دائمة الارتباط بالجلال في القرآن الكريم، وقد وردت مرتين: أولاها في سورة النبأ الآية 20: «وُسَيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا»، وفي سورة التكوير الآية 3: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، ومعناها: «وإذا سيّرت عن وجه الأرض كقول الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، أو في الهواء كقوله تعالى: ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾»⁽⁵⁾. وفي إطار المعنى نفسه، ولكن بصيغة مختلفة، استعمل فيها التصوير والتشبيه ما ورد في الآية 5 من سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، والعهن هو الصوف ذو الألوان، وحيث إن الجبال مختلفة الألوان. فقد جاء هذا التشبيه دقيقا ومناسبا، ولعلّه ربط هذه الآية بما قبلها: ﴿يَوْمَ

(1) الطبري: ج 7، ص 552.

(2) انظر: الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 213، وكذلك: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3838.

(3) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج 20، ص 213.

(4) انظر: الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 67.

(5) السابق.

يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴿﴾، وربما أُريد إظهار أثر القارعة على الجبال، إذ تجعلها كالصوف المنفوش المتفرق، وهي الجبال الصلدة الضخمة، فكيف إذا سيكون تأثيرها على الناس الضعفاء الذين هم من لحم ودم؟!⁽¹⁾.

- **عُطِّلَتْ:** التي أسندت إلى العشار في الآية 4 من سورة التكوين: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾، هي كذلك من الألفاظ التي تشير إلى أثر من آثار النفخة الأولى، والعشار هي: جمع عشاء، كالنفاس في جمع نساء، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة⁽²⁾. أما معنى 'عطلت' فقد قال ابن عباس: أي أهملها أهلها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة⁽³⁾. وأورد الفخر الرازي معنى آخر لهذه الآية، هو: أن العشار كناية عن السحاب، تعطلت عما فيها من الماء⁽⁴⁾. وعلى أية حال، فالآية تشير إلى أثر من آثار النفخة الأولى.

- **حُشِرَتْ:** التي أسندت إلى لفظة 'الوحوش' في الآية 5 من سورة التكوين: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾. ومعنى الوحش وهو مفرد الوحوش: كل شيء من دواب البر عما لا يستأنس⁽⁵⁾. وحُشِرَتْ: 'جُمِعَتْ من كل ناحية'⁽⁶⁾. وسبب جمعها أنه يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، كما نقل صاحب التفسير الكبير عن قتادة أن الله تعالى يحشر الوحوش كلها فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لها موتي فتموت⁽⁷⁾. كما ورد أن الحشر هنا بمعنى الموت⁽⁸⁾.

- **سُجِّرَتْ:** المرتبطة بالبحار في القرآن، حيث وردت في الآية 6 من التكوين: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وقرئت بالتخفيف والتشديد، وأورد الفخر الرازي في تبيان معناها وجوها، منها:

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 72.

(2) السابق: ص 67.

(3) السابق.

(4) السابق.

(5) السابق.

(6) الزخشي: الكشاف، ج 4، ص 222.

(7) السابق.

(8) السابق، ص 68.

"أَنَّ أَصْلَ الْكَلِمَةِ مِنْ سَجَرَتِ النَّوْرِ إِذَا أَوْقَدْتُهَا، وَالْبَشْيءُ إِذَا أَوْقَدَ فِيهِ نَشْفٌ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ، فَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى مِنَ الْبَحَارِ شَيْءٌ مِنَ الْمَيَاهِ الْبَتَّةِ"⁽¹⁾. ومنها أَنْ تَكُونَ سَجَرَتٌ بِمَعْنَى فُجِّرَتْ، وَذَلِكَ أَنَّ بَيْنَ الْبَحَارِ حَاجِزًا عَلَى مَا قَالَ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢﴾﴾، فَإِذَا رَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ الْحَاجِزَ فَاضَ الْبَعْضُ فِي الْبَعْضِ، وَصَارَتِ الْبَحَارُ بَحْرًا وَاحِدًا⁽²⁾. والمستفاد مما أورده الفخر الرازي من وجوه لتفسير هذه الآية هو أَنَّ الْبَحَارَ تَتَغَيَّرُ وَلَا تَعُودُ كَمَا كَانَتْ، سَوَاءً بِالْجَلْفِافِ التَّامِ الَّذِي مَبْعَثُهُ الْإِحْرَاقُ وَالتَّسْجِيرُ، أَوْ بِسَبَبِ اتِّصَالِهَا بِبَعْضِهَا، بِحَيْثُ تَصْبِحُ بَحْرًا وَاحِدًا. وأميل إلى الرَّأْيِ الْأَوَّلِ الْقَائِلِ بِالْجَلْفِافِ وَالزَّوَالِ حَيْثُ هُوَ الْمُنْسَجِمُ مَعَ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ زَوَالَ الدُّنْيَا وَانْتِهَاءَهَا. ويجدر بالذكر أَنَّ الْمَعْنَى نَفْسَهُ وَرَدَ فِي الْآيَةِ 3 مِنْ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ﴾، وَهُوَ أَنْ يَنْفِذَ بَعْضُ الْبَحَارِ فِي الْبَعْضِ بَارْتِفَاعِ الْحَاجِزِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ بَرْزَخًا، وَحِينَئِذٍ يَصِيرُ الْكُلُّ بَحْرًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا يَرْتَفِعُ ذَلِكَ الْحَاجِزُ لَتَزَلْزَلِ الْأَرْضِ وَتَصْدَعِهَا⁽³⁾. والتفسير نفسه في الْكَشَافِ⁽⁴⁾. وأرى أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ التَّفْجِيرُ عَمَلِيَّةً سَابِقَةً لِلتَّسْجِيرِ، حَيْثُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنَّ الْبَحَارَ سَتَصْبِحُ بَحْرًا وَاحِدًا بِتَفْجِيرِ الْبَرْزَخِ بَيْنَهَا، ثُمَّ تَسْجَرُ وَتَحْرَقُ لَتَجْفَ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ النَّفْخَةِ الْأُولَى نَسُوقُهُ فِي إِطَارِ هَذَا التَّنَاقُلِ.

– أَنْشَقَتْ وَأَنْفَطَرَتْ: الْمُسْتَدْتِنِ إِلَى السَّمَاءِ. حَيْثُ وَرَدَتْ أَنْفَطَرَتْ فِي مُسْتَهْلِ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾، وَمِنْهَا أَخَذَتِ السُّورَةُ مَسْمَاهَا. أما لَفْظَةُ أَنْشَقَتْ فَاسْتَهْلَتْ بِهَا سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾، وَهِيَ كَذَلِكَ أَعْطَتْ لِلْسُّورَةِ مَسْمَاهَا. واللفظتان بِمَعْنَى وَاحِدٍ، حَيْثُ جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْمِيزَانِ: أَلْفَطَرَ الشَّقَّ وَالْإِنْفِطَارُ الْإِنْشِقَاقَ⁽⁵⁾. والمَعْنَى نَفْسَهُ أَوْرَدَهُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ وَالزَّخْمَشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِيهِمَا⁽⁶⁾. وَمِنْ هُنَا يَثَارُ لَدَيْنَا سَوْالُ بِنَاءٍ عَلَى الرَّأْيِ

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 68.

(2) السابق.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 76.

(4) الخوارزمي: الكشاف، ج 4، ص 222.

(5) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج 20، ص 223.

(6) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 76. وكذلك في الكشاف: ج 4، ص 227.

القائل بأنه لا ترادف كاملا في اللغة العربية، إذ إن لكل لفظة معناها الخاص، وإن كانت تدخل تحت مظلة معنى عام واسع. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لابد وأن يكون لـ "أنفطرت" معنى خاص يميّزها قليلا من أنشقت"، وإن انتمت اللفظتان إلى المعنى العام نفسه. لكننا لم نجد من المفسرين الذين أتيح لنا الاطلاع على تفاسيرهم - وهي الأبرز - من وقف على هذا الأمر، وذكر معنى خاصا لكل من اللفظتين يميّز إحداهما من الأخرى، فهم جميعا أوردوا اللفظتين بمعنى واحد. غير أنا وجدنا سيد قطب قد ألح بطرف خفي إلى هذه المسألة، ربما لإحساس كان لديه بوجود فرق بين اللفظتين. فوجدناه يقول: "أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون...⁽¹⁾". ولعله احتمل أن السماء تستشق على مراحل وهيئات، فمرحلة أو هيئة تناسبها لفظة أنشقت، وأخرى تناسبها أنفطرت. وهذا يدخلنا في فقه اللغة الذي يسعى لتلمس الفروق البسيطة الخفية بين الألفاظ التي يشيع أنها مترادفة تماما. وما يعزز احتمال وجود الفرق بين اللفظتين هو أنهما تشكلان فاصلة قرآنية متشابهة، من نوع الفاصلة المتوازية كذلك، وهذا ينفي احتمال التنويع تبعا لاختلاف الفاصلة من سورة إلى سورة.

وقد وجدت ما يعزز الرأي الذي ذهبت إليه من أن الترادف المتوهم في القرآن هو غير موجود فعلا. فقد جاء في كتاب الترادف في القرآن الكريم: بين النظرية والتطبيق "لمحمد نورالدين المنجد: أن خلو القرآن الكريم من ظاهرة الترادف كان مما تحدّى الله به أرباب البيان العربي، فأعجزهم أن يأتوا بسورة من مثله تختلف ألفاظها وتتقارب بعض معانيها حتى يظن فيها الترادف، وما هي من الترادف في شيء، وإنما لكل لفظ في نظمه المبين مقام لا يقوم به غيره"⁽²⁾.

وخلاصة ما انتهى إليه المنجد - الذي سبقه فضل حسن عباس في ذلك - أنه لا ترادف في القرآن الكريم. وإن هو ساق في كتابه آراء متضاربة في هذا الشأن، منها ما أثبت الترادف وبين مواضعه وبماذا يتحقق، وآراء أخرى أنكرت الترادف في ألفاظ القرآن الكريم⁽³⁾. وعلى ذلك فيتعرّز

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3846.

(2) محمد نور الدين المنجد: الترادف في القرآن الكريم: بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1997م، ص 226.

(3) انظر: المنجد: الترادف في القرآن الكريم، ص 109-130.

الرأي بوجود معنى خاص لكل من اللفظتين 'أنشقت' و'أنفطرت' وإن ثوهم فيهما الترادف، وإن هما كذلك استعملتا في التعبير عن الحدث نفسه، لكن لا يمكن لإحدهما أن تقوم مقام الأخرى وتحقق ذات المعنى الخاص الذي أراده القرآن، وأراد من خلاله أن يتحدث أرباب اللغة في أن يأتوا بمثله من حيث تحريه للمعنى الخاص الدقيق جدا من اللفظة، وتمييزها من لفظة أخرى يُظنّ ترادفها معها، كما سبق أن ذكر المنجد.

غير أن المنجد قد نفى وجود الترادف في ألفاظ القرآن الكريم، فإنه لم يبحث في المعاني الخاصة الدقيقة لكل لفظة من تلك الألفاظ التي ظنّ فيها الترادف، ولا بحث في معظمها جلّ أهل التفسير ممن أتيح لي الاطلاع على تصانيفهم، نحو ما رأينا في 'أنفطرت' و'أنشقت'.

ووجدت فكرة خصوصية الألفاظ التي يتوهم فيها الترادف في بحوث الأسلوبيين، حيث يشيرون إلى أن أمام المبدع كلمات كثيرة يمكن أن يوظف منها ما يريد، في إطار ما سماه 'جاكوبسون' بعملية 'الانتقاء' وهي الأولى بين عمليتي إنتاج (النص - الرسالة)، أما العملية الثانية فهي 'التنسيق' الذي يقوم على مجاورة الألفاظ والعلاقات النحوية والدلالية بينها.⁽¹⁾ وانتقاء المبدع لكلمة ما دون غيرها يبرز إحياء الكلمة وظلالها الخاص بها، فهناك فروق وإحياءات تميّز هذه الكلمة من الكلمة الأخرى التي ترادفها. وهي مسألة ترتبط بالوعي لدى المبدع وقصديته حيث يختار كلماته بعناية فائقة⁽²⁾. فكيف والمبدع هنا هو المولى القدير العليم؟

ملحوظة حول ألفاظ النفخة الأولى.

يلحظ على عموم ألفاظ آثار النفخة الأولى، أن بعضها دلّ على عمومية ما، في حين أن بعضها الآخر أشار إلى تفاصيل جزئيات ضمن تلك العمومية. فمن الألفاظ العمومية 'زلزلت، ترجف، ذكّت، وقد دلت على ما سوف يصيب الأرض بعمومها من حركة واضطراب وزلزال. أما ما يُعدّ جزئيات وتفاصيل ضمن تلك الحركة العمومية، فقد دلت عليه ألفاظ نحو 'سُيِّرَت' المتعلقة بالجبال، و'عُطِّلَت' المتعلقة بالعشار، و'سُجِّرَت، وفجّرت' المتعلقة بالبحار.

(1) أبو العدروس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 133.

(2) السابق: ص 172، 170.

2- الفاظ النفخة الثانية وآثارها.

النفخة الثانية - عكس النفخة الأولى - وردت صريحة في سورة النبأ في الآية 18: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقد جاء في التفسير الكبير أن هذا النفخ هو النفخة الأخيرة التي عندها يكون المحشر⁽¹⁾. غير أن النفخة الثانية وردت غير صريحة كذلك، فلم ترد تحت مسمى نفخة في أكثر من موضع في جزء عم، أولها في سورة النازعات، حيث سماها الله سبحانه الرادفة فقال: ﴿تَتَّبِعَهَا الرِّادِفَةُ﴾ (النازعات: 7). وقد نقل صاحب التفسير الكبير أن الرادفة هي قيام الساعة⁽²⁾، والمعنى نفسه أورده الطبري والزغشري في تفسيريهما⁽³⁾.

وكذلك حملت النفخة الثانية اسم الصاخة التي تضمنتها الآية 33 من سورة عبس: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ﴾، فقد جاء في التفسير: يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة، قال الزجاج: أصل الصخ في اللغة الطعن والصك، يقال صخ رأسه مجر أي شدخه... فمعنى الصاخة الصاخة بشدة صوتها للأذان⁽⁴⁾.

هذا ما يتعلق بالنفخة الثانية بمجد ذاتها، أما ما يتعلق بالآثار المترتبة عليها فقد رصدنا في جزء عم كثيراً من الألفاظ المندرجة تحت هذا العنوان. واللافت أن تلك الألفاظ قد دلت كلها على موضوع البعث من القبور والتوجه إلى المحشر أثراً وحيداً للنفخة الثانية، ولكنه أثر متعدد المشاهد والتفاصيل. وتطالعنا الألفاظ ضمن المواضع القرآنية الآتية:

- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (النبأ: 19). ومعناها في تفسير الطبري: عندما ينفخ في الصور يبعث الناس من قبورهم، ويأتون إلى أرض المحشر زمرا زمرا وجماعة جماعة⁽⁵⁾.

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 10.

(2) السابق: ص 33.

(3) الطبري، ج 7، 53. والزغشري: الكشف، ج 4، ص 212.

(4) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 63.

(5) الطبري، مع 7، ص 516.

- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ (النازعات: 13-14). وهي إشارة إلى المشهد السابق عينه، ولكن بأسلوب آخر. ومعنى فلانما هي زجرة واحدة أي: إنما هي صيحة واحدة، حيث ينفخ في الصور نفخة البعث الثانية^(١). والساهرة بمعنى: ظهر الأرض^(٢). وزاد الزمخشري: هي الأرض البيضاء المستوية، وسميت بذلك لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة جارية الماء^(٣).
- ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ (الانفطار: 4). عبّرت ألفاظها عن الخروج من القبور بشكل صريح.
- ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ (الانشقاق: 4). الحديث في الآية عن الأرض، ومعناها: ألقت الأرض ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها، وتخلّت منهم إلى الله^(٤).
- ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ (الطارق: 8). إشارة إلى معنى البعث.
- ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ (الزلزلة: 2). أي أخرجت الأرض الأموات الذين في بطنها أحياء^(٥). وفي الكشف هي الدفائن كلها بما فيها الأموات^(٦).
- ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ (العاديات: 9). وهنا نلاحظ المعنى نفسه. ويلاحظ أن الفعل بُعْثِرَ تعلق بما في القبور في هذه الآية، في حين تعلق بالقبور نفسها في آية: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٩﴾﴾ الأنفة الذكر، وأرى أن هذا ينطوي على معنى خاص، وإلا لقالت الآية: أفلا يعلم إذا بعثت القبور، لو كان المعنى المراد هو نفسه في كلتا الآيتين. وربما أريد من بُعْثِرَ ما في القبور أي تبعثر ما فيها من الناس عند خروجهم منها إلى المحشر، وهو ما أشارت إليه الآية 4 من سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾، في حين أريد من القبور بعثت أي بُعْثِرَ ترابها. ولكن مما لاشك فيه أن الآية أياً كان معناها فهي مرتبطة بالبعث، وهو ما يهمننا في هذا المجال.

(1) الطبري، مج 7، ص 533.

(2) السابق.

(3) الزمخشري: الكشف، ج 4، ص 213.

(4) الطبري، مج 7 ص 580.

(5) السابق: ص 676.

(6) الكشف: ج 4، ص 276.

ملحوظات على ألفاظ النفخة الثانية وآثارها:

يلحظ أن القرآن الكريم عبّر عن بعث الموتى وهو الأثر المترتب على النفخة الثانية بصورة شتى متنوعة، وبكثرة لافتة في جزء واحد، وهذا التركيز على موضوع واحد وبصور شتى هو من خصائص السور المكية بشكل عام، و"جزء عمّ المكيّ المبكر بشكل خاص، ذلك أن السواد الأعظم من الناس وقت نزول هذه السور كانوا ينكرون البعث. وكذلك فإن الإنسان في أول تواصله مع القرآن طفلاً بقرائه لقصار سوره، تكون قضية البعث غير حاضرة في ذهنه، أو غير مستقرة بالمستوى المنشود، لذا نجد أن القرآن يكرّر ذكر ذلك اليوم والإشارة إليه بأساليب متنوعة، وبمواضع كثيرة، فهو تارة يشير إلى البعث بوصفه أفواجا، وكان القرآن الكريم يريد أن يبيّن عظمة ذلك اليوم وهيمته واحتفائته - إن جاز التعبير - حيث الناس يتوافدون إليه أفواجا أفواجا مسرعين، كما جاء في الآية 19 من سورة النبا المذكورة. وهو ما عبّرت عنه آية أخرى وبتصوير دقيق حيث قالت: ﴿كَانَ إِلَيْهِمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ﴾ (المعارج: 43).

وتارة نجد القرآن يركز على سرعة انتقال الموتى المبعوثين من القبور إلى الأرض: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾. ولا يخفى دور ألفاء المقترنة بـ إذا في الدلالة على السرعة وتحقيق الأمر بدون تأخير، ويؤكد صاحب تفسير التحرير والتنوير هذا المعنى فيقول: «وإذا للمفاجأة أي الحصول دون تأخير»⁽¹⁾.

وتارة ثالثة، نجد القرآن يلقي الضوء على حال الأرض عند البعث، إذ كانت تحمل عبثا كبيرا يحملها لأجساد الموتى المثقلين بكثير من الذنوب التي أسخطت الرب تعالى عليهم، وتنتظر الإذن بإلقائهم والتخلّي عنهم بفارغ الصبر، وهي التي ما تركت عليها من دابة لو أذن الله لها بذلك، كما صرح القرآن بذلك في موضع آخر. فنجد القرآن في جزء عمّ يصرح بهذا المعنى في الآية 5 من سورة الانشقاق الواردة سابقا: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، وهي إشارة جد بديعة ودقيقة إلى كثرة معاصي الناس ومخالفتهم لحالهم، فهم وجود لا يطاق، حتى الأرض الواسعة الجامدة لا تطيقهم، مع أنهم لم يقتربوا بحقها تلك الفظائع بل اقترفوها بحق ربهم، ومع ذلك كان بهم حليما. والمعنى نفسه قدمته الآية: ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ في سورة الزلزلة. ويلحظ أن لفظة أخرجت جاءت

(1) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سخنون، تونس، ج 30، ص 72.

أخف من لفظة أَلْقَتْ من حيث المعنى، إذ إن أَلْقَتْ تَنْضَمْنَ معنى الضيق والثقل والرغبة في التخلص، بعكس أخرجت التي لا تحمل هذا المعنى بحد ذاتها. ونرى أنَّ ما عَوَّضَ عن هذا التخفيف في أخرجت هو لفظة أُنْقَالُهَا التي أعطت المعنى المراد نفسه الذي أعطته أَلْقَتْ، في حين لم ترد لفظة أُنْقَالُ مع الفعل أَلْقَتْ، بل تعلق بها الاسم الموصول ما، لأنَّ أَلْقَتْ كما ذكرت تحمل المعنى المراد بدون الحاجة إلى ذكر الأُنْقَال. وعلى ذلك فقد جاءت الأيتان متوازنتين، إحداهما أصابت المعنى المراد بوساطة الفعل أَلْقَتْ، والأخرى أصابت المعنى بوساطة الاسم أُنْقَالُ، وهذا - فيما أرى - من بديع النظم القرآني ودقته.

ومن ملحوظاتنا على آيات البعث في جزء عم أنها ركزت أحيانا على قدرة الله على البعث، لا على البعث نفسه، كما رأينا في الآية 8 من سورة الطارق.

والخلاصة هي أنَّ الألفاظ التي أشارت إلى البعث في جزء عم قد رسمت صورا ودلالات متنوعة عن ذلك اليوم المحتوم، حيث اختصت كل صورة بطرف من الأطراف التي لها دور في ذلك اليوم. فمن تبعر القبور إيذانا بخروج الناس منها ورغبتها في التخلص منهم، ثم توافدهم من القبور على شكل جماعات كثيرة متفرقة، وتأكيد قدرة الله على ذلك، كل هذه التفاصيل توزعت على آيات متفرقة متنوعة مبنوثة في سبعة مواضع من الجزء، وبإيقاعات مختلفة، حققتها فواصل متباينة، وصور مختلفة، ولكنها كلها خدمت الموضوع الرئيس نفسه، وهو البعث من القبور، وجلَّت تفاصيله بالطريقة التي توضححت، إمعانا في زيادة التأثير وإثارة التأمل والتفكير في ذلك الأمر المحتوم. وهذه العملية من توزيع الألفاظ واختيارها بهذا الشكل الدقيق لخدمة النسيج العام، ولتقديم دلالة متكاملة على نحو ما أشار إليه جاكوبسون وأسماء الاختيار والتوزيع كما مرَّ بنا في التوطئة لهذا المستوى، وكما سنجد.

والطريقة في التحليل التي تعاملت بها مع ألفاظ البعث، والتي سأعامل بها مع ألفاظ المجالات الدلالية اللاحقة بكل تفريعاتها، هي محاولة لبيان رسالة هدف إليها المرسل وهو المولى عز وجل، فقد حللت الألفاظ إلى معانٍ، وسعيت إلى تحديد الهدف الرئيس من بنائها وفق الشكل الذي رأينا من توزيعها وبثها في مواضع متفرقة. وقد اعتمدت في محاولتي لبيان تلك الرسالة القائمة على آلية التوزيع الدقيقة على اللغة، حيث هي النظام المشترك بين المرسل والمتلقي وهي وسيلة الاتصال. وهذه العملية من التواصل وبيان المعاني المنشودة هي نفسها التي نجد صداها عند جاكوبسون في

معرض توضيحه لعملية التواصل⁽¹⁾. ويبدو لي أن 'جاكسون' لو أقام نظريته بالاستناد إلى إيمان بنظم إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لوجدناه أكثر ثقة بما يقول، وأكثر دقة، حيث سيكون أمام نظم دقيق هو فوق كلام البشر الذي يعنونه النقص والحلل مهما علا.

3- ألفاظ الحشر والحساب

هنالك مجموعة من الآيات في 'جزء عم' ارتبطت بهذا الموضوع وتضمنت ألفاظاً فيها إشارات تفاوتت من حيث تصويرها لذلك المشهد العظيم. ويمكن قسمتها، كما يمكن ترتيبها، بحسب ورودها في الجزء على النحو الآتي:

الفاظ اصطفا الملائكة: وتناولته مجموعة آيات في الجزء هي الآتي:

- ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: 38). وقد اختلف في تفسير الروح في هذه الآية: فمن قائل هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً، ومن قائل هو 'جبريل' عليه السلام، وقائل ثالث أورد أن الروح هو خلق من خلق الله في صورة بني آدم، أو هو بنو آدم أنفسهم، أو أرواحهم، أو هو القرآن⁽²⁾. وأورد صاحب تفسير الميزان أن الروح هو المخلوق الأمري في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: 85)⁽³⁾. وعلى كل فإن الآية تتضمن معنى اصطفا الملائكة والروح سواء أكانوا شيئاً واحداً أم شيئين مختلفين. وقد استفاد الطباطبائي في 'الميزان' من مقابلة الروح للملائكة في هذه الآية أن الروح وحده صف، والملائكة جميعاً صف⁽⁴⁾.
- ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: 22). وهذه الآية تقدم المشهد نفسه الذي قدمته الآية السابقة من سورة النبا. والمقصود بمجيء الرب هنا هو مجيء أمره، ذلك إن نسبة المجيء

(1) فاطمة الطهال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993م، ص 68 وما بعدها.

(2) انظر: الطبري، مج 7، ص 525.

(3) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج 20، ص 171، وانظر نفس المصدر ص 173، حيث يورد تفصيلاً عن الروح في القرآن. وانظر كذلك الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 173.

(4) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج 20، ص 172.

إليه تعالى من التشابه الذي يحكمه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾⁽¹⁾. ويلحظ أن الآية أشارت إلى الملائكة بلفظة 'الملك' باختلاف عن الآية السابقة في سورة النبا التي عبرت عنه بالملائكة. ووجدنا بعد تتبعنا لاستعمالات لفظة 'ملك' في القرآن أنها استعملت تسع مرات معبرة عن مفرد الملائكة أي الواحد منهم⁽²⁾، فهو ملك واحد، وهم ملائكة للجمع، إلا في موضعين، والآية التي نحن بصددنا بسورة الفجر هي أحدهما. والموضع الآخر هو الآية 17 من سورة الحاقة: ﴿وَأَلْمَلِكُ عَلَىٰ أَزْجَائِهَا وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾، حيث عبر بلفظة 'الملك' هنا عن مجموع الملائكة، وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره أن المراد من: "...والملك صفاً صفاً أي: تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والأنس"⁽³⁾. والملك هنا اسم جنس وتعريفه تعريف الجنس فيرادفه الاستغراق، أي والملائكة⁽⁴⁾. ونرى أنه ربما استعملت كلمة 'الملك' بدل الملائكة في هذا الموضع دلالة على أن الملائكة، بالرغم من تفرقهم في صفوف متباينة، إلا أنهم في طاعتهم لله كأنهم ملك واحد.

ونلاحظ كذلك أن الروح لم يذكر في هذه الآية كما ذكر متقدماً على الملائكة في الآية 38 من سورة النبا آفة الذكر، ولعل في هذا تأكيداً للقول الداهب إلى أن الروح هو من جنس الملائكة سواء أكان 'جبريل' أم ملكاً آخر اسمه الروح، ذلك أنه لو كان من غير جنسهم لذكر في هذه الآية منفصلاً، وإنما ذكر منفصلاً في سورة النبا ومتقدماً مع كونه من جنسهم تكريماً له، من باب ذكر الخاص قبل العام وهو من أساليب البلاغة العربية.

ثم إن هنالك ملحظاً ثالثاً وهو أن كلمة 'صفاً' قد تكررت مرتين في هذه الآية بخلاف الآية في سورة النبا، فلم تتكرر فيها اللفظة. وقد جاء في تفسير التحرير والتنوير أن 'صفاً' الأولى حال من الملك، وأما 'صفاً' الثانية فقد علق حولها قائل: أن المفسرين لم يختلفوا في أنه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف؛ أي صفاً بعد صف، أو خلف صف، أو صنف من الملائكة دون صنف، قيل:

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج 20، ص 284. وانظر كذلك الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 173.

(2) هي الآيات الآتية: 8 الأنعام، 5 الأنعام، 12 هود، 31 هود، 31 يوسف، 7 الفرقان، 11 السجدة، 26 النجم، 9 الأنعام، 95 الإسراء.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 174.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 338.

ملائكة كل سماء يكونون صفاً حول الأرض على حدة⁽¹⁾. وحسب هذا الرأي أو هذا الإجماع من المفسرين، فتكون "صفاً" التي في سورة النبأ حلاً من الملائكة والروح، ولا وجود لـ "صفاً" أخرى تفيد الترتيب والتصنيف. والحال أن الملائكة مصطفون صفوفاً إثر صفوف بحسب أنواعهم أو أماكنهم أو أعمالهم، وهذه من الدقة القرآنية التي تتمثل في وجود آيتين متشابهتين في الإطار العام للمعنى، إلا أن زيادة لفظية في إحدهما أضافت أبعاداً جديدة للمعنى تفتح آفاقاً واسعة. وإضافة إلى ذلك فقد ناسبت هذه الزيادة في آية سورة "الفجر" الفاصلة القرآنية قبلها، وهي "دكاً على وزن فعلاً"، لتحقيق إيقاعاً مؤثراً متناغماً، فضلاً على ما حققته من معنى أرحب وأوسع.

الفاظ إبراز الجحيم، وعرضها، والمرور عليها؛

- وقد أشارت إلى هذه المعاني أو إلى واحد منها مجموعة من الآيات في جزء عمّ هي الآتي:
- ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (النبأ: 21). وفسرها الطبري بقوله: "إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا في الدنيا يكتبون بها، ترصدهم وترقب من يمتازها منهم"⁽²⁾، فهي كالمنتظرة لقدومهم من قديم الزمان، والمستدعية والطالبة لهم⁽³⁾. أو أن المرصاد هو اسم مكان الرصد، وعليه فإن ملائكة العذاب هي التي ترصد لا جهنم نفسها، أو هو بمعنى كثير الرصد، فيكون صيغة مبالغة. ومعنى أن تكون جهنم مرصداً؛ فهي ترصد أعداء الله وتشق عليهم⁽⁴⁾. ونرى أن الكلمة تحتل كل هذه المعاني، وهو أسلوب قرآني سبق وأشرنا إليه، يقتضي احتمال اللفظة الواحدة كثيراً من المعاني المنتمية إلى إطار واحد، بدون تعارض مغل أو ناقض.
 - ﴿وَبُرَزَّتْ أَلْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (النازعات: 36). فسّر صاحب تفسير الميزان التبريز بالإظهار، ونوّه إلى أن مفعول الفعل "يرى" في الآية معرض عنه، وقال أن المراد بمن يرى: من له بصر يرى به. وعليه فإن معنى الآية العام يكون: أن الجحيم أظهرت بكشف الغطاء عنها لكل ذي

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 337.

(2) الطبري: مج 7، ص 517.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج 3، ص 12.

(4) السابق.

بصر، فيشاهدونها مشاهدة عيان⁽¹⁾. ثم إنه - أي صاحب الميزان - التفت التفاتة جميلة، وهي: أن الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة، وإنما تظهر يومئذ ظهوراً بكشف الغطاء عنها⁽²⁾. وأقول: إن هذا المعنى أكد عليه الفعل الناسخ بصيغة الماضي كانت في الآية السابقة من سورة النبأ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، فهي معدة وكائنة منذ زمن بعيد، فالآيتان متناغمتان تماماً في هذا المعنى.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بُجْهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَنُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (الفجر: 23). والآية كما هو ملحوظ تعبر عن معنى الإبراز والعرض تعبيرا واضحا، حيث نقل الطبري في تفسيره عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: 'يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها'⁽³⁾. غير أن صاحب الميزان لم يستبعد أن يكون المراد بالجيء بجهنم في هذه الآية أي إبرازها لهم، مستدلا بالآية: ﴿وَبُرُزَّتْ أَلْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾⁽⁴⁾. ويبدو لي أن فعل الجيء يقتضي الإبراز، ولكن لا يعنيه مطابقة، بل إن الحديث الشريف الذي ساقه الطبري يؤكد أن جهنم مخلوق يؤتى به ويساق من قبل الملائكة يوم القيامة، وهذا لا يتعارض مع عقيدة المؤمن بأن النار حق، فهي حق سواء أكانت تسحب أم هي ثابتة في مكانها.

وليست مقارنة 'الجيء بجهنم' في هذه الآية، بلفظة 'برزت' في الآية السابقة مسوغا لنفي إمكانية أن جهنم مخلوق يُسحب وينقل من مكان إلى آخر، بل ربما 'برزت' تؤكد هذا المعنى، حيث إن الفعل 'برز' يعني أنه كان مختفيا بسبب البعد ثم اقترب فبرز، وهو يستدعي انتقالا من مكان إلى مكان، ومنه قولنا: برز للعيان. أي كان بعيدا بحيث لا يرى ثم اقترب وأمكن رؤيته. وفي تاج العروس: 'برز إليه في الحرب وهما يتبارزان، سمي بذلك لأن كليهما يخرجان إلى براز من الأرض'⁽⁵⁾. وهذا يتضمن معنى الانتقال. وأصل وضع الفعل 'برز': 'برز رجل يبرز

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 191.

(2) السابق: ص 191.

(3) الطبري: مج 7، ص 628، والحديث أخرجه الإمام مسلم برقم 2482، والترمذي برقم 2573، والحاكم برقم 596/4.

(4) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 284.

(5) الزبيدي: تاج العروس، مج 4، ص 5، مادة 'برز'.

بروزا: خرج إلى البراز للحاجة. وفي التكملة: للغائط أي الفضاء⁽¹⁾. وهذا يقتضي أيضا معنى الانتقال من مكان إلى مكان. وعليه فليس من المنطق أن تلوي عنق المعنى في 'جبيء' بجهنم لنجعله يساوي يكشف عنها معتمدين على بُرُزت الجحيم، في حين أن بُرُزت تقتضي أنه قد جبيء بها فعلا، ونقلت من مكان إلى مكان.

- ﴿ثُمَّ لَنُرَوِّنَهَا عَلَيْكَ الْيَقِينَ﴾ (التكاثر: 7). وهي آخر ما تضمنته 'جزء عم' من آيات تتناول مشهد عرض جهنم وإبرازها. والضمير ألهاء في لُرونها عائد إلى الجحيم المصرح بها في الآية السابقة لهذه الآية في السورة: ﴿لَنُرَوِّنَنَّ الْجَحِيمَ﴾. جاء في تفسير الآية التي نحن بصدددها: إن اليقين هاهنا هو الموت والبعث والقيامة⁽²⁾. ونفى ألفخر الرازي أن تكون رؤية الجحيم في الآية 6 معناها الرؤية القلبية الحاصلة بسبب اليقين الكثير لدى المؤمن المتقي المرتقي بالدرجات، محتجا بأن ترك الظاهر هو خلاف الأصل⁽³⁾. وساق لمعنى الرؤية أقالا كثيرة⁽⁴⁾، ويبدو أن ألفخر الرازي لم يكن مقنعا حين رد معنى الرؤية القلبية، بحجة أن ترك الظاهر هو خلاف الأصل، حيث إن الظاهر لديه هو الرؤية العينية، ولا يجوز أن تُؤوَل إلى الرؤية القلبية، والحال أن القرآن نفسه أشار إلى نوعي الرؤية لدى الإنسان؛ العينية والقلبية، فالرؤية العينية أشارت آيات كثيرة إليها، منها على سبيل المثال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ (الأنعام: 77). وكذلك: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: 70). أما الرؤية القلبية فنلاحظها في الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ (الأنعام: 46). ومعنى أرايتم هنا أي تخيلتم وافترضتم. وليس هو المعنى العيني، لسبب بسيط هو أن المطروح في الآية هو فرض لم يقع، ولا يمكن رؤية الفرض رؤية عينية.

(1) الزبيدي: تاج العروس، مادة (برز).

(2) الرازي: التفسير الكبير، مج 32، ص 79.

(3) السابق: ص 78.

(4) السابق: ص 79.

وفي الآية 13 من آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، فإضافة العين إلى رأي بمعنى الرؤية، هو تخصيص وتحديد لنوع الرؤية بأنها رؤية عين، وهذا يستدعي أن هنالك نوعاً آخر من الرؤية هو رؤية القلب أو الخيال، وإلا لما كان لهذا التخصيص من فائدة ولكان حشواً، والقرآن منزّه عن الحشو. ثم إن الآيات نفسها في سورة التكاثر تؤيد ما نذهب إليه، بالحجة نفسها، وهي أن التخصيص يستدعي التنوع، فالآية: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنٌ آلَيَقِينِ﴾، خصّصت الرؤية بأنها رؤية عين، وهذا يقتضي أن الرؤية التي قبلها في آية: ﴿لَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾، هي رؤية قلبية يحققها اليقين الصادق عند من ارتقت لديه درجات الإيمان.

ويجدر أن نذكر أن الآية تشير إلى أول عرض جهنم على الناس، وليس عند دخولها أو المرور فوقها، كما قد يظن بعض الناس، حيث إن المرور والدخول يقتضيان الرؤية بالضرورة، وهذا صحيح، ولكن ما يؤكد أن الآية مختصة بأول الظهور والإبراز، هي الآية التي تليها: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، إذ هي إشارة إلى الحساب، والحساب كما هو معلوم لا يكون بعد الدخول أو المرور، بل يكون قبلهما. ولهذا المعنى التفت الفخر الرازي، حين ردّ على من قال أن الرؤية الأولى هي عند الورد، والرؤية الثانية عند الدخول. فقال: «وهذا التفسير ليس بحسن لأنه قال لتسألن والسؤال يكون قبل الدخول»⁽¹⁾.

(1) الرازي: التفسير الكبير، مج 32، ص 80.

ملحوظة على آيات إبراز الجحيم

نلاحظ أن الآيات وإن انتمت إلى إطار واحد، وعبرت عن فكرة واحدة، إلا أنها تفاوتت في أسلوب التعبير، فتارة يكون المراد هو تبيان استعداد وتهيؤ جهنم لاستقبال أهلها، فيأتي القرآن ليقول: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾. وتارة يكون المراد هو تصوير مشهد ظهور النار وإبرازها للناس جميعاً، فتعلن ذلك الآية: ﴿وَبُرُزَّتِ أَلْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾. وثالثاً يكون الغرض هو تعريف الناس أن جهنم ليست شيئاً ثابتاً، بل إنها مخلوق يمكن نقله من مكان إلى مكان، وما يبعده ويقربه من الناس هو أعمالهم ومكتسباتهم، صالحة هي أو سيئة. فتأتي الآية 23 من سورة الفجر، لتعبر عن هذا المضمون: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾، أي يتذكر كل أعماله التي جعلت النار تقترب منه وتفترسه، وكان بإمكانه أن يبقها بعيدة. فالآية إذا كشفت، وإن كشفتاً غير مباشر، عن أثر عمل الإنسان وكدحه في تقرير مصيره الأبدي.

وأحياناً يكون المراد من ذكر رؤية النار وعرضها للناس، هو إثبات أثر اليقين في حياة الإنسان، وذلك أن الإنسان ذا اليقين العالي، والساير في طريق التقوى والاستقامة، يمكنه أن يرى النار رؤية يقينية قلبية، وتكون مثل هذه الرؤية مانعاً له من ارتكاب المعاصي التي تستوجب دخول النار، ثم إنه سوف يرى النار الرؤية اليقينية العينية، وعندها سيدرك كم أن يقينه كان في عمله، وكم أن رؤيته الأولى خففت عنه أهوال الرؤية الثانية. بعكس الإنسان المنحرف تمام الانحراف عن طريق الله سبحانه، فهو منعدم اليقين وغافل عن مصيره وآخرته، وهذا سيكون وبالاً وحسرات عليه عندما تعرض له النار ويراه عينا اليقين، وهذا ما عبرت عنه آيتنا سورة التكاثر.

إذن فمجموع آيات 'جزء عم' التي تتناول مشهد عرض جهنم، تقدم صورة متكاملة لهذا المشهد، وإن هي توزعت على مختلف سور الجزء، حيث أسهمت كل آية من تلك الآيات بالتركيز على جزئية مهمة في ذلك المشهد يخدم ذلك التكامل ويحقق الأثر المنشود في نفوس قارئ القرآن وسامعيه، من حيث هو كتاب إنذار ووعد في جانب كبير من جوانبه. والمشهد المتكامل الذي قدمته آيات عرض النار في 'جزء عم'، ينص على أن جهنم المنتهية لاستقبال مستحقيها من الجن والإنس، تساق إلى ساحة المحشر فيراها كل الناس رؤية عينية يقينية، وهي تُسعر وتشتد حرارتها، إيذاناً باقتراب دخول العصاة إليها، فيفرح أهل اليقين، ويتحسر أهل الغفلة.

ونلاحظ من خلال رصد هذا المشهد المتكامل الذي عبرت عنه آيات متفرقة في 'جزء عم' أسلوب القرآن المعتاد الذي يقوم على توزيع المشهد الواحد أو القصة الواحدة، أو الفكرة الواحدة على مجموعة من الآيات المتفرقة، حيث تنفرد كل واحدة منها بخصوصية إضاءة جانب معين من ذلك المشهد العام أو الفكرة العامة.

3- ألفاظ الخوف والحسرة والذلة:

وتعبر عن هذه المشاعر كذلك مجموعة من الألفاظ تضمنتها طائفة الآيات الآتية في 'جزء

عم':

- ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلِيَّتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبا: 40). أي: "يوم ينظر المرء ما قدمت يده من خير اكتسبه في الدنيا فيرجو ثوابه في الآخرة، أو شر عمله فيخاف عقابه في ذلك اليوم،... ولما يلقي الكافر عذاب الله في جهنم، يتمنى أن يكون ترابا، كالبهائم التي جعلت ترابا⁽¹⁾.
- ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿١٠﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿١١﴾﴾ (النازعات: 8-9). معنى 'واجفة': خائفة وجفت مما عاينت يومئذ⁽²⁾. ومعنى: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ أي: أبصار أصحاب تلك القلوب الخائفة ذليلة مما علاها من كآبة وحزن، بسبب الخوف الذي نزل بهم⁽³⁾.
- ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَيَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ (عبس: 33-36). في هذه الآية إشارة واضحة إلى حال الرعب التي تصيب الناس، وهروبهم من أية تبعات قد تلحق بهم من أقرب الناس إليهم. ثم في السورة نفسها نلاحظ آيتين واضحتين في الدلالة على الذلة والحسرة والخوف، وهما الآيتان 40 و41: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾، وتأتي بعدهما مباشرة الآية الأخيرة من السورة،

(1) الطبري: مج 7، ص 526.

(2) السابق: ص 531.

(3) السابق: ص 531.

مبينة أصحاب تلك الوجوه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: 42). ونلاحظ أن الآيتين تضمنتا وصفين للوجوه: أحدهما مادي، ورد في الآية الأولى، حيث تعلو هذه الوجوه الغبرة المادية المعروفة، كناية عن الذلة والمهانة. والوصف الآخر معنوي، تأكيد للأول تحمله الآية الثانية: ﴿تَرَهَّقَهَا قَتَرٌ﴾، والفترة فسرت بأنها الذلة⁽¹⁾، وترهقها: تغلب عليها وتعلوها⁽²⁾. فتعلو وجوههم الذلة المعنوية، التي تتزامن مع وجود الذلة المادية، وهي الغبرة. ثم جاءت الآية الأخيرة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، ويبدو لي أنها جاءت مبينة لأصحاب تلك الوجوه الذليلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى معللة لوجود نوعي الذلة المادية والمعنوية على وجوه أولئك الكفار، وذلك أنهم أصحاب كفر معنوي عقائدي في قلوبهم، وفجور مادي ظهر من جوارحهم، وتمثل على أرض الواقع، بشرب الخمر والزنا، وغيرها من أنواع الفجور. لأن الفجور معناه: المجاهرة بالإثم بين الناس، وهذا المعنى التفت إليه صاحب التحرير والتنوير، لكن بدون أن يربط بين نوعي الذلة معنوية ومادية، ونوعي الكسب من كفر وفجور، فقال إنه ذكر وصفهم الدالين على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل⁽³⁾. والمعنى نفسه التفت إليه صاحب تفسير الميزان كذلك⁽⁴⁾. والآخر له التفاتة جميلة في هذا الصدد، فبعد أن فسر الآيتين بشييه ما ذكرنا، ذكر أن بيان الحال كان متجها إلى الوجوه، ذلك أن الوجه هو مرآة القلب في سروره ومساءته⁽⁵⁾.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (الانشقاق: 11). وفيها إشارة إلى من أوتي كتابه وراء ظهره، أي صاحب المصير السيئ. ومعنى يدعو ثبورا: أي ينادي الثبور بأن يقول: يا ثبوري أو يا ثبورا، كما يقال: يا ويلي ويا ويلتنا، والثبور: الهلاك وسوء الحال وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء وتعس⁽⁶⁾. ونلاحظ أن المشهد هنا بصري وصوتي معا؛ للتأكيد على أحوال الحسرة

(1) الطبري، مج 7، ص 551.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 138.

(3) السابق.

(4) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 210-211.

(5) السابق: ص 210.

(6) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 224.

والخوف والذلة. ويشابه هذا المشهد في كونه بصريا وصوتيا معا، المشهد الذي تقدمه الآية 24 من سورة الفجر: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، وفسرها الطبري بقوله: 'يتلف ويندم يوم القيامة على تفريطه في الأعمال الصالحة في الدنيا' (1).

ملحوظات حول آيات الخوف والحسرة

بالتأمل في الآيات التي تناولت مشاعر الخوف والحسرة والفاظها، نجد أن الآيات بمجموعها قدمت مشهدا متكاملا عاما لهذه المشاعر في المحشر، ولكن بتفاوت بينها في الأسلوب، وبتفرد كل منها بخصوصية في التعبير عن ذلك الموضوع، ففي الوقت الذي نجد فيه آية ركزت على القلوب الخائفة: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، ركزت آية أخرى على الوجوه الذليلة ماديا: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ﴾. وآية ثالثة ركزت على الوجوه الذليلة معنويا: ﴿تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ﴾. وآيات أخرى ركزت على الفرع الصوتي والحسرة الكلامية: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ و﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ و﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. وهذا التوزيع لجزئيات المشهد وبشها على مختلف سور الجزء، هو تأكيد لما ذكرناه آنفاً، من أن الأسلوب القرآني قائم على تجزئة المشهد العام، وتوزيع تفاصيله على السور المختلفة، وكأنها قطع متفرقة، يتم تجميعها في لوحة واحدة كي يتضح المشهد بشكل جلي، غير أن توزيع الجزئيات هكذا مبنوثة متفرقة لا يخلّ أبداً بالمشهد العام، بل يثريه ويجعله مؤثرا أكثر، ويجعله حاضرا دائما في مختلف المواضع القرآنية، من خلال جزئياته التي تتناسب مع مواضعها، وورودها في ثنایا السور القرآنية، سواء أكان تناسبا موضوعيا، أم تناسبا صوتيا إيقاعيا، أو كليهما في كثير من الأحيان.

4- نشر الصحف وتذكر الإنسان لأعماله الدنيوية:

أشارت إلى هذا المعنى آيات عدة في جزء عم. هي:

- ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ (النبا: 40). والجزء الذي يهمنا هو: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾. وسبق

(1) الطبري: مج 7، ص 628.

وأوردنا تفسيره نقلا عن الطبري⁽¹⁾. والآية تدل بشكل جليّ على نشر الصحف، ومعاينة الإنسان لعمله، خيرا كان أم شرا، وتذكره له.

- ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (النازعات: 35). فسرّها ألفخر الرازي بقوله: إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها وكان قد نسيها، كقوله: أحصاه الله ونسوه⁽²⁾. وهي واضحة الدلالة على معنى نشر الصحف وتذكر الأعمال.

- ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: 14). والمراد بـ"ما أحضرت" أي عملها الذي عملته⁽³⁾. وذهب صاحب التفسير الكبير إلى أنّ المراد به أي ما أحضرته في صحائفها، وما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الأعمال⁽⁴⁾. ونراه قد توسّع في إيراد دلالات "ما أحضرت" وساعده على ذلك إطلاق الفعل وعدم تقييده بأي مفعول. ولكن ما يهمنا هو أنّ بين ثنايا تفسيره ما يشير إلى المطلب الذي نبغيه، وهو تذكّر العمل إثر نشر الصحف.

- ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار: 5). وهنا حلّ فعّالان في هذه الآية قدّمت، أخّرت محلّ الفعل أحضرت في الآية السابقة. وقد أسهب صاحب التفسير الكبير في بيان معنى ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، فأورد وجوها عدة، أصحها - على حدّ قوله -: أي يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم، فلم يقصر فيه، وما أخر فقصر فيه. وفي وجه ثانٍ احتمال أن يكون المعنى هو: أي ما قدّمت من عمل أدخله في الوجود، وما أخّرت من سنة يستن بها من بعده من خير أو شر. ونقل الفخر عن أبي مسلم: أي ما قدّمت من الأعمال في أول عمرها، وما أخّرت في آخر عمرها⁽⁵⁾. والوجوه كلها وإن تعددت في تفسير: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ تركّز على أعمال الإنسان التي سوف يتذكرها يوم القيامة بعد أن يلقاها منشورة في الصحائف أمامه.

(1) الطبري: مج 7، ص 527.

(2) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 25-26.

(3) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 215.

(4) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 70.

(5) السابق: ص 77.

- ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6). وجدت أن من معاني الملاقاة في هذه الآية: ملاقاته الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال. ويتأكد هذا التأويل بقوله بعد هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾⁽¹⁾. وبحسب هذا المعنى فإن الآية تنتمي إلى الموضوع الذي نحن بصدده. ثم إن الآيات التي تتلو هذه الآية مباشرة تشير إلى المعنى نفسه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾⁽²⁾، ويهنا منها لفظة كتابه المتكررة مرتين، حيث دلت في الأولى على كتاب المؤمن الذي يؤتاه بيمينه، والثانية دلت على كتاب الكافر الذي يؤتاه وراء ظهره. وقد نقل الفخر الرازي وجوها كثيرة لتفسير 'وراء ظهره' منها: أن يده اليسرى خلف ظهره، ويمينه مغلولة إلى عنقه. ومنها: أنها - أي يده اليسرى - تخلع فتجعل من وراء ظهره أو يتحول وجهه في قفاه⁽²⁾. وعلى كل الأحوال، فالآيات واضحة الدلالة على موضوع نشر الصحف.

- ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ (الفجر: 23). فسرت هذه الآية: أنه في يوم القيامة والحشر يتذكر الإنسان تفريطه وتقصيره في طاعة الله لما كان في الدنيا، ولكن هذه الذكرى لن تنفعه⁽³⁾. والآية أشارت إلى التذكر بدون ذكر لنشر صحف الأعمال. والحال أن تذكر الإنسان لعمله إنما هو مبني على ما ينشر أمامه من صحائف عمله الذي نسي معظمه من هول ما مرّ به، فيجد تلك الصحائف مطابقة تماما لما فعله في دنياه فيتذكرها عملا عملا. فالتذكر إذا مبني على نشر الصحف، وهو نتيجة له.

- ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ أَسْتَأْذِنًا لِّبُرُوحٍ أَعْمَالِهِمْ﴾ (الزلزلة: 6). وهي آخر الآيات التي تشير إلى معنى نشر الكتب وتذكر الأعمال. وفسر الطبري 'أعمالهم' في هذه الآية بقوله: 'يرى المحسن في الدنيا ثواب إحسانه في الجنة، ويرى المسيء جزاء إساءته في نار جهنم'⁽⁴⁾. لكن صاحب التفسير الكبير رجّح أن أعمالهم في الآية يقصد بها أعمالهم المكتوبة في الصحائف⁽⁵⁾، وليس

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 105.

(2) السابق.

(3) الطبري: مج 7، ص 628.

(4) السابق: ص 677.

(5) الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 30.

جزاء الأعمال كما قال الطبري. أما الفخر الرازي فلم يقطع بذلك، بل احتمل ما قال الطبري أيضا. وإذا أخذنا بترجيح الرازي، فإن الآية ستنتهي إلى موضوع نشر الصحف.

ملحوظات حول آيات نشر الصحف

بالتأمل في مجموعة الآيات الدالة على مشهد نشر الصحف وتذكر الأعمال، وما تضمنته من ألفاظ، نلاحظ أن الآيات قد عبرت عن المشهد بطرق متفاوتة، متبعة الأسلوب القرآني نفسه الذي يقوم على تجزئة المشاهد، فوجدنا تلك الآيات تارة تستعمل لفظة الرؤية، أي رؤية المكتوب في الصحف من أعمال، تلك الرؤية التي تستدعي التذكر حتما، وهو ما سيؤدي إما إلى الفرح، أو الحسرة. نحو ما وجدناه في الآيتين: 40 من النبا و 6 من سورة الزلزلة الأنفي الذكر. وتارة تستعمل فعل تذكر كما رأينا الآيتين: 35 من سورة النازعات، و 23 من سورة الفجر. وتارة ثالثة يستعمل الفعل علم الذي يشير إلى التذكر، وهو ما يتأكد عند مقابلة الآيات بعضها لبعض. وهذا النوع مثله الآيتان: 14 من سورة التكوين، و 5 من الانفطار. وقد استعملت الملائكة مرة واحدة، في الآية 6 من سورة الانشقاق. ووجدنا التركيز ينصب أحيانا على إيتاء الكتب وتسليمها، ولاحظنا هذا المعنى بشكل جلي في الآيتين: 7 و 10 الانشقاق.

وخلاصة ما توصلنا إليه بهذا التأمل أن هنالك آيات ركزت على التذكر، الذي يستدعي ربط الآخرة بالدنيا، والذي له دور وعظمي وإنذاري لأهل الدنيا التي ما زالت قائمة، حيث يحقق هذا الفعل يتذكر عملية انعكاسية، الهدف منها إيقاظ الحس وتوسيع الأفق وتنشيط اليقين. فالآيات التي تضمنت الفعل يتذكر تجبر الإنسان وهو في الدنيا أنه سيصير إلى الآخرة ويتذكر الدنيا. وهي ليست مثل نوع آخر من الآيات التي تدعو الإنسان وهو في الدنيا أن يتذكر الآخرة، مثل الآية ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ (المذثر: 53)، فهنا المطلوب تذكر الآخرة. ولكن في آيات تذكر أعمال الدنيا، فإنها تتميز بأنها تضع الإنسان في صورة الآخرة بقوة، فهي لا تكتفي بتصويره يأخذ كتابه ويقرأ فيه، بل تصوره كذلك وهو يتذكر ما فعل في الدنيا، حتى كأنه ينسى أنه ما زال فيها، والآيات تنتظر منه أن يستيقظ من حلمه التفصيلي بعد ذلك، ليدرك أنه ما زال في دنياه، فيعمد إلى إصلاح عمله، إن كان ذا عقل راجع.

وهناك الآيات التي تضمنت الفعل 'علم'، الذي يفضي إلى معنى التذكر، ويحمل كذلك معنى إضافيا، يشير إلى أن الإنسان سيتذكر أعماله الدنيوية، وكذلك سيعلم حقائق تلك الأعمال التي يقوم بها وهو غافل عن حقيقتها الفعلية، إذ سيجد أن الأموال التي كان يجمعها من حرام هي نار في البطون، وأن الربا هو أطواق من نار، وإن الغيبة هي أكل لحم من اغتيب، وأن الكذب هو نتن له رائحة كريهة جدا، إلى آخره من أعمال لها حقائق ملكوتية لا يدركها كثير من الناس ممن غفلوا عن الآخرة، ولم يهتدوا إلى يقين كاشف.

أما الملائكة التي استعملت مرة واحدة، وقصد بها ملاقات العمل، فيبدو لي أنها تقدم معنى جديدا لهذا المشهد، فالآية تريد أن تقول: إن عملك يتحول إلى مصير ستلاقيه، فإن خيرا فخير وإن شرا فشر، وستذكر حينها ما عملته مما قد تحول بشكل دقيق إلى مصيرك المحتوم.

وأما الآيتان اللتان ركزتا على إيتاء إعطاء الكتب، فأرى أنهما أرادتا أن ترسما صورتين متباينتين تماما لهذا الإعطاء وطبيعته، وهما لم تذكر مضمون الكتب، بل فهم ما فيها من شكل الإعطاء الذي وقع، فهو إما إعطاء باليمين فيقتضي أن الكتاب مليء بالصالحات، وإما إعطاء وراء الظهر فالكتاب عندها مليء بالسيئات. وفعل التذكر حتما سيتلو إيتاء الكتب، بيد أنه لم يُصرَح به، بل يفهم ضمنا كما فهم ضمنا في ثانيا الفعل 'علم' في الآية ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

إن الفاظ هذا القسم قد اجتمعت على رسم مشهد متكامل متباين في العمق والدلالة في أجزائه، بتباين الألفاظ التي رسمته تباينا قام على خصوصيات متفردة لكل لفظة، بالرغم من انتمائها إلى الإطار العام للمشهد. وهو الأمر الذي يدخل في تفرّد الأسلوب القرآني الذي أتاح للمتعمّق ولغير المتعمّق أن يفهمه ويتفاعل معه، وهو أمر معجز لا يتأتى إلّا لنص إلهي.

خلاصة المجال الدلالي الأول ألقيامة والحساب:

رأينا كيف أن هذا المجال الدلالي الواسع قد ضمّ في ثناياه مجالات دلالية متفرعة منه، هي النفخة الأولى وآثارها والنفخة الثانية وآثارها، والبعث والقُدوم إلى المحشر، والحساب وآثاره. ورأينا بعد ذلك أن قسما فرعيا هو الحساب وآثاره قد تفرّع منه أقسام دلالية أخرى في مستوى ثالث، فقد ضمّ: اصطفاة الملائكة، وإبراز الجحيم وعرضها، والخوف والحسرة، وأخيرا نشر الصحف وتذكّر الأعمال. والسبب الذي يقف وراء تنظيمنا للمجالات الدلالية على النحو الذي ذكرنا، هو أن المجال الدلالي كما مرّ هو مجموعة الألفاظ والدلالات التي تنتمي إلى موضوع واحد ورئيسي، كما

رأينا في موضوع القيامة والحساب، ولكن هذا الموضوع الرئيسي يضم ألفاظ كثيرة جدا دالة عليه، لا يمكن للباحث أن يتناولها بشكل عشوائي متفرق ومتناثر بدون إخضاعها لنظام معين، وإلا سيعتور البحث نوع من الخلل والاضطراب في التنظيم، وعدم الدقة في تناول، لذا فيعمد الباحث إلى توليد مجالات دلالية فرعية داخل المجال الدلالي الرئيسي، لغاية تنظيم الألفاظ، وذلك من خلال رصدها، ثم إلحاقها باللفاظ أخرى قريبة منها، وتكوين مجموعة لهذه الألفاظ التي تشترك في صفات ودلالات معينة. ولكن في الإطار العام فإن كل هذه المجموعات وما تتضمنه من ألفاظ هي خاضعة ومنتمية للمجال الدلالي الرئيسي. وهذا الأمر سيظهر لاحقا كذلك أثناء تناولنا للمجالين الدلاليين؛ الثاني وهو أجزاء، والثالث وهو نعم الله / مظاهر قدرته.

المجال الدلالي الثاني: الأجزاء

واقصد بالأجزاء ما سترتب على عمل الإنسان في الدنيا من مصير في الآخرة، وهو إما جزاء حسن يتمثل بالجنة ونعيمها، وإما جزاء سيئ يتمثل بالنار وعذابها. وهو المجال الدلالي الثاني بعد "يوم القيامة والحساب" وهو كما ذكرت سابقا قد استحوذ على مئة وثلاث "103" آيات في جزء عمّ قد أشارت إليه وكان مضامينها متعلقة بأحد تفاصيله. وسأفرّع هذا المجال إلى ثلاثة فروع رئيسة هي:

- الألفاظ التي أشارت إلى الأجزاء المادي.
- الألفاظ التي أشارت إلى الأجزاء المعنوي.
- الألفاظ العامة التي شملت المادي والمعنوي.

1- الألفاظ التي أشارت إلى الأجزاء المادي.

والأجزاء المادي هو الأجزاء المتمثل بالأمور المادية المحسوسة مثل الأنهار والقصور والجنات والطعام للمؤمنين، والنار والعقارب والزقوم وغيرها للكافرين. إذاً هو قسمان: جزاء مادي للمؤمنين، وجزاء مادي للكافرين. وسأتناول كل واحد بالتفصيل فيما يأتي:

١- الجزء المادي للمؤمنين

وقد عبرت عنه وأشارت إليه آيات كثيرة في "جزء عم" ساورها أحيانا على شكل مجموعات إذا وردت في السور مجتمعة متصلة، حيث ستطالعنا مجموعة أولى من هذه الآيات في سورة النبأ، وهي الآيات 32-34 ﴿حَدَّايَقْ وَأَعْنَبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أُنْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝﴾ فالحدائق هي "جمع حديقة، وهي البساتين من النخيل والأعناب، المحوطة عليها حيطان، ولا تسمى حديقة إلا إذا كانت الحيطان محدقة أو محيطة بها"^(١) والكواعب الأتراب هن: "النواهد في سنّ واحدة"^(٢). ونقل عن أبي زيد في تفسير هذه الآية: أي التي نهدت وكعب ثديها. والأتراب: اللدات المستويات^(٣)، والكأس الدهاق: أي الكأس الملأى المتابعة على شاربها بكثرة وامتلاء. حيث أن الدهاق من الدهق وهو متابعة الضغط على الإنسان بشدة وعنق^(٤). ومنهم من فسّر الدهاق بالصافية، ومنهم من قال إنها المتابعة ولم يذكر الامتلاء^(٥).

وهناك الآيات 22-28 من سورة المطففين ﴿إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الْأَرَْائِكِ يَنْظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۝ خِتَمُهُ مِسْكَ ۝ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ۝ وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ كلها تشير إلى نعم مادية باستثناء الآية 24. فالأرائك جمع أريكة، وهي: أسم لمجموع سرير ووسادته وحجلة منصوبة عليهما^(٦) ونضرة النعيم هي حسنه وبريقه وتلالؤه^(٧). والرحيق المختوم هو: الخمر الصرف التي لا غش فيها^(٨).

وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله "وختامه مسك" فبعضهم قال أنه يخلط بالمسك، أي الخمر، وآخر قال يكون آخر شرابهم بمسك يجعل فيه، وثالث قال: عاقبته مسك. وتفسير رابع أن

(١) الطبري: ج 7، ص 522.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق: ص 523.

(٦) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 204.

(٧) الطبري: ج 7، ص 574.

(٨) السابق.

مختوم معناها: مُطَيَّن، ومعنى ختامه مسك أي طينه مسك⁽¹⁾. وقد رجح الطبري القول الثاني
الذاهب إلى أن ختامه تعني عاقبته. وقد ساق سبب ترجيحه ذاك في تفسيره ويمكن العودة إليه⁽²⁾.
والمهم لدينا أن الآيات تشير إشارة واضحة إلى الجزاء المادي للمؤمنين.

وتقابلنا الآية 11 من سورة البروج ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ حيث تتضمن الآية لفظين من ألفاظ النعيم المادي
للمؤمنين هما الجنات، والأنهار وهي واضحة المعنى لا حاجة معها إلى كتب التفسير.

وتقابلنا مجموعة أخرى من الآيات في هذا الصدد وهي الآيات 8-16 من سورة الغاشية،
وهي أكثر مجموعة مفصلة ومتنوعة من آيات النعيم المادي للمؤمنين، والآيات هي: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ
نَاعِمَةٌ ﴿١﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٢﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٣﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿٤﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿٥﴾ فِيهَا
سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٦﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿٧﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿٨﴾ وَزَرَّابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿٩﴾ والآيات كلها
تشير إلى النعيم المادي ما عدا الآيتين ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ و﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ فهما دالتان على
الجزاء المعنوي. وقد احتوت الآيات المقصودة مجموعة من الألفاظ التي تحتاج إلى تفسير وتبيان، ف
السُرر المرفوعة هي السرر المصفوفة بعضها فوق بعض⁽³⁾. والأكواب الموضوعة هي: الأباريق التي
لا أذان لها وهي موضوعة على حافة العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من
الشراب⁽⁴⁾. والنمارق المصفوفة النمارق: هي الوسائد والمرافق ومفردها ثمرقة والنمارق مصفوفة
بعضها بجانب بعض⁽⁵⁾ والزرابي المبثوثة: هي الطنافس والبسط الكثيرة مبثوثة مفروشة⁽⁶⁾.

وتطالعنا الآية 8 من سورة البينة، وهي آخر آيات الجزاء المادي للمؤمنين، حيث يقول
المولى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وسيكون لي وقفة ثانية مع هذه

(1) الطبري: ج 7، ص 575.

(2) السابق.

(3) السابق: ص 614.

(4) السابق.

(5) السابق.

(6) السابق: ص 615.

الآية عند الحديث عن الجزء المعنوي للمؤمنين.

وبالتأمل في مجموع الآيات السابقة كلها التي تشير إلى الجزء المادي للمؤمنين، سنلاحظ أنها تفاوتت في تصويرها لذلك الجزء المادي من حيث التفصيل والإجمال، فبعضها جاء مجملاً واكتفى بذكر الجئات عموماً مع ذكر الأنهار شيئاً جزئياً منها، نحو ما وجدناه في الآيتين 11 من سورة البروج و8 من سورة البينة، وجاء البعض الآخر مفصلاً، بيد أن هذا التفصيل هو بدوره تفاوت من موضع إلى آخر، فنجد مجموعة ثرية في تفصيلات الجزء المادي وهي الآيات 8-16 من الغاشية ماعدا آيتين فيها، حيث احتوت هذه الآيات سبعة من المظاهر المادية لجزء المؤمنين، هي الوجوه الناعمة والجنة العالية والعين الجارية والسرور المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارق المصفوفة والزرايب المبتوثة. في حين نجد مجموعة أقل ثراء في هذا الصدد؛ هي الآيات 32-34 من النبأ، التي اكتفت بالإشارة إلى أربعة من تلك المظاهر المادية لجزء المؤمنين؛ هي الحدائق والأعنان والكأس الدهاق والكواعب الأتراب. ومثلها مجموعة الآيات 23-27 من المطففين التي بدورها أبرزت ثلاثة من المظاهر المادية؛ هي الأرائك والوجوه النضرة والرحيق المختوم بالمسك المزوج من عين تسنيم. وهذا الأخير اشتمل على تفصيل داخل التفصيل، حيث فصلت الآيات طبيعة ذلك الرحيق وأعطته صفتين؛ فهو مختم بمسك، وهو ممزوج بتسنيم.

ومن هنا نستنتج أن جزء عم كان أميل إلى الاختصار في تفصيل الجزء المادي للمؤمنين، ولولا ما وجدناه في آيات سورة الغاشية من ثراء واضح في هذا المجال، وقريب منها ما هو موجود في سورتي النبأ والمطففين، لكانت الصبغة العامة لعرض جزء المؤمنين المادي في جزء عم هي صفة الإجمال لا التفصيل.

ومبعث هذا الميل إلى الإجمال هو طبيعة الجزء التي سبق أن أشرت إليها، وهي التكثيف والاختصار والتركيز على نقل الصور العامة السريعة، وإن كانت عميقة يتضح عمقها بالتأمل، لكن هي في الوقت ذاته سريعة، ناسبت الدعوة الإسلامية في باكورتها، حيث كان الهدف إيصال خطوط عريضة عن العقيدة الإسلامية إلى الناس عامة، وترسيخها في نفوس المؤمنين منهم خاصة، بدون الخوض في كثير من التفاصيل. وإن خيض في بعضها فيكون قليلاً لا يشكل ظاهرة، ويكون موزعاً مبثوثاً في مواضع متفرقة، وهذا الأمر ينطبق كما سنلاحظ ليس على المواضيع التي كنا بصدددها حسب، بل على المواضيع اللاحقة كلها في هذا الفصل.

ب- الآيات التي تضمنت ألفاظا أشارت إلى الجزاء المادي للكافرين:

أول الآيات التي تقابلنا في هذا الصدد هما الآيتان 24-25 من سورة النبأ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۖ﴾ فالحميم هو الذي أغلي حتى انتهى حره فهو كالمهل يشوي الوجوه⁽¹⁾. أما الغساق فقد اختلف أهل التأويل في تفسيره، وأورد الطبري أقوالا عدة في تفسيره، فمن قائل: هو ما يسيل من صديد أهل النار، ومن قائل: هو الزمهرير شديد البرودة، وآخرون قالوا: هو المنتن، ثم إن الطبري رجح القول الأول، وهو أن الغساق هو الصديد، ثم وضع تفسيره بقوله: هو الشراب السائل المكوّن من الزمهرير والنتن، الذي جمع بين البرد والنتن⁽²⁾. إذا فالحميم والغساق هما جزاءان ماديان يلاقيهما الكافرون في النار.

الآية الثانية التي تتضمن إشارة إلى جزاء مادي للكافرين هي الآية 15 من سورة الأنفطار ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ إشارة إلى الفجار وهي تسمية أخرى لأهل النار، والآية تتضمن إشارة واضحة إلى صلي الكافرين بالنار المادية المشتعلة، وإن كان يترتب عليها ألم معنوي كما هو معلوم، لكن يترتب عليها أيضا آثار مادية، نحو حرق الجلد وتغير لونه وتبديله كل حين.

وشبيهة بالآية السابقة الآية 16 من سورة المطففين ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ حيث الإشارة واضحة كذلك إلى الصلي بالنار، وما يترتب عليه من آثار مادية. وآية ثالثة شبيهة بالآيتين السابقتين، نجدها في سورة الأنشاق وهي الآية 12 ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ وتتميز منها أنها استعملت لفظة "السعير" بدل الجحيم. والسعير كما جاء في تفسير الميزان هو النار الموجهة التي لا يوصف عذابها ويقاس حرها⁽³⁾.

وبتأملي في الآيات الثلاث السابقة خلصت إلى أن الجحيم هي مكان يتضمن أنواعا كثيرة من العذاب بدليل قوله ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ وإن من أشد وأظهر أنواع العذاب تلك هو ما يُسمى بالسعير أي النار الموجهة التي لا يوصف عذابها كما مر. وتعزز هذا الاستنتاج الذي توصلت إليه الآية 97 من سورة الإسراء ﴿وَمَنْ يَتَدَبَّرْهُوَ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّهِ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ

(1) الطبري: ج 7، ص 519.

(2) السابق: ص 519-520.

(3) الطباطبائي: ج 2، ص 243.

أُولَئِكَ مِنْ دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا ۖ وَنُكَمَا وَصُمَّا مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ فَجَهَنَّمُ هِيَ الْمَأْوَى، ومن مظاهر عذابها هو السعير الذي هو صفة للنار عندما تنأجج وتلتهب بشدة متناهية، وما عزز هذا المعنى أيضا الآية 4 من سورة الإنسان ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا﴾ فالسعير في هذه الآية ورد صنفًا من العذاب مع صنفين آخرين؛ هما السلاسل والأغلال، وكل هذه الأصناف تتضمنها جهنم أو الجحيم، بيد أن القرآن في مواضع عديدة عبّر عن النار بالسعير، من باب تسمية الشيء بأميز ما فيه.

وموضوع الإحراق والحريق جزاءً ماديًا للكافرين تشير إليه الآية 10 من سورة البروج ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ ونقل صاحب الميزان عن صاحب مجمع البيان: يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنم وعذاب الحريق وهما واحد؟ أجيب عن ذلك بأن المراد لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق مثل الزقوم والغسلين والمقامع ولهم مع ذلك الإحراق بالنار⁽¹⁾. وفي هذا القول تأكيد لما ذهبت إليه من التفريق بين الجحيم والسعير كما مرّ آنفاً.

وحول الصلي بالنار أيضا، تطالعنا الآية 12 من سورة الأعلى وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ إشارة إلى الأشقى الذي يتجنب الذكرى كما أوضحته الآية السابقة لهذه الآية، حيث تبرز في الآية المرادة لفظة جديدة هي الكبرى صفة للنار، وجاء في التفسير الكبير جملة من الأقوال في تفسير النار الكبرى، أنها هي نار جهنم، وتقابلها النار الصغرى وهي نار الدنيا، وأنها أعظم النيران في مقابل نيران أقل، توافقا مع الذنوب والمعاصي المتفاوتة في الشدة والعظم، وكذلك فُسرَت النار الكبرى بأنها النار السفلى⁽²⁾، متزعين هذا المعنى من الآية التي تقول: ﴿إِنَّ الْأَنْفِيقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ النساء: 145. وما يهمنا هنا أن في الآية إشارة واضحة إلى الصلي بالنار، وما يترتب عليه من آثار مادية في الجلد واللون وغيره.

(1) الطباطبائي: ج 20، ص 252.

(2) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 145.

بعد ذلك نحمد أنفسنا في 'جزء عم' أمام مجموعة من الآيات في سورة الفاشية، تقدم صوراً جلية وألفاظاً واضحة عن بعض جزاءات الكفار المادية، وهي الآيات 4-7 حيث يقول المولى:

﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٦﴾ تُشْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ ﴿٧﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٨﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٩﴾﴾ فقابلت النار الحامية في هذه الآيات لفظة 'السعير' أنفة الذكر، ووصف النار بالحامية يستدعي أنها نار شديدة الحرارة وملتبهة، لأن لفظة النار بذاتها تدل على الحرارة أصلاً، ولا توصف بأنها حامية إلا إذا بلغت من هذه الحرارة مبلغاً متناهياً تجاوز الحد الطبيعي بكثير. والعين الآتية هي: العين التي قد طال أثنائها وحرها^(١) والضرير هو: نبات شوكة سام يسمى الشبرق ويسميه أهل الحجاز الضريع إذا يس^(٢) ومعنى ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أي لا يسمن أهل النار الذين يأكلونه ولا يشبعهم من جوع يصيبهم^(٣). والآيات واضحة الإشارة إلى ثلاثة أنواع من الجزاء المادي للكافرين هي: النار الحامية، والماء شديد الحرارة، والشوك اليابس المسمى بالضريع.

وفي الآية 26 من سورة الفجر وهي قوله تعالى ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ التي قال الفخر الرازي في تفسيرها أي لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق وثاق الله الكافر يومئذ، والمعنى مثل عذابه ووثاقه في الشدة والمبالغة^(٤) وقد أورد الفخر وجوهاً أخرى للتفسير يمكن الرجوع إليها^(٥). على أن ما يهمنا أن في الآية إشارة إلى جزاء مادي جديد هو الوثاق أي الربط، لكن الآية لم توضح وسيلة الربط، فهي حبال كحبال الدنيا، أم هي غير ذلك. لكنها ستكون وسيلة مادية تقتضيها عملية الوثاق ولا شك.

وهناك الآية 20 من سورة البلد ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ ومعنى مؤصدة أي مطبقة، أو مغلقة عليهم، فلا ضوء فيها ولا فرج، ولا خروج منها إلى آخر الأبد^(٦). والآية واضحة كذلك في الدلالة على جزاء مادي للكافرين يتمثل بنار مغلقة عليهم لا ضوء فيها ولا فرج.

(١) الطبري: ج 7، ص 612.

(٢) السابق.

(٣) السابق: ص 613.

(٤) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 175.

(٥) انظر: السابق.

(٦) الطبري: ج 7، ص 638.

ثم رجوعاً إلى الصلي حيث نطالعنا الآية 15 من سورة الليل ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾⁽¹⁾ وتقدم الحديث عن مثلها. وفي سورة البينة تقابلنا الآية 6 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ البرية هم الخلق من الفعل بُرأ فهي برية لكن الهمزة حذفت للتسهيل بسبب كثرة الاستعمال⁽²⁾. والجديد في الآية أن فيها إضافة النار إلى جهنم، وهي إشارة إلى أن الأخيرة مكان للعذاب شامل فيه النار وغير النار.

وفي سورة القارعة تبرز أمامنا الآية 11 وهي الأخيرة ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ جزاء لمن خفت موازينه، وستكون أمه هاوية، التي فسرهما القرآن ذاته بقوله ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ وهي تذكرنا بالآية 4 من سورة الغاشية ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ وهي جزاء مادي واضح. وفي تفسير ﴿فَأُتْمِئْهُ هَاوِيَةً﴾ أورد الفخر أقوالاً عدة يمكن الرجوع إليها⁽³⁾.

أما في سورة الهمزة 4-9 ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفِيدَةِ ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿الْحُطَمَةُ﴾ تفسرها الآية اللاحقة ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ والحطمة اسم من أسماء النار كما قيل عنها جهنم، وسقر، ولظى. وسميت بذلك لأنها تحطم كل ما يلقى فيها⁽⁴⁾. ووصف النار بأنها موقدة كوصفها بأنها حامية. وقد مرّ التعليق على هذا الأسلوب من حيث إنه دلالة على الشدة في الحرارة والتلهب. ومعنى ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفِيدَةِ﴾ تبلغ القلوب وتصلها⁽⁵⁾. ومؤصدة أي مطبقة مغلقة، وقد مرّ تفسيرها عند الإشارة إلى الآية في سورة البلد ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ بيد أن المولى في هذا الموضع يبيّن طريقة الإيصاد؛ حيث هي العمد الممددة، وفسرها الطبري بقوله: هي مغلقة عليهم، معدة بأعمدة، فهم يعذبون بعمد من النار، والله أعلم كيف يكون تعذيبهم بتلك العمد⁽⁶⁾ وقال

(1) الطبري: ج 7، ص 675.

(2) انظر: الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 74.

(3) السابق، ص 692.

(4) السابق.

(5) السابق: ص 692.

الفخر في تفسير لفظة "العمود": "هو كل مستطيل من خشب أو حديد"⁽¹⁾ وفسر الآية بوجهين: الأول بأنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تغلق به الدروب و"في" بمعنى الباء أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مُدَّت عليها، ولم يقل بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها "والقول الثاني" أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة حال كونهم موثقين في عمد ممددة مثل المقاطر التي يقطر فيها اللصوص⁽²⁾. إذا نحن أمام جزاء مادي يتمثل بالعمد الممددة في النار لإغلاقها على الكافرين.

وآخر الجزاءات المادية للكافرين في النار هو ما ستشير إليه الآيات 3-5 من سورة "المسد" وبينهما الآية 4 تربطهما ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ في جديدها حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿﴾ في إشارة إلى أبي لهب عم الرسول صلى الله عليه وآله، وأم جميل زوجة أبي لهب. وفي الآيات ملاحظ عدة؛ الأول: أن للنار صفة جديدة هنا، لكن متكررة المعنى، فهي هنا ذات لهب وهذا إشارة إلى شدة حرارتها وسعيرها، وهذا المعنى يشبه معنى قوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ومعنى قوله: ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ من حيث أنه أراد من جميع تلك الألفاظ أنها نار عظيمة التوقد والحرارة، ولكن تتنوع أساليب وصفها؛ فمرة ركز على حرارتها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ومرة ركز على مظهر حرارتها الخارجية، فقال: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وقال: "سعير" وهي كلمة تنطوي على معنى التحول في النار، أي أنها تكون غير مسعرة فتسعر، وهذا يذكرنا في الآية في سورة التكوين ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ ومعنى التحول في حال النار من عدم التسعير إلى التسعير هو دلالة على تهيئها واستعدادها لاستقبال أهلها من الكافرين، وهو الأمر الذي يبعث الذعر والرعب في نفوسهم وقلوبهم.

ولا يفوتني أن أذكر مدى مناسبة لفظة لهب لكنية الشخص المستهدف في الآية وهو أبو لهب، وهذا من الإشارات الجميلة في القرآن الكريم، ومثله في المناسبة والتوافق، الجزاء المادي لامراته، فهي إضافة إلى كونها مع زوجها في نار ذات لهب، ففي جديدها كذلك حبل من مسد، أي: في رقبته حبل من الليف أو الحديد الذي يكون في البكرة، أو في قول ثالث: هو قلادة من ودع في رقبته على اختلاف بين المفسرين، ومهما يكون فهو جزاء مادي مناسب للحبل الذي كانت تحتطب

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 95.

(2) السابق.

فيه حطبا وشوكا ثم ترضعه أمام الرسول صلى الله عليه وآله، بل إن ابن عباس والضحاك وابن زيد قالوا: إن جبل المسد هو ذات الجبل الذي كانت تحتطب به في الدنيا⁽¹⁾.

أما وقد انتهيت من رصد آيات الجزاء المادي للكافرين في الآخرة فمن المفيد أن أسوق بعض الملاحظات التي استقيتها بعد شيء من التأمل في تلك الآيات والفاظها، وأول تلك الملاحظات هو أن الآيات ركزت في غالبها على النار والإحراق أو الصلي بها جزاء ماديا أساسيا للكافرين، حيث وجدت إحدى عشرة آية تشير إلى هذا الموضوع، من مجموع عشرين آية تقريبا أوردتها في هذا القسم، وسائر الآيات أشارت إلى جزاءات مادية متفرقة للكافرين، مثل الحميم والغساق والعين الآتية وهي الحميم ذاتها، وكذلك هناك الضريع والوثاق والعمد الممددة وجبل المسد الخاص بزوجة أبي لهب.

والملاحظة الثانية: أن الأسلوب القرآني قد تنوع وتفاوت في التعبير عن النار التي يُقصد بها هنا ذلك الشيء المحرق، لا النار المأوى. فتارة هي نار حامية، وتارة هي ذات لهب، وثالثة هي سعير، ورابعة هي تطلع على الأفئدة، وكل هذه الأشكال من التعبير إنما أراد منها معنى واحدا، هو أنها نار شديد الحرارة شدة لا يمكن تصورها، لكن الأساليب اختلفت باختلاف الشيء المقصود في النار، فمرة أراد حرارتها الداخلية نار حامية، ومرة أراد مظهر تلك الحرارة الشديدة ذات لهب وسعير، ومرة ثالثة أراد فعلها تطلع على الأفئدة، ورابعة أراد التركيز على سبب خارجي في زيادة حرارتها، وهي أنها مؤصدة، أي مغلقة مطبقة.

وأرى أن مثل هذا التركيز على النار وذكرها وما يترتب عليها من صلي وإحراق، ربما كان له مبعثان، أولهما: أن طبيعة جزء عم باكورة للسور المكية - وللقرآن عموما - التي خاطبت المشركين المنكرين للبعث وللجزاء من نار وجنة، قد استلزمت أن تُذكر النار مرارا على مسامعهم لتأكيد وجودها في نفس من ينكرها، من باب ما يسمى كي الوعي مصطلحا سياسيا معاصرا المقصود منه الإلحاح على فكرة ما أمام من ينكرها، حتى ترسخ لا شعوريا في نفسه، ويتطبع معها، توطئة للتعق والاعتناء بها في لحظة ما. وثانيهما: منبعث من طبيعة جزء عم المختصرة، حيث أن النار وخاصة الإحراق والصلي فيها هي أميز وأظهر عذابات النار المأوى، حتى أنها أخذت اسمها الأشهر من هذه الخاصية فهي النار رغم أنها تحتوي كثيرا من أنواع العذاب غير نار الإحراق، ولذا

(1) الطبري: ج 7، ص 714-715.

فمن الطبيعي لجزء عمّ الميال إلى التكثيف والاختصار، أن يكتفي في غالب حديثه عن جزاء الكافرين بذكر النار والإحراق فيها ذكرا سريعا، ولا يقف على تفاصيل عذابات مادية، وذلك عكس ما نلاحظه في سور مكية أخرى، فيها تفصيل لجزاءات مادية كثيرة تصيب الكافرين في الآخرة.

2- ألفاظ الجزاء المعنوي في الآخرة:

والمقصود به الجزاء غير المحسوس نحو الرضا للمؤمنين، أو الذلة والحسرة للكافرين، وهو قسمان:

أ- ألفاظ الجزاء المعنوي للمؤمنين:

تطالعنا في هذا المجال جملة من الآيات في جزء عمّ، أولها الآية 31 من النبأ، وهي قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمتقين ظفرا بما طلبوا من الحقائق والأعقاب⁽¹⁾ والظفر بمعنى الفوز هو أمر معنوي يشعر به الإنسان داخل نفسه، مع أن له مظاهر خارجية، لكن الشعور به هو أمر معنوي. والآية الأخرى في السورة ذاتها هي الآية 35 ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ أي لا يسمع المتقون في الجنة لغوا ولا باطلا من القول، ولا مكاذبة: أي لا يكذب بعضهم بعضا⁽²⁾. وهو واضح في الدلالة على جزاء معنوي متمثل بإكرام أسماعهم عن سماع الباطل والكذب، وتطالعنا الآية 34 من سورة المطففين ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وفيها إشارة بارزة إلى جزاء معنوي هو الضحك، الذي سببه السرور والغبطة بنعيم الجنة، وبإنصاف الله لهم من الكافرين الذين كانوا يستهزئون بهم في دار الدنيا. وفي الآية كذلك إشارة إلى جزاء معنوي للكفار؛ هو الإذلال لهم جراء ضحك المؤمنين منهم، بينما هم -أي المؤمنون- على الأرائك وفي النعيم.

والآية 8 من سورة الانشقاق ﴿فَسَوْفَ نَحْطِسُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ إشارة إلى من يؤتى كتابه يمينه، وفي الآية دلالة على جزاء معنوي متمثل بالحساب اليسير الذي سيكون محبوبا للمؤمن، وفيه متعة له بلقاء ربه، والذي يدل على ذلك هو الفعل 'يُنْقَلَبُ' الوارد في الآية اللاحقة لهذه الآية، حيث

(1) الطبري: ج 7، ص 522.

(2) السابق: ص 523.

إن هذا الفعل هو للمطاوعة وهو يستدعي وجود مؤثر لحدوثه، والمقصود أن المؤمن لا يجب أن يترك هذا اللقاء والحساب الممتع إلا لسبب يدفعه إلى ذلك، وهذا جزاء يسبق دخول الجنة، حيث إن الجزاء هو لفظة شاملة لما قبل دخول الجنة أو دخول النار، وما بعد دخولهما. وتيسير الحساب أو تعسيره هو من جزاءات ما قبل الدخول إلى الجنة أو إلى النار.

وفي سورة الغاشية في آيتها 9 ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةً﴾ و 11 ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ إشارة إلى الوجوه الناعمة في الجنة والمقصود منها المؤمنون، واللاغية هي كلمة اللغو، واللغو هو الباطل⁽¹⁾ وفي التفسير الكبير أقوال عدة في تفسير اللغو منها: أن اللغو هو ما لا فائدة منه، أو هو الحلف عند الشراب كما يحلف أهل الدنيا إذا شربوا الخمر. ونقل عن الزجاج أن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة، واللغو هو خلاف الحكمة⁽²⁾. والجزاء المعنوي للمؤمنين هنا متمثل في تكريم سماعهم من سماع الباطل، وهو ذات المعنى الذي ورد في الآية 35 من النبأ، ولكن بإضافة الكذب إلى اللغو في الأخيرة، ربما لأن درجة هؤلاء النفر من أهل الجنة الذين تشير إليهم آية الغاشية أعلى من درجة النفر الذين أشارت إليهم آية النبأ، فكأنه أراد القول أن اللغو عندهم لا يُسمع، فما بالك بالكذب.

وإذ نصل إلى سورة الفجر، تقابلنا آيتها الثامنة والعشرون ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ إشارة إلى النفس المطمئنة، ومعنى راضية: راضية بالثواب مرضية عنها في الأعمال التي عملتها في الدنيا⁽³⁾ وهو جزاء معنوي متمثل برضا النفس بما نالت من النعيم، والرضا عنها من الله تعالى.

وتبرز لنا الآية 7 من سورة الليل ﴿فَسَيُسِيرُهُ لَيْلِيَّ سَرِيٍّ﴾ إشارة إلى من صدق بالحسنى، وكان مؤمناً، واستناداً إلى تفسيرها بما ورد عند الفخر الرازي من أن إدخال الله إياهم في الجنة بسهولة وإكرام⁽⁴⁾ فتكون هذه الآية دالة على جزاء معنوي للمؤمنين، بيد أن الرازي كذلك أورد وجوها عدة لتفسير هذه الآية يمكن الرجوع إليها⁽⁵⁾.

(1) الطبري: ج 7، ص 613.

(2) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 154-155.

(3) السابق: ص 178.

(4) السابق: ص 200.

(5) انظر: السابق، ص 199-200.

وفي سورة البينة في آيتها الثامنة وهي إشارة إلى المؤمنين، هنالك موضعان في الآية هما: ﴿حٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث أن الخلود في النعيم واستشعاره داخل النفس وما يترتب عليه من فرح دائم واستبشار لا حدود لهما، كل ذلك من الجزء المعنوي الكبير، بل هو من أحسن الجزء المعنوي فيما أرى، حيث أن المؤمن في الجنة لا يقتصر نعيمه على ما يراه ويتذوقه وينال منه من أنواع الترفيه والمتع، بل إن ذلك النعيم في جزء منه متمثل بالفرح الغامر الذي يعتري نفسه، لمعرفته بخلود هذا النعيم العظيم ودوامه، لذلك وصفه ربنا عز وجل بقوله نعيم مقيم حيث هو متعة بحد ذاته، ومتعة بما أنه مقيم دائم لا انقطاع له. وقد نقل الفخر الرازي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: إن الخلود في الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة⁽¹⁾.

والجزء المعنوي الآخر في الآية السابقة هو المتمثل في مقطع ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث ذكر الفخر الرازي لطيفة جميلة في معرض تفسيره لهذا المقطع فقال: إن العبد مخلوق من جسد وروح فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة وجنة الروح هي رضا الرب... والإنسان في مبتدأ أمره من عالم الجسد، ومنتهى أمره من عالم العقل والروح، فلا جرم ابتداء بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ثم أنه قدم ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ على قوله ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لأن الأزلي هو المؤثر في المحدث، والمحدث لا يؤثر في الأزلي⁽²⁾. والفخر ذاته أورد أوجها عدة في تفسير ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ منها أنه رضي أعمالهم أو رضي بأن يمدحهم ويعظمهم، وهو رجح الأخير، وفسر ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب⁽³⁾.

وعلى كل الأحوال فالجزء المعنوي في هذا المقطع من الآية واضح، حيث هو رضا الله عن المؤمنين، ورضاهم هم بذلك الرضا، بما أوتوا من نعيم مقيم. وهذا المقطع يذكرنا بالآية 28 من الفجر ﴿أَرْجِعْنِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ فهي تقابل ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ تماماً إلا أنه استعمل في الأولى الاسم أسمى الفاعل واسم المفعول الدالين على راضٍ ومرضي والذين ينطويان على معنى الاستمرار والدوام، وفي الثانية استعمل الفعل الماضي رضي، رضوا الدالين على وقوع

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 55.

(2) السابق.

(3) السابق: ص 56.

الأمر حتماً، وكأنه قد وقع وانتهى، ومعنى الاستمرار الموجود في راضٍ ومرضي لا نلاحظه في رُضي ورضواً لذلك عوض عنه بـ ﴿خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ التي سبقت هذا المقطع.

وما زلنا في جو الرضا الذي يغمر المؤمنين في الجنة من حيث هو جزء معنوي عظيم، فتطالعنا الآية 7 من سورة القارعة ﴿فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ إشارة إلى من ثقلت موازينه يوم الحساب، ونقل الفخر الرازي عن الزجاج في تفسير راضية: أي عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها⁽¹⁾ فهي على ذلك مرضية⁽²⁾، ولكنه استعمل اسم الفاعل للدلالة على اسم المفعول.

وفي ختام رسدي لآيات الجزء المعنوي للمؤمنين في جزء عمّ وما اشتملت عليه من ألفاظ، فإن لدي مجموعة من الملاحظات حول تلك الآيات وأسلوب التعبير فيها عن الموضوع المقصود. والملاحظات هي:

1- إن الجزء المعنوي للمؤمنين تمثل بأوجه عدة هي: الفوز والشعور به، والرضا، والتيسير في الحساب، وتسهيل دخول الجنة، وإكرام السمع من الاستماع إلى اللغو والكذب، وهناك الفرح والاستبشار بسبب النعيم والخلود فيه وبسبب إنصاف الله لهم من الكافرين. وأكثر هذه الوجوه ذكراً هو الرضا، فقد ورد في أربعة مواضع هي الآيات 9 من الغاشية و28 من الفجر و8 من البينة وكذلك 7 من القارعة، والتركيز على الرضا جزءاً معنوياً أكثر من غيره مبعثه أن الرضا جزء عام يشمل جزاءات أخرى، من حيث إنه نتيجة نهائية لكل الجزاءات المذكورة.

2- وهذه ملحوظة مقارنة، حيث إن آيات الجزء المعنوي كانت أقل من آيات الجزء المادي، فقد استحوذ النوع الأول على عشر آيات، في حين استحوذ الثاني على ست عشرة آية، وذلك - فيما أرى - يرجع إلى طبيعة جزء عمّ المعهودة من حيث إنه الجزء المكّي المبكر والخطاب فيه لأناس جاهليين متعلقين بالماديات، وغافلين عن الروحانيات والمعنويات، فركز لهم القرآن في بواكيره على الماديات ليبين لهم أنّ ما يحبونه ويتعلقون به موجود في الآخرة كوجوده في الدنيا، بل بوجه أكثر وأحسن، وهو دائم لا انقطاع له. وفي هذا أسلوب جاذب لهم إلى الإيمان، معتمداً في ذلك على إغراءات الجنة المادية. أما فيما يتعلق بالجزء المعنوي فقد ساقه القرآن في بواكيره بدرجة أقل، وكان الهدف منه لفت نظر الناس عموماً، والعاقِلين منهم

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 73.

(2) السابق.

3- خصوصاً، إلى الروحانيات والمعنويات، التي هي أرقى وأفضل.

أنه في الجزاءات التي يكون تحقيقها أبلغ وأظهر في اجتماع من الناس منه في حال الانفراد، فقد عمد القرآن فيها إلى صيغة الجمع، ومن هذه الجزاءات: الضحك والاستبشار، حيث عبر عنها بصيغة الجمع ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ المطففين: 34، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ضاحكةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿﴾ عبس: 38-39. وجزاء آخر هو الشعور بالفوز استعملت فيه صيغة الجمع كذلك ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ النبا: 31، والجزاء المتمثل بإكرام السمع من اللغو والباطل لا يكون إلا في مجلس واجتماع، فاستعمل صيغة الجمع ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ النبا: 35 والآية ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ الغاشية: 11 حيث المسند إليه هنا هو 'الوجوه الناعمة' وهي جمع. ولأن معظم الجزاءات هي من هذا النوع الذي يتحقق بشكل أبلغ في اجتماع من الناس فقد شاعت صيغة الجمع في آيات الجزاء المعنوي للمؤمنين، ولم تظهر صيغة المفرد إلا في ثلاثة مواضع هي ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ الليل: 10 و﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ القارعة: 7 و﴿فَسَوْفَ تَحْتَاسِبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ الانشقاق: 8، وطبيعة هذه المواضع الثلاثة هي التي سوّغت استخدام صيغة المفرد فيها، حيث التيسير للتيسر وهو توفيق العبد إلى طريق الجنة وإدخاله فيها بسهولة كما ورد في التفسير وذكرناه سابقاً، وهذا التيسير يكون بطرق شتى تختلف من عبد إلى آخر، فاستخدمت صيغة المفرد للدلالة على خصوصية التيسير عند كل عبد. أما الموضعان الآخران فهما مرتبطان بالحساب وهو فردي لا جماعي كما هو معلوم، بدليل قوله تعالى 'وكلهم آتية يوم القيامة فرداً' (مريم: 95)

ب- ألفاظ الجزاء المعنوي للكافرين:

أول ما يقابلنا من الآيات التي تنتمي إلى هذا العنوان هي الآية 23 من سورة النبا: ﴿لَيَبِثَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ إشارة إلى الطاغين الذين لهم مأب إلى جهنم، وفُسرَت الآية في وجوه عدة، أولها: أنها تشير إلى الخلود في النار، حيث الأحقاب التي هي جمع حقبة، وهي المدة الزمنية الطويلة، فهذه

الأحقاب لا انقطاع لها. الوجه الثاني: أنها أحقاب محددة في عذاب خاص في جهنم، فإذا ما انتهت تلك الأحقاب انتهى ذلك العذاب، ونقلوا إلى أصناف جديدة من العذاب في جهنم⁽¹⁾. وأنا أميل إلى التفسير الأول الذي ذهب إلى أن المعنى هو الخلود في النار، وأرى أن الآيتين اللاحقتين لهذه الآية تعززان هذا القول وهما الآيتان 27 و28 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ^(٢٧) وَكَذَّبُوا بِعَآيَتِنَا كِذَابًا ^(٢٨)﴾ فهما تبيان صفات أولئك النفر من أهل جهنم، وتلك الصفات ذاتها من التكذيب بالبعث والحساب وبآيات الله، ساقها القرآن في مواضع أخرى كثيرة سبباً للخلود في النار، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَآيَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف: 36). والآية المرادة هي إشارة إلى جزاء معنوي شديد، هو الخلود في النار، واستشعار الكافرين لذلك يزيدهم عذاباً نفسياً فوق ما هم فيه من العذاب المادي، أعاذنا الله الرحيم من ذلك، وتغمدنا برحمته الواسعة.

ونأتي إلى الآية الثانية في هذا القسم وهي الآية 15 من سورة المطففين ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ﴾ وقد اختلف أهل التأويل في تفسير هذه الآية، فمنهم من قال: أي محجوبون عن الكرامة عند الله فلا يكرمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يذكهم. وقال آخر: الكفار محجوبون عن رؤية الله في الآخرة. وقد رأى الطبري أن الآية شاملة للقولين⁽²⁾. ولديّ تحفظ على الرأي الثاني الذي مفاده أن الكفار محجوبون عن رؤية الله في الآخرة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى تستحيل رؤيته من جميع الناس مؤمنين كانوا أم كافرين، سواء في الدنيا أو في الآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 103) فهذه الآية واضحة في الدلالة على استحالة الرؤية، ذلك أن الله سبحانه ليس بمادة، ولا يمكن أن يحده حد، ولا يمكن أن يتجسد أو يحويه مكان ولا زمان⁽³⁾. وعلى كل حال فالآية تشير إلى جزاء معنوي للكافرين يوم القيامة يتمثل بحرمانهم من كرامة القرب والرحمة.

(1) الطبري: ج 7، ص 518.

(2) السابق: ص 572.

(3) انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 7، ص 292، وكذلك ج 20، ص 117 في التعليق على الآية 23 من سورة القيامة إلى ربها ناظرة.

ثم تبرز لنا الآية 34 من ذات السورة ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وقد سبقت الإشارة إليها حين الاستشهاد بها إشارة إلى جزاء معنوي للمؤمنين، وذكرت حينها أنها تنطوي على جزاء معنوي للكافرين، متمثل بالاستهزاء والشتمات بهم من قبل المؤمنين، بعد إنصاف الله لهم وانتقامه من أعدائهم الظالمين.

ونعرج على سورة الطارق وآيتها العاشرة ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ ويتضح فيها معنى الضعف والخذلان وانعدام النصير للكافرين، وهذا من الجزاء المعنوي السيئ الذي يلحق بهم، حيث لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

وفي سورة الأعلى تطالعنا الآية 13 ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ في إشارة إلى جزاء معنوي للكافرين يتمثل بهذه الحال المأساوية المترددة بين اللاموت واللاحياة، وما يترتب عليه من عذابات نفسية معنوية قاسية، إلى جانب الاستشعار بدوام هذه الحال وخلودها.

والآية 7 من سورة الفاشية ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ تشير إلى آخر الجزاءات المعنوية للكافرين، متمثلا بدوام الجوع الذي لا يخلصهم منه ذلك الضريع المر اليابس، فهو لا يسمنهم ولا يغنيهم من جوعهم الدائم.

ونلاحظ أن الآيات التي مرت معنا تضمنت الجزاءات المعنوية الآتية: الخلود في النار، واستشعار الكافرين به، وما يترتب على ذلك من عذاب نفسي عظيم، وهناك الحجب عن رحمة الله وكرامته، والاستهزاء والتشفي بهم من قبل المؤمنين، ثم الضعف والخذلان وانعدام الناصر، واستشعارهم حال اللاموت واللاحياة في النار، وما ينطوي عليه من يأس وضيق شديد لا يوصف، وهناك أيضا الجوع الدائم الذي لا يذهب أي طعام أو شراب.

ونلاحظ كذلك أن هذه الجزاءات المعنوية ارتبطت بالجزاءات المادية وإن كانت أقل منها في ورودها في "جزء عم"، فاستشعار الخلود مرتبط بمكان الخلود وهو النار، وهذا ما يجعله شعورا غاية في السوء. والاستهزاء بهم مرتبط بالمستهزئ وهم المؤمنون أي أعداؤهم وخصومهم في الدنيا، وهذا يجعل التشفي والاستهزاء أبلغ وأكثر أثرا، والضعف والخذلان وقعا في الوقت الذي هم فيه بأمس الحاجة لقوتهم وناصرهم، حتى يكون الشعور بفقد ذلك في غاية السوء. والجوع ودوامه مرتبط بوجود الطعام الذي لا يغني من جوع، وهذا أبلغ في التعذيب المعنوي، وإحلال اليأس والقنوط في النفس. أما استشعار حال اللاموت واللاحياة في النار إنما هو مرتبط برغبة شديدة في النجاة، سواء

كانت نجاة بالفناء وانقطاع الإحساس بالألم، أم هي نجاة بالخلاص من العذاب والخروج من الجحيم إلى النعيم والراحة، وهما أمران لا يمكن أن يقعا وقد حق على أولئك كلمة العذاب، فيكون ذلك الإحساس باللاحياة واللاموت في قمته وغايته مع انعدام الأمرين معا.

الآيات التي تضمنت ألفاظا تنطوي على الجزاءين المادي والمعنوي معا:
وهذا النوع لن أتوقف عنده طويلا لأن فيه كثير تكرار، وسأكتفي بسوق بعض الأمثلة وتوضيحها، ومنها الآية 39 من سورة النازعات ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ حيث أن الآية تنطوي على جزاءات مادية ومعنوية، فكلمة الْمَأْوَى كلمة عامة تتضمن الحسي واللاحي، حيث سيتضمن ذلك المأوى للكافرين العذاب الحسي من إحراق ومقامع وعقارب وغيرها، وسيتضمن العذاب المعنوي من ذلة وقهر ويأس وجوع وعطش... الخ.

ومثلها الآية 14 من سورة الانفطار ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حَيْمٍ﴾ والكلام ذاته يقال عن هذه الآية. والأمر ذاته في الآية 10 من سورة البروج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمَّا يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْوَنٌ﴾ حيث يشمل هذا العذاب المادي والمعنوي معا. وكذلك في الآية 30 من سورة الفجر ﴿وَأَذْخُلِي جَنَّتِي﴾ ففي الجنة النعيم المادي والمعنوي كما هو معلوم.

المجال الدلالي الثالث: نعم الله تعالى 'دلائل قدرته'.
وهي النعم التي من بها الله على عباده لتسيير أمور حياتهم، ولابتلائهم بها، ولتكون في الوقت ذاته دلائل على وجوده، وقدرته سبحانه وتعالى، وهي تنقسم إلى نعم مادية وأخرى معنوية. وستناول كل قسم من هذين القسمين منفصلا، برصد الآيات الممتمة إلى كل منهما في 'جزء عم'.
أ- النعم المادية:

قابلتنا آيات عديدة تنتمي إلى هذا القسم في 'جزء عم'، تضمنت ألفاظا تصب في هذا المجال الدلالي. وسنلجأ أحيانا إلى تناول هذه الآيات على شكل مجموعات، لأنها غالبا ما سترد على شكل آيات متصلة متتالية ضمن مجموعة واحدة. والآيات هي:

- ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مِهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۖ وَخَلَقَنَّاكَ أَزْوَاجًا ۖ وَجَعَلْنَا نَوْمَكَ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۖ وَنَبِّئْنَا فُوقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۖ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (النبا: 6-16). نلاحظ أن هذه المجموعة تضمنت في معظمها نعمًا مادية، فقد ورد فيها ثمانى نعم مادية في الآيات: 6، 7، 8، 12، 13، 14، 15، 16. وثلاث نعم معنوية في الآيات: 9، 10، 11. وستتناول آيات النعم المادية، ونرجى الأخرى إلى حينها. وتفسير ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾، أي: 'جعلنا الأرض مهدًا لكم، تمهدونها وتفتشونها وقال قتادة: 'مهاد': بساطاً⁽¹⁾. و ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: 'جعلنا الجبال أوتاداً للأرض، لثلاثيئد بهم، أي تضطرب وتتمايل'⁽²⁾. أما قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَنَّاكَ أَزْوَاجًا﴾ أي: 'ذكرنا وإنثا، وطوالا وقصارا، جميلين ودميمين'⁽³⁾. والمقطع: ﴿وَنَبِّئْنَا فُوقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، أي: 'وسقنا فوقكم سقفا... والسبع الشداد هي السموات السبع، وهي شداد محكمة لا صدوع فيها ولا فطور، ولا يبلهن مرّ الليالي والأيام'⁽⁴⁾. أما ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، فمعناها: 'جعلنا الشمس مضيئة متقدة'⁽⁵⁾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، فقد رجح الطبري أن تكون المعصرات هي السحاب التي تجلب الماء، بعد أن نقل وجهين آخرين للتفسير، هما: أن المعصرات هي الرياح أو السماء⁽⁶⁾. ونفسه في الكشف⁽⁷⁾. أما ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾، فمعناه: الماء المنصب، الذي يتبع بعضه بعضا، كشج دماء البدن بمعنى



(1) الطبري: مج 7، ص 512.

(2) السابق: ص 513.

(3) السابق.

(4) السابق ص 513-514.

(5) السابق: ص 514.

(6) السابق.

(7) الكشف: مج 4، ص 207-208.

سفكها⁽¹⁾. وتفسير ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾: يريد ما يتقوت من نحو الحنطة والشعير، وما يعتلف من التبن والحشيش⁽²⁾. أما ﴿وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾، فالمقصود بها: أشجار البساتين الملتفة المجتمعة⁽³⁾.

إذاً فلدينا في هذه المجموعة القرآنية حشد من النعم المادية، دلت عليها ألفاظ متنوعة، فمن أرض مهاد إلى جبال أوتاد، إلى الخلق كازواج إلى سبع سماوات شداد، فيهن سراج وهاج إلى الماء المنصب من المعصرات وهي السحب، وما ينشأ عنه من أنواع الحب الذي يحصد، والنبات الذي يرعى، وأشجار البساتين الملتفة المجتمعة. ونلاحظ أن هذه الألفاظ قد توزعت بين صفة وموصوف، ولا أقصد المصطلح النحوي، وإنما إذا نظرنا إلى كل لفظتين مجردتين عن السياق. فالصفة مثل أرض والموصوف مثل مهاد وهكذا. وفي كل الآيات ذكر الصفة والموصوف، إلا مع المعصرات فقد اكتفى بإيراد الصفة ولم يذكر الموصوف وهو السحاب، وأشار إليه بقرينة إنزال الماء، وكذلك لم يذكر للحب والنبات صفات، وعوض عن إيراد الصفة لكل منهما أن جعلهما متتاليين متقاربين، وكان كلاً منها عوض للآخر عن صفته. ذلك أن حبا ونباتاً - فيما أرى - كلمتان عامتان تشملان أنواعا كثيرة، ولا يمكن أن تعبر عنهما صفة واحدة، كالي عبرت عن الأرض أو الجبال.

ونرى أن ذكر الصفة والموصوف معا في معظم الآيات كان بغرض تبيان الفائدة التي تنطوي عليها كل نعمة، فصفتها هي فائدتها وعملها، ففائدة الجبال أنها أوتاد للأرض، وفائدة الأرض أنها مهاد ومستقر للإنسان وهكذا.

﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا ﴿٣٢﴾﴾ (النازعات: 27-32). تتضمن هذه الآيات مجموعة من النعم المادية، وتتخللها نعمتان معنويتان في الآية 29 ستتناولهما في حينه. وتفسير الآيات المعنية التي تحتاج إلى تفسير هو

(1) الطبري: مج 7، ص 515.

(2) الكشف: مج 4، ص 208.

(3) الطبري، مج 7، ص 515.

الآتي: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾، أي: الله بنى السماء ورفعها، وجعلها سقفا للأرض، ثم رفع سمك السماء وبنيانها فسوّاها، فلا شيء أرفع من شيء، ولا شيء أخفض من شيء، ولكنها كلها مستوية الارتفاع والامتداد⁽¹⁾. ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا﴾، نقل الطبري وجوها عدة في تفسير هذه الآية، وبالتحديد في تفسير: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾. ولكنه رجح قول ابن عباس: 'فالله خلق الأرض، وقدر فيها أقواتها، ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها'⁽²⁾. ومعنى 'دحاها' أي: بسطها ومدّها⁽³⁾. أما قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾، فالمقصود بها: 'فجّر فيها أنهارها، وأنبت نباتها'⁽⁴⁾. وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾، أي: 'والجبال أرساها الله وثبتها في الأرض'⁽⁵⁾.

ومجمل القول إن الآيات تتضمن النعم المادية الآتية: السماء وبنيانها المستوي المحكم الدقيق. والأرض المحدودة المشتملة على الماء والنبات. فنحن أمام أربع من النعم المادية، واحدة علوية؛ وهي السماء، وثلاث أرضية؛ هي الأرض والماء والنبات. وهي ذاتها العناصر البيئية الأساسية المتعارف عليها في عصرنا هذا، الماء والهواء والغذاء والتربة والتي تُنتهك انتهاكات فادحة، يعاني الإنسان منها في هذه الأيام معاناة كبيرة.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه الآيات إلى جانب أنها تتضمن نعماً لله على خلقه، فقد سيقت كذلك بوصفها دلائل على قدرة الله سبحانه على الخلق والإبداع، رداً على منكري البعث، حيث استهلت الآيات بسؤال استنكاري: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾، ولذلك فقد وضعنا لهذا المجال عنوان: نعم الله دلائل قدرته، وقصدنا من ذلك أن النعم هي ذاتها الدلائل فلا انفصال بينهما. فسبحان الذي بنعمه رحم وبرهن واختبر!

(1) الطبري: ج 7، ص 537.

(2) السابق: ص 538.

(3) السابق: ص 539.

(4) السابق.

(5) السابق.

- ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٣١) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٣٢﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٣٣﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٣٤﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٣٥﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٦﴾ وَحَدَاقٍ غُلْبًا ﴿٣٧﴾ وَفَيْكَةً وَأَبًّا ﴿٣٨﴾ (عبس: 24-31). وتفسير الآيات هو الآتي: ﴿وَعَيْنًا وَقَضْبًا﴾، أي: أنبتنا فيها العنب والقضب، والقضب هو: القث أو الرطبة أو الفصفصة أو البرسيم. قال الحسن: القضب هو العلف^(١). أما قوله: ﴿وَحَدَاقٍ غُلْبًا﴾، فالمقصود بها: البساتين غلاظاً بأشجارها، والغلب: جمع أغلب، والأغلب هو الرجل غليظ الرقبة^(٢). ونقل الطبري^(٣) أن بعض المفسرين ذهب إلى أن الغلب تعني: الطوال، وأن بعضهم قال: هي النخل الكرام^(٤). وأما قوله تعالى: ﴿وَفَيْكَةً وَأَبًّا﴾، فالفاكهة هي: ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، والأب هو ما تأكله البهائم من العشب والنبات^(٥). وهذا التفسير هو ما نقله الطبري عن ابن عباس وغيره من أوائل المفسرين، وهو ذاته أورده الصنعاني في تفسير غريب القرآن^(٥). ويدو لي أن تفسير آباً بما تأكله الأنعام تؤكد آية: ﴿مُتَعَمِّكُمُ لَا تُنْعِمَكُمُ﴾ (عبس: 32) التي جاءت بعد تلك الآية مباشرة.

يُلاحظ على هذه المجموعة من آيات النعم أنها كلها نعم مادية، نحو الطعام وتفرجاته، من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل وحدائق، وفاكهة للناس، وأب للأنعام، وكذلك الماء والأرض التربة التي هيئت للزراعة. وأنها بدأت بإجمال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾، أعقبته بتفصيل قدمته خمس من الآيات 27-31. إلا أن هذا التفصيل قد اشتمل على ما يأكله الحيوان، بالرغم من أن الإجمال المذكور قد حصر الدعوة إلى النظر في طعام الإنسان حسب، وربما كان تخريب ذلك -فيما أرى- أن الأنعام هي في المحصلة طعام للإنسان،

(١) الطبري: ج 7، ص 548.

(٢) السابق.

(٣) السابق: ص 548.

(٤) السابق.

(٥) محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني: تفسير غريب القرآن، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، 2000م، ص 82.

لحما كانت أو لبنا أو غيرهما، وما تأكله سيكون بطريقة غير مباشرة مندرجا في طعام الإنسان، وهو ما يستقى في العلوم المعاصرة بالسلسلة الغذائية، لذا فالآية حصرت الطعام بالإنسان. في حين أن الآية التي تلت هذه المجموعة، وهي قوله تعالى: ﴿مَتَنَعًا لَّكُم وَلَا تُعْمِرْكُم﴾ (عبس: 32)، قد جعلت المتعة للإنسان وللأنعام، ولم تحصرها في الإنسان حسب، وربما كان ذلك لأن شعور الأنعام بلذة تناول طعامها هو لها، في حين أن الفائدة من ذلك الطعام مستزول إلى الإنسان؛ لأنها مسخرة له.

﴿يَتَأَيُّمُ الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: 6-8). نجد أنفسنا أمام نعمة مجملة، ثم نعمة مفصلة لها. وما يهمنا في هذه المجموعة هما الآيتان 7 و8. وتفسيرهما: 'خلق الإنسان يجمع أجزاء وجوده، ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع، على ما تقتضيه الحكمة، ثم عدله بعدل بعض أعضائه، وقواه يجعل التوازن والتعادل بينهما، فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو، فيتم به فعله، كما أن الأكل مثلاً بالالتقام فهو للفم، ويضعف الفم عن قطع اللقمة ونهشها وطحنها، فيتم ذلك بمختلف الأسنان، وبحاج ذلك إلى نقل اللقمة من جانب في الفم إلى آخر، وقلبها من حال إلى حال، فجعل ذلك اللسان. ثم الفم يحتاج في فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه، فتوصل إلى ذلك باليد، وثم عملها بالكف، وعملها بالأصابع على اختلاف منافعها، وعملها بالأنامل، وتحتاج اليد لأخذ والوضع إلى الانتقال المكاني نحو الغذاء، وعدل ذلك بالرجل⁽¹⁾. أما قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، فهي: بيان لقوله: 'عدلك'، ولذا لم يعطف على ما تقدمه. والصورة: ما ينتقش به الأعيان، ويتميز به الشيء من غيره. وما: للتأكيد. والمعنى: في أي صورة شاء أن يركبك - ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة - ركبك، من ذكر وأنثى وأبيض وأسود وطويل وقصير ووسيم ودميم إلى غير ذلك، وكذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميزة لها من غيرها، كاليدنين والرجلين والعينين والرأس والبدن واستواء القامة ونحوها، وكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب⁽²⁾. إذن فالآيتان مع ما مرّ لهما من تفسير مفصل دقيق، دالتان بشكل جلي على

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 225.

(2) السابق.

نعم مادية متعلقة بخلق الإنسان، وتكامل أعضائه واعتداله وتنوع أشكاله وجنسه ولونه.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ ﴿١٦﴾ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ ﴿١٧﴾ إِذَا أُنْشِقَ ﴿١٨﴾﴾ (الانشقاق: 16-18).

حيث يقسم الله تعالى بهذه النعم. والشفق هو: الحمرة في الأفق من ناحية المغرب بعد غروب الشمس^(١). وذكر صاحب الميزان أنه: الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التي تحدث بالمغرب أول الليل^(٢). أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، فقد أقسم الله بالليل وما جمع مما سكن وهذا فيه من كل روح، كان يطير أو يتحرك في النهار^(٣). وهذا إشارة إلى كل نعمه سبحانه وتعالى فالآية شاملة وجامعة. وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، أي: اجتمع وانضم بعض نوره إلى بعض فاكتمل نوره وتبدّر^(٤).

نلاحظ أن الآيات السابقة من سورة الانشقاق تشتمل على نعم مادية، منها ما هو صريح كالشفق، من حيث هو ظاهرة طبيعية مرتبطة بالشمس وغروبها، وهو كذلك توقيت زمني لصلاة العشاء، كما جاء في تفسير الطبري^(٥). وهناك نعمة الليل، وما فيه من سكون وهدوء يتيح للإنسان الراحة والسكينة، حتى يتسنى له أن يعيد نشاطه وعمله وإنتاجه، مع بزوغ نهار جديد. والنعمة الثالثة هي نعمة القمر، وما يعطيه من نور للإنسان في ليلائه، وما يقدم من زينة في سمائه، حيث إنه وسيلة توقيت زمني للإنسان، ليعرف به ابتداء الشهر العربي وانتهاؤه، وحساب السنين القمرية. وعددنا الشفق والليل نعمتين ماديتين، مع أنهما ليستا مادتين محسوستين، ولكنهما ينشأان بفعل الأرض والشمس اللتين هما مادتان محسوستان.

ومما يسترعي الانتباه إلى الآيات السابقة، وما تضمنته من ألفاظ، أنها تشير إلى ظواهر ليلية تنشأ مع غياب الشمس، فالشفق والليل وبزوغ القمر كلها تحدث بعد غياب الشمس، وبشكل تدريجي. وتناغم ذلك مع الآية اللاحقة لهذه الآيات الثلاث وهي قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾، التي فسرت بأنها 'المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلى ربه،

(١) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 283.

(٢) السابق: ص 245.

(٣) الطبري: مج 7، ص 583-584.

(٤) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 245-246.

(٥) الطبري: مج 7، ص 583.

من الحياة الدنيا، ثم الموت، ثم الحياة البرزخية، ثم الانتقال إلى الآخرة، ثم الحياة الآخرة، ثم الحساب والجزاء⁽¹⁾. ويبدو لي أن تلك المراحل انحصرت بالموت والبرزخ والآخرة تناسباً مع الشفق والليل والقمر، حيث الموت هو علامة غياب الإنسان، يقابل الشفق الذي هو علامة غياب الشمس. والبرزخ الذي هو مثل غيب وظلام لعدم المعرفة به من قبل الناس، يقابل الليل الذي هو الظلام وعدم الرؤية. والقمر بوضوحه وتجليه، يقابل اليوم الآخر بتقرير المصير فيه، ووضوح اليقين ومعرفة كل الحقائق.

- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج:1). في إشارة إلى نعمة السماء وما فيها. والملاحظ هنا استعمال أسلوب القسم للدلالة على عظمة هذه النعمة وأهميتها للإنسان. ونقل الطبري⁽²⁾ أقوالاً عدة في تفسير معنى البروج في هذه الآية، حيث قال بعضهم: البروج: القصور. وقال آخرون إنها النجوم. وقول ثالث أن البروج بمعنى الرمل والماء، أي السماء ذات الرمل والماء. ورجح الطبري الرأي القائل بأنها منازل الشمس والقمر. لأن البروج جمع برج، وهي منازل عالية عن الأرض⁽³⁾. وفي الميزان⁽⁴⁾ فالبروج هي: مواضع الكواكب في السماء⁽⁵⁾. والآيتان 1 و11 من سورة الطارق تشيران إلى السماء كذلك، وتشتملان على القسم بتلك النعمة المادية العظيمة أيضاً. وفي الآية الأولى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ أضيف الطارق إلى السماء، والطارق هو: النجم الذي يطلع بالليل⁽⁶⁾. أما الآية 11 وهي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، فقد نقل الطباطبائي⁽⁷⁾ أقوالاً عدة في تفسيرها، منها: أن الرجوع هو الرجوع إلى الله في القيامة. أو ما يظهر للحسن من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها، وغروبها بعد طلوعها. أو أن رجوعها بمعنى أمطارها⁽⁸⁾. وفسرها الزمخشري⁽⁹⁾ بأنها ترجع بالماء كل عام⁽¹⁰⁾.

- ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق:12). تتضمن هذه الآية نعمة مادية متمثلة بالأرض

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 246.

(2) الطبري: مج 7، ص 587.

(3) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 249.

(4) السابق: ص 258.

(5) السابق: ص 260-261.

(6) الكشف ج 4، ص 242.

التي تصدع بالنبات⁽¹⁾. وقريب منها في سورة الأعلى في آيتها 4-5: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾، تبرز نعمة المرعى والنبات المادية كذلك. وجاء عند الطبري "أن المرعى هو: النبات من الأحمر والأصفر والأبيض"⁽²⁾. وأورد أن ﴿غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ معناها: أن الله جعله هشيمًا يابسًا متغيرًا إلى الحوّة، وهي السواد من شدة اليبس بعد أن كان أخضر⁽³⁾.

- ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ^(٤) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ^(٥) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ^(٦) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ^(٧)﴾ (الغاشية: 17-20). في هذه المجموعة من الآيات مجموعة من النعم، أشارت إليها ألفاظ لا نجد بداً من إحالتها على أحد كتب التفسير. وسنجد أن معنى نُصِبَ الجبال أي: إقامتها منتصبة لا تسقط على الأرض بقدرة الله⁽⁴⁾. وسطح الأرض أي بسطها⁽⁵⁾. وأميز ما في الإبل - كما يبدو لي - هو طريقة خلقها من حيث تناسبها مع البيئة الصحراوية، ومن حيث إمكاناتها وقدراتها. وأميز ما في السماء هو ارتفاعها بهذا الشكل بلا عمد. والجبال أميز ما فيها هو انتصابها بتماسك، فلا تقع ولا تخور، وأن بداية تكونها هو حركات في طبقات الأرض خفية لم يعرف الناس عنها إلا حديثاً. أما الأرض فأميز ما فيها هو بسطها ومدها، إذ هي كرة دائرية لا حد لها لمن يمشي عليها، وهي تدور وتحقق بدورانها الليل والنهار، والفصول الأربعة. وفي ذلك ما هو معلوم من فائدة عظيمة للإنسان في جوانب حياته كلها.

- ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ^(٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ^(٩)﴾ (البلد: 8-9) وهي أدوات المعرفة لدى الإنسان، يتوصل بها إلى الحقائق.

- ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ^(١٠) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ^(١١) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ^(١٢) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ^(١٣) وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ^(١٤) وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ^(١٥)﴾ (الشمس: 1-6). وهنا يتكرر ذكر كثير من

(1) الكشف ج4، ص242.

(2) الطبري: مج7، ص605.

(3) السابق.

(4) السابق: ص615.

(5) السابق.

النعم التي مرت معنا في آيات سابقة كالشمس والقمر والليل والسماء والأرض.

- وهناك نعمتا التين والزيتون ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ في سورة التين. ونعمة العاديات وهي الخيل التي يستعملها الإنسان في معيشته وتنقله وحربه، في قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (العاديات: 1).

ملحوظات أسلوبية على النعم المادية في "جزء عم":

1- تكرر ذكر مجموعة من هذه النعم في أكثر من سورة من سور الجزء، وقد عبرت عنها ألفاظ مختلفة أحياناً. فعلى سبيل المثال تكررت الإشارة إلى نعمة السماء سبع مرات، أحياناً تصريحاً بلفظها، وأحياناً بصفة لها، فذكرت في سور: النازعات، والبروج، والطارق - مرتين -، والغاشية، والشمس، والنبأ - بذكر صفة سبع شداد مكانها - . والأرض تكرر ذكرها ست مرات، في سور: النبأ، النازعات، عبس، الطارق، الغاشية، وأخيراً الشمس. وتكرر ذكر الجبال في ثلاثة مواضع. وتكرر كذلك ذكر الأطعمة في مواضع عدة تناولناها في ما سبق.

ولا ريب أن الألفاظ التي تكررت في مجال النعم المادية من قبيل لفظة السماء قد عكس تكرارها اللافت أهمية خاصة لها، يتجاوز استعمالها العادي، ذلك أنها تنطوي على دلالات متعددة منها ما يتعلق بالخالق، ومنها ما يتعلق بالسماء نفسها، ومنها ما يتعلق بأمور أخرى مرتبطة بها. وسيأتي توضيح ذلك في النقطة التالية.

2- يبدو لي أن الألفاظ الدالة على النعم المادية وإن تكررت بطريقة أو بأخرى، إلا أنها في كل مرة كانت تركز على أمر مختلف، فلفظة السماء مثلاً تكررت في ثمانية مواضع كما أسلفنا، ولكنها في كل مرة أسندت إلى لفظة أخرى ميزتها وأعطتها معنى خاصاً ومختلفاً عما هو موجود في سائر المواضع، ففي سورة النازعات: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾ (النازعات: 27)، كان التركيز على طريقة بناء السماء بدقة وإحكام وإبداع، وهذا ما أفاده تعلق السماء بالفعل بنائها، وفي سورة النبأ: ﴿وَنَبِّئْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، كان التركيز على تبيان شدة ذلك البناء وكذلك على كثرة عدد السماوات. وفي البروج: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، فقد ركز على أن للسماء بروجاً. أما في سورة الطارق: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، فالتركيز هنا على علاقة السماء بالنجوم. أما علاقتها بالمطر فتم التركيز عليه في السورة

نفسها في موضع آخر منها: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾، (الطارق: 11). وهكذا مع كل النعم التي سبقت في جزء عمّ، فقد اقترنت في كل موضع من مواضعها بلفظة مختلفة أعطتها بعدا خاصا جديدا ومختلفا.

3- إن ألفاظ النعم والقدرة تناولت العالم العلوي المتمثل بالسماء وما فيها، والعالم السفلي المتمثل بالأرض وما فيها، وتناولت كذلك النعم على الإنسان وعلى الحيوان، وتناولت كل عناصر البيئة من نبات ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾، وتراب ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾، وماء ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، وإنسان ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وفضاء ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾. ثم إنها تناولت نعم الليل ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ونعم النهار ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، وماء السماء: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (عبس: 25)، وماء الأرض: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات: 31). وتناولت خلق الحي من إنسان وحيوان، وخلق غير الحي من سماء وأرض وغيرها. ومجمل القول إن ألفاظ النعم المادية كانت شاملة لكل مظاهر الحياة الدنيا، حيها ومجدها، ليلا ونهارها، أعلاها وأسفلها.

ب- النعم المعنوية:

وقد عبّرت عنها مجموعة من الألفاظ اشتملت عليها الآيات الآتية:

- ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (النبا: 9). 'السبات': هو إما الراحة والدعة، أو هو قطع التصرفات النفسانية في البدن مما يسبب الراحة، وهو معنى قريب من الأول، أو أن السبات بمعنى الموت⁽¹⁾. والقول الثاني اعتمده الزغشري⁽²⁾ كذلك⁽³⁾. وقال الطبري: 'السبت والسبات: هو السكون، وسُمي يوم السبت سبتا، لأنه يوم راحة ودعة'⁽³⁾. والنوم وما ينتج عنه من راحة ودعة هو نعمة معنوية أنعم الله بها على خلقه يستعينون بها في معاشهم.
- ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ (عبس: 20). اختلف أهل التأويل في السبيل الذي يسره الله له، فقال

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 162.

(2) الكشف: ج 4، ص 207.

(3) الطبري: مج 7، ص 513.

بعضهم هو خروجه من بطن أمه، فالسبيل هو الرحم. وقال آخرون: أي بيّنا له طريق الحق والباطل وسهلنا له العمل بالحق. وقول ثالث: هو سبيل الشقاء والسعادة. وقول رابع: أي هداه الله إلى الإسلام، فالسبيل هنا هو الإسلام⁽¹⁾. وعلى كل فالتيسير للسبيل سواء كان الرحم أو كان الإسلام أو السعادة فهو نعمة معنوية لله على الإنسان. ونرجّح أن السبيل هنا هو طريق السعادة، الذي يتقاطع مع الإسلام والحق، فالحق سبحانه لا ييسّر خلقه للباطل والشقاء.

- ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى:3). 'أي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة، في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها، وجعلها بما يناسب ما قدر لها، فهداها إلى ما قدر، فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية، كالطفل يهتدي إلى ثدي أمه والفرخ إلى زق أمه وأبيه والذكر إلى الأنثى، وذو النفع إلى نفعه وعلى هذا القياس⁽²⁾. إذا فالنعمة المعنوية في هذه الآية تشير إليها لفظة 'هدى' التي تمثل الهداية التكوينية من الله للمخلوقات. ونجد نعمة الهداية كذلك في الآية 10 من سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، أي: 'علمناه طريق الخير وطريق الشرّ بإلهام منا، فهو يعرف الخير ويميّزه من الشر⁽³⁾'. والأمر نفسه في الآية 8 من سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، أي: 'إفهامها وإعقالها أن أحدهما حسن والآخر قبيح⁽⁴⁾'. والآية أفادت المعنى نفسه الذي أفادته آية: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، فالنجدان هما إما الفجور أو التقوى.

- ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق:4-5). أي: 'علّم القراءة أو الكتابة والقراءة بواسطة القلم⁽⁵⁾'. والمعرفة والعلم هي أمور معنوية غير محسوسة يدركها الإنسان بعقله، ويصل إليها من خلال حواسه.

- ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) ﴿﴾

(1) الطبري: مج 7، ص 526.

(2) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 265.

(3) السابق: ص 292.

(4) الكشف: ج 4، ص 258.

(5) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 324.

(قريش:4). في هذه الآية تبرز نعمة الأمن بوصفها نعمة معنوية، ذلك أن أهل مكة كانوا تجارا يرحلون للتجارة صيفا وشتاء، فلا يغار على قوافلهم لأنهم أهل الحرم تعظيما لهم. وقيل: أمنهم من الجذام. ورجح الطبري كل هذه الأقوال، حيث ذكر أن الآية عامة في تأمين الله لهم من كل مخوف يخاف منه⁽¹⁾.

ملحوظات على النعم المعنوية في "جزء عم":

1- يلحظ أن النعم المعنوية كانت قليلة في "جزء عم" قياسا إلى النعم المادية، فالنعم المعنوية في "جزء عم" أربع، هي: النوم والهداية والعلم والأمن. في حين نافت النعم المادية على الخمس عشرة نعمة، بعضها مفصل وبعضها مجمل، وجزء كبير منها تكرر في ثنايا الجزء حتى بلغ التكرار ببعضها إلى سبع مرات كما لاحظنا في نعم السماء والشمس، وذلك إمعانا في الإشارة إليها والتركيز على أهميتها، ودورها في حياة الإنسان والمخلوقات.

ويبدو لي أن قلة ذكر النعم المعنوية في "جزء عم"، سببه أن واقع النعم المعنوية على الإنسان هو أقل من ناحية العدد من النعم المادية، وإن كان هو الأكثر أهمية وأثرا في حياته وتقرير مصيره، نحو نعمة الهداية والعلم والعقل، فهي نعم لا تقاس بها أية نعمة مادية، من حيث أهميتها وعظم حضورها في حياة الإنسان. وربما لأن الناس في معظمهم ليس لديهم ذلك الوعي الكافي بالمعنويات، والمعرفة ووسائلها، والدين والعقيدة والغيبات، بل جل تفاعلهم بالمجردات والمحسوسات المادية التي تقابلهم في حياتهم اليومية، وتشكل أساسيات وضرورات ترتكز عليها معاشهم.

2- إن أكثر النعم المعنوية ذكرا وتكراراً في "جزء عم" هي نعمة الهداية للإنسان بشقيها: الهداية التكوينية، وهي إلهام الله تعالى مخلوقاته سبل معاشها وطرائق تحركاتها في الحياة، من قبيل التكاثر والطعام وغيرهما. وهذا النوع عبرت عنه الآية: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:3). والشق الثاني: هو الهداية التشريعية أو التكليفية، وقصد بها: هداية الله سبحانه لخلق المكلفين إلى طريقي السعادة والشقاء من خلال تعريفهم كلا الطريقين، وإعطائهم

(1) الطبري: مج7، ص700-701.

العقل للتمييز، وتكريمهم بحرية الاختيار⁽¹⁾. وتكرر ذكر الهداية بشقيها خمس مرات، واحدة منها للهداية التكوينية، وأربع للهداية التشريعية، وهي الآيات: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. وهذا دلالة واضحة على أهميتها ودورها العظيم في حياة الإنسان، بوصفها نعمة معنوية يتحدد مصيره الأبدي بناء عليها، ليس هذا فحسب، بل تحدد من خلالها معالم حياته الدنيوية، وتحركه فيها إيجابيا كان أو سلبيا.

ونلاحظ كيف تنوعت الأساليب والألفاظ في التعبير عن معنى الهداية، إذ استعملت لفظة السبيل تارة للتعبير عن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان، أو هو تعبير عن الطريقين: التقوى والفجور. وتارة عبر عن ذلك الطريق نفسه بكلمة النجدين، وتارة ذكر هذين النجدين تصريحاً فجورها وتقواها، وقابلت لفظة ألهمها لفظة يسره وهديناه في الآيتين المذكورتين. ومرة كان الحديث عن الإنسان: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، إذ الضمير في يسره وفي هديناه عائد إلى الإنسان. ومرة أخرى كان الحديث عن الإنسان، ولكن بتعبير النفس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، إشارة إلى دور النفس في تلقي الإلهام الرباني المتمثل بالفعل المميز والفطرة السليمة، حيث إن النفس هي مجموع اتحاد الروح الإنسانية مع الجسد الإنساني، وهو الاتحاد الذي تصطرع في ثناياه القوى المختلفة من غضب وشهوة وخيال وعقل، ويتحدد نتيجة هذا الصراع مصير الإنسان في آخرته.

(1) انظر: الطباطبائي: تفسير الميزان، مج 20، ص 264، وكذلك ص 304-305.

الفصل الثاني

الاستعمال الصرفي في جزء عمّ

توطئة:

الأسلوبية الصرفية، التي هي أداة لدراسة التعبير اللغوي في إطار المنهج الوصفي الأسلوبي، تتمحور حول الطاقة التعبيرية الكامنة في الكلمة الواحدة. حيث تتناول هذه الأداة الكلمة من جهة الصياغة والاشتقاق، بشرط أن تكون في سياق أدبي يتيح المجال لفعالية إيجائية تتجاوز الوظيفة الإعلامية، ومعتمدة على تعدد المعنى، وعلى البعد التاريخي للغة الأدبية⁽¹⁾.

وبما أن القرآن المجيد قد نزل بلسان عربي مبين، فهو يتضمن تشكيلات اللغة العربية كافة؛ نحوية وصرفية وبلاغية، ويتضمن كذلك أدوات التأثير اللغوية ذاتها التي تتضمنها اللغة العربية، ولكن بالشكل الكامل الذي لا يدانيه أي وجود لغوي آخر. فمنشئ لغة القرآن هو الرب العليم الذي يعلم الجهر وأخفى، ويعلم ما يصلح لخلق من وسائل التأثير والإقناع، لأنه أقرب إليهم من حبل الوريد، ولأنه الخالق الذي أتقن كل شيء صنعا، وهو ما نجده فعلاً في النظم القرآني العظيم. ومن الناحية الأسلوبية التي هي محور اهتمامنا في هذه الدراسة، فإن التشكيل الصرفي في بعض مستوياته يدخل في نطاق الانزياحات الاستبدالية التي تخرج على قواعد الاختيار للرموز اللغوية، مثل وضع المفرد مكان الجمع، أو الصفة مكان الموصوف⁽²⁾.

ونجد صدى ذلك في الاستخدام الصرفي للألفاظ في جزء عمّ. إذ إن التشكيلات الصرفية المقصودة في الجزء تؤدي إلى ترسيخ فهم معين في ذهن المتلقي، يهدف إليه القرآن الكريم على أساس أنه كتاب ديني يتضمن التشريع والدعوة والإنذار. وربما يعمد القرآن الكريم إلى فرض احتمالات عديدة للفهم على ذهن المتلقي إذا كان ذلك يخدم هدف القرآن، كما سنرى لاحقاً. وفي دراسة المستوى الصرفي لجزء عمّ تقابلنا مجموعة من العنوانات الصرفية التي وظّفها القرآن الكريم توظيفاً فنياً رسم معالم واضحة لأسلوبه التعبيري. ومن هذه العنوانات:

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 103-104.

(2) السابق: ص 188.

أولاً: إحلال صيغ محل أخرى:

وهي بدورها تنفرع إلى أربعة عنوانات:

أ- وضع المشتق موضع الجامد.

يعمد القرآن إلى التعبير عن اسم جامد بآخر مشتق لهدف فني أو بلاغي، ذلك أن الاسم المشتق يكون ذا دلالات متعددة بعكس الجامد المحدد الدلالة، وهذا من شأنه أن يثري المعنى ويبعده عن التقريرية المباشرة⁽¹⁾. ففي قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾⁽²⁾ وَالنَّشِيطَاتِ ذُشْطًا⁽³⁾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا⁽⁴⁾ فَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا⁽⁵⁾ فَأَلْمُذَيَّرَاتِ أَمْرًا⁽⁶⁾ (النازعات: 1-5)، في هذه الآيات عبّر القرآن عن الجوامد بالمشتقات، وهذا جعل الاحتمالات متعددة عند تفسيرها. فالنازعات على سبيل المثال فُسِّرَت تفسيرات عدة: منها أنها الملائكة تنزع نفوس بني آدم. أو هي الموت ينزع النفوس. أو النجوم تنزع من أفق إلى أفق. أو القسي تنزع بالسهم. أو النفس حين تنزع⁽²⁾. والأمر نفسه في تعدّد احتمالات التفسير مع الناشطات والسابحات والسابقات والمذبذبات⁽³⁾.

هذا في حال كانت المشتقات معارف، والمعرفة كما هو معلوم تدلّ على معيّن، ومع ذلك تعددت احتمالات التفسير كما رأينا، وتعدّد الاحتمالات أكثر إذا كانت المشتقات نكرات، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾⁽⁷⁾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ⁽⁸⁾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ⁽⁹⁾ (البروج: 1-3)، حيث شاهد ومشهود هنا لفظتان مشتقتان ونكرتان في آن، لذا فقد كثرت احتمالات تفسيرهما بدرجة لافتة، وقد مرّت معنا أوجه تفسيرهما في موضع سابق من هذا البحث، ولا بأس أن نذكر بعضها منها في هذا المقام، حيث فُسِّرَ شاهد بأنه يوم الجمعة. أو هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أو هو الإنسان. أو هو الله تعالى. أو يوم الأضحى. في حين فُسِّرَ مشهود بيوم عرفة. أو القيامة. أو يوم الجمعة⁽⁴⁾. وغيرها من التفسيرات توسّع فيها ألفخر الرازي في تفسيره⁽⁵⁾. حيث

(1) محمود نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، دار العلوم العربية، بيروت، 1989م، ص232.

(2) الطبري: التفسير، مج7، ص528.

(3) السابق: ص529-530.

(4) السابق: ص588.

(5) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ج31، ص113-115.

وصلت الأقوال فيهما إلى ثلاثين قولاً⁽¹⁾. والذي أدى إلى تلك الكثرة في احتمالات التفسير هو: وضع المشتق موضع الجامد ولإضافة التنكير إليه قصداً إلى هذا الغموض الفني الذي يترك للذهن حرية التفكير في استنباط المعنى فيكتسب بذلك هذه الثروة من المعاني أو احتمالاتها⁽²⁾.

ب- وضع الجامد موضع المشتق:

بأن يعمد القرآن إلى أسماء المعاني لا أسماء الذوات فيضعها موضع الأسماء المشتقة. إذ إن لأسماء المعاني قدرة للتعبير ليست للمشتقات⁽³⁾. قال ابن يعيش: قالوا: رجل عدل ورضا وفضل، كأنه لكثرة عدله، والرضا عنه، وفضله، جعلوه نفس العدل والرضا والفضل⁽⁴⁾. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۖ لِلطَّيْفِينَ مَفَاقًا ۖ لِلْبَاسِ فِيهَا أَحْقَابًا ۖ لَا يَدْخُلُوهَا ۖ فِيهَا بَرْدٌ وَلَا شَرَابٌ ۖ إِلَّا حَرِيمًا وَغَسَاقًا ۖ جَزَاءٌ وَفَاقًا ۖ﴾ (النبا: 21-26). فالوفاق هو مصدر وفاق بمعنى مائل أو ضارِع، وقد عدل القرآن الكريم عن وصف الجزاء باسم مشتق نحو: جزاء موافقاً، إلى وصفه بالمصدر لتأكيد معنى موافقة العقاب لجنس ما كان يعمل أولئك الكافرون. ولعل القرآن أراد أن يقول إن العقاب الذي استوجبوه هو الوفاق بعينه لما كانوا يعملون. وهذه اللفظة الدقيقة لا تصلح أن تحمل محلها لفظة أخرى مثل موافقاً مثلاً. وهي قدمت في الوقت ذاته فاصلة موافقة مع الفاصلة التي قبلها في الروي. ولم يؤت بها مراعاة للفاصلة كما قد يذهب بعضهم، وسيأتي ذكرهم، بل تطلبها المعنى الدقيق.

ولمجد نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۖ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۖ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۖ﴾ (النبا: 31-34)، حيث وصفت الكأس هنا باسم المصدر دهاق من الفعل أدهق أي أترع وملاً بدلاً من المفعول مذهب، أي بدلاً من القول: كأساً مذهباً، فقد قال: كأساً دهاقاً، وكأنها إشارة إلى أن هذه الكأس لا تفرغ أو تنقص أبداً، فهي بامتلائها الدائم كأنها الدهاق ألا متلاء بعينه.

(1) الطباطبائي: الميزان، مج 20، ص 250.

(2) عمود نخلة: دراسات قرآنية في جزء هم، ص 236.

(3) السابق.

(4) موفق الدين بن يعيش النحوي: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج 3، ص 50.

ج- وضع المجرد موضع المزيد:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالنَّارِ عَذِبٌ غَرَقًا﴾ (النازعات: 1)، فجاء في التفسير أن غرقاً هنا بمعنى إغراقاً، فيكون معنى الآية: نزعت النفوس بشدة. وهو مأخوذ من قولهم: نزع في القوس فأغرق يقال أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل⁽¹⁾. وقد استخدم القرآن غرقاً بدلاً من إغراقاً للدلالة على منتهى الشدة في النزاع. وربما أن غرقاً - فيما أرى - هي صفة لمصدر محذوف هو نزع، والتقدير: والنازعات نزعا غرقاً، أي نزعا عميقا كناية عن شدته. فهو من شدته كأنه الغرق بعينه. ولا نظن أن ذلك كان مراعاة للفاصلة كما قيل⁽²⁾.

د- وضع المشتق موضع المشتق:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (التكوير: 19-21). وأمين هنا بمعنى مؤمن عُدل عنها لندرة استعمالها، ولإثبات الأمانة صفة ملازمة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. إذ إن أمين هي صفة مشبهة على وزن فاعيل وهي كذلك من أوزان صيغة المبالغة.

ونجد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (التكوير: 25)، أي مرجوم. ولكن رجيم أنسب، إذ هي صفة ملازمة للشيطان. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص: 2). أي مصمود بذاته، إلا أن صمد هي الأنسب لملازمتها للواحد الحي القيوم سبحانه.

ثانياً: تعدد الصيغ الأوجه للفظ الواحد.

يورد القرآن في جزء عم مجموعة من الألفاظ تنصرف إلى أكثر من صيغة، وهذا من اللبس الحاذق والمقصود، لا يسلم سره لكل أحد فهو مما يسمونه المطمع الممتنع إذا رأته حسبته سهلاً، فإذا حاولته عزّ المنال⁽³⁾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 3، ص 27.

(2) عمود لحن: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 239.

(3) السابق: ص 242.

(النبا: 39)، فـ'مآب' وزنها الصرفي 'مفعَل'. وهذا الوزن يصلح أن يكون اسم زمان، واسم مكان، ومصدرا ميميا. فإنْ صُرِفَ إلى أنه اسم زمان كان المعنى: من شاء اتخذ إلى ربه وقتا يؤوب فيه. وإنْ صُرِفَ إلى أنه اسم مكان فالمعنى: من شاء اتخذ إلى ربه طريقا للتوبة. وإنْ حُمِلَ على أنه مصدر ميمي فهو بمعنى الرجوع، أي من شاء اتخذ إلى ربه رجوعا بمعنى توبة. وليس هناك من راجع أو مرجوح. فيؤخذ بهذه الصيغ جميعا. ونرى أن الغرض البلاغي وراء هذا الاتساع في المعنى هو التأكيد على يوم البعث وأحقته، وضرورة حضوره الدائم في تفكير الإنسان، فهو يوم تقرير المصير، لذلك فالمعنى في لفظة 'مآب' شمل الزمان والمكان، وشمل المصدر.

ونحو ذلك قيل عن 'مفازا' في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (النبا: 31)، فهي إما مصدر، وإما اسم مكان، وليس من مرجح. ونحو ذلك أيضا قيل عن 'معاشا' وميقاتا' في سورة النبا والمرصاد في سورة الفجر في آيتها 17، فكلها ألفاظ تحتمل أكثر من صيغة، وليس في سياقاتها ما يرجح صيغة منها على الأخرى⁽¹⁾.

ثالثا: الحذف في الصيغ

الحذف الذي نقصده هنا هو عدم الذكر. وليس أن الكلمة كانت موجودة ثم حذفت. فالقرآن منزّه عن ذلك. والحذف في الصيغ المشتمل عليه 'جزء عم' نوعان: نوع يقع في أول الصيغة، ونوع يقع في آخرها. فالذي يقع في أولها فهو حذف الصامت إذا تلاه صامت مثله، كي لا يتوالى صامتان متماثلان. كحذف 'التاء' الأولى من الفعل 'تتركى' لتصبح 'تزكى' في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (النازعات: 18). وربما قصد دعوته إلى التزكية في مرحلتها الأولى على الأقل متمثلة بالفعل المخفف. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْضُوبُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَشْكِينِ﴾ (الفجر: 18)، حيث حذفت 'التاء' الأولى من 'تخاضبون' لتصبح 'تخاضبون'. ولعله قصد أنهم مقصرون حتى في الحض الخفيف على الطعام فضلا عن الحض الكبير الذي قد يمثله وجود التاءين معاً في الفعل. ونحوه في 'تلظى' في الآية 14 من سورة الليل. وربما قصد أنها تلظى الآن مخففة، قياساً إلى ما ستكون عليه حين ملاقة الكفار، عندها تلظى، مصداقا لقوله تعالى: 'وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ' أي زيد في إضرارها. وفي

(1) عمود لحلة: دراسات قرآنية في جزء هم، ص 244-245.

الفعل تُنَزَّلُ في سورة القدر آية 4. وربما كان هذا التخفيف بعدم ذكر التاء الثانية إشارة إلى أن الملائكة ينتزلون بتؤدة وخفة وخشوع، والفعل تُصَدَّى في "عبس" آية 6. ربما إشارة إلى لين الرسول وأسلوبه الرفيع في التصدي للناس بالدعوة إلى الله تعالى.

أما الحذف في آخر الصيغة فلم يقع في جزء عم إلا في الكلمات التي تكون فواصل للآيات⁽¹⁾. كقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝﴾ (الفجر: 1-5)، فحذفت ألياء من يسري وصارت يسر، مما دعا بعض الدارسين إلى تعليل ذلك بمراعاة الفاصلة كما مر. ونجد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝﴾ (الفجر: 9)، فهنا حذفت ألياء من الوادي فصارت الواد. وحذفت كذلك من أكرمني لتصبح أكرمن ومن أهانني في الآيتين 15-16 من السورة ذاتها. وغُلِّل ذلك بتحقيق السلاسة اللفظية بعدما كثرت المذات أو الصوائت الطويلة في السياق⁽²⁾.

رابعاً: اختيار الصيغ

القرآن الكريم يتميز في اختيار الصيغة وإحلالها محلها الملائم، حيث لو أريد لصيغة أخرى أن تحمل محلها لأخل ذلك بجمال التعبير وبدقة المعنى المراد. مثال ذلك صيغة يتفاعل الدالة على المشاركة في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مَخْتَلِفُونَ ۝﴾ (النبا: 1-3). والنبأ العظيم هو يوم البعث، وقيل القرآن⁽³⁾. وما كان أنسب من صيغة يتفاعل في هذا السياق للدلالة على ردة فعل الكفار تجاه القرآن أو تجاه خبر البعث الذي فيه، حيث شرعوا يسألون بعضهم بعضاً متعجبين من هذا الأمر العظيم. وقد جاء هذا التساؤل بعد استهلال السورة بسؤال هو عم فكان سؤالاً عن تساؤل، وهو أسلوب بديع من مراعاة النظر⁽⁴⁾.

(1) عمود لحن: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 247.

(2) السابق: ص 248.

(3) الطبري: التفسير، مج 7، ص 511.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 7.

واختار القرآن في جزء عم اسم المرة زجرة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (النازعات: 13). ووصفها بـ «واحدة» مؤكداً، ليشير إلى سرعة وقوع نفخة البعث وعدم تكررها. ثم نجد القرآن يعتمد إلى صيغة تفعّل الدالة على التكلف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ﴾ (الانشقاق: 3-4)، حيث تتكلف الأرض إلقاء ما بها، وتقوم بالأمر على أتم وجه حتى لا يبقى في بطنها شيء، وذلك استجابة منها للأمر الإلهي القاضي بالبعث والنشور.

وفي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۖ﴾ (الفجر: 27-30). فلنا أن نتأمل في لجوء القرآن الكريم إلى صيغتي اسم المفعول واسم الفاعل «راضية» «راضية» فهي راضية ومزينة مما ترضى له، لأن المرضي عنه يزداد في إكرامه عن الحد الذي يرضيه⁽¹⁾. ونتأمل في السياق نفسه فعل المطاوعة أطمأن، والمطاوعة تقتضي حدوث الفعل من الداخل إن جاز التعبير أي أن الاطمئنان ليس شيئاً خارجاً عن النفس، ولا ممنوحاً لها وإنما هو نابع من داخلها⁽²⁾.

خامساً: الصيغ المركبة.

مثل: «قد كان فعل» كان قد فعل، كان فعل. وهي صيغ لم تكن موضع اهتمام من قبل النحاة العرب القدماء، بل مروا بها مرور الكرام، ولم يحفلوا بمناقشتها والخوض في دلالات استعمالاتها والغرض من استحداث اللغة لها⁽³⁾. وتعاملوا مع صيغة كـ «كان فعل» على أساس أنها مؤلفة من فعلين مستقلين، وربما تناولوها تناولاً نحوياً بدون اعتبار لدلالة اتصال الفعلين، وبدون أن يلحظوا أثر الاستعمال في تلازمهما وجعلهما مركباً له دلالة واحدة ويعبر جزأه معا عن وقوع الحدث، وهو هنا المشاهدة في الماضي البعيد⁽⁴⁾. والصيغ كان فعل، كان قد فعل، قد كان فعل وما

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 343.

(2) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 251.

(3) السابق: ص 227.

(4) مهدي المخزومي: في النحو العربي: نقد وتوجيه على المنهج العلمي الحديث، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط 1966، 2.

ص 148-149.

على مثالهن، تستعمل للتعبير عن وقوع الحدث في الزمان البعيد. أما صيغة 'كان يفعل' وما على شاكلتها، فتستعمل للتعبير عن استمرار الحدث في فترة من الزمن الماضي⁽¹⁾.

أما سبب تناولنا لهذا الموضوع ضمن المستوى الصرفي فذلك أن هذه الصيغ المركبة من 'كان' - أو إحدى أخواتها - والفعل، تدل بتركيبها على معنى لا يتحقق بـ 'كان' وحدها، أو بالفعل وحده⁽²⁾.

والصيغ المركبة في 'جزء عم' المحصرت في خمسة مواضع. وكلها بصيغة 'كان يفعل'. أربعة منها كان فيها المضارع مثبتاً، وصيغة واحدة نفي فيها المضارع بـ 'لا'، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (النبا: 27). أما المواضع التي أثبت فيها المضارع فهي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: 14). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين: 17). وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: 29). وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين: 36). ويلحظ أن سورة المطففين استحوذت على معظم هذه الصيغ المركبة في 'جزء عم'. وكل الصيغ المذكورة دلت على الاستمرار، في إطار توظيف فني يتضح عند تحليل الصيغة بجزئها 'كان' والفعل، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، نجد أن نفي رجاء الكافرين الحساب على سبيل الاستمرار بيان لفداحة جرمهم وإصرارهم عليه.

والأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين: 17)، فالتكذيب منهم مستمر متجدد لا ينقطع. وحول الصيغة المركبة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: 14)، يقول ابن عاشور: والتعبير بفعل الكون في قوله ما كانوا يكسبون دون أن يقال ما كسبوا ليدل على أن الذي ران على قلوبهم هو شيء استقر كسبهم إياه من زمن قديم، والتعبير بالمضارع في قوله: 'يكسبون' للدلالة على تكرار كسبهم ومعاودته، فيحصل من اجتماع معنى الاستمرار والتكرار أن كسبهم إياه متكاثر، وذلك يقتضي أنه قد صار سجية

(1) مهدي المخزومي: في النحو العربي، ص 156.

(2) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 230.

وملكة لهم بحيث يتعسر إقلاعهم عنه، وإذا كان كذلك كان حائلا دون قلوبهم عن العلم بأن آيات الله ليس بأساطير الأولين⁽¹⁾.

سادساً: البناء للمجهول 'المغايرة في الصيغ'.

يقول كمال بشر: "من صميم البحوث الصرفية كذلك دراسة المغايرة في الصيغ كما في المغايرة بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول"⁽²⁾. ومن هذا المنطلق تناولنا هذا الموضوع في إطار المستوى الصرفي. ويعمد القرآن الكريم في 'جزء عم' إلى التعبير بصيغة المبني للمجهول لأغراض عدة منها:

أ- تعلق الغرض بغير الفاعل:

وغالبا ما يبرز ذلك عند تناول القرآن ليوم القيامة وتصوير الأهوال المتعلقة بها، فلا يُذكر الفاعل لأن الغرض لا يتعلق به ويبنى الفعل للمجهول. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝﴾ (النبا: 18-20)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾ (التكوير: 1-4). وغيرها الكثير. ويعلق ابن عاشور على الآية الأولى مما ذكرنا فيقول: 'ويبنى ينفخ للمجهول لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ، وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم، وهو دعاء الناس للحضور إلى الفصل⁽³⁾'. وربما كان الغرض تعظيم الفاعل.

ب- تعلق الغرض بالفاعل وإن حذف:

ففي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝﴾ (الغاشية: 1-5)، يبنى الفعل تسقى للمجهول، ولم يُذكر فاعله مع تعلق الغرض به للدلالة على فعل إرغام الكافرين على شرب ماء شديد الحرارة

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 98.

(2) كمال بشر: مفهوم علم الصرف، ص 112.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 31.

يقطع أمعاءهم لا يمكن أن يبادروا هم إلى شربه ما لم يجبروا على ذلك، وذلك إمعاناً في إهانتهم وإذلالهم⁽¹⁾.

ويلجأ القرآن الكريم أحياناً إلى عدم ذكر الفاعل بالرغم من تعلق الغرض به، ومن ثم بناء الفعل للمجهول في مقام التذكير والحث على التفكير⁽²⁾. كما هو في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ﴾ (الغاشية: 17-20)، فلم يصرح القرآن بالفاعل في الآيات السابقة، لأن الهدف أن يتفكر أولئك الكفار المشككون فيه، ويتوصلوا إلى معرفته من خلال آياته ومظاهر قدرته سبحانه.

ج- الدعاء

يستعمل القرآن في معرض هذا الغرض الفعل الماضي للمجهول قُتِلَ، كما في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: 17). وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ (البروج: 4). فالآيتان تتضمنان جملتين دعائيتين مفادهما الدعاء على الإنسان الجاحد، وعلى أصحاب الأخدود بالقتل. ولكن الغرض منهما التعجب والإنكار. وهذا أسلوب عربي صميم درج عليه العرب في لغتهم. يقول ابن عاشور: "وقُتِلَ: دعاء بالقتل، وهو الموت بفعل فاعل، والعرب يستعملونه في معنى التعجب من أمر منكر، وفي معنى إظهار الغضب، كما يستعملون وَيَكُ وتُرِبَت يمينه وتُكَلَّتْ أمه"⁽³⁾. غير أن ابن عاشور أورد آراء أخرى، منها أن جملة ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قد تكون جواب القسم الذي استهلكت به السورة، والتقدير: لقد قتل أصحاب الأخدود. أو هي إنشاء شتم لهم فهم لم يقتلوا، أي الفعل قُتِلَ ليس بخبر، بل شتم، نحو قوله تعالى: قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ويفيد الوعيد⁽⁴⁾. وبحسب هذا الرأي يتفني غرض الدعاء.

(1) عمود لحنه: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 198.

(2) السابق.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 236.

(4) السابق.

الفصل الثالث

المستوى الصوتي في 'جزء عم'

توطئة:

إن وفرة موسيقى الألفاظ في لغتنا العربية هي ميزة من مزاياها الكثيرة. فالحروف والأصوات العربية 'واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج، متميزة المخارج والصفات، ثابتة الأصوات عبر القرون، يتوارثها جيل بعد جيل، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة. لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى، وتثبيت أصله وقراره، وتنويع شكله وألوانه، مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة، وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة⁽¹⁾. وهي طبيعة قبضها الله سبحانه للعربية لتقوم سبباً مهماً يعزى إليها إعجاز القرآن فيما بعد⁽²⁾.

والأسلوبية الصوتية هي فرع من فروع المنهج الوصفي في التحليل الأسلوبي، وهي النموذج تطبيقي قدمه 'بالي'. فالمادة الصوتية المتمثلة بالتنغيم والإيقاع والتكرار القائم على التردد والهبط والصعود، هذه المادة تتضمن طاقة تعبيرية كبيرة يبعدها الفكري والعاطفي⁽³⁾. وإذا توأم الصوت مع العاطفة والدلالة فإن ميدان التحليل الأسلوبي سوف يكون واسعاً، وسيضم التقويم إلى جانب الوصف⁽⁴⁾.

وحدد ثروبتسكوي في كتابه 'المبادئ الصوتية' صور الأداء الصوتي في الأسلوبية الوصفية، وجعلها ثلاثاً هي: الصوتية التمثيلية، التي تدرس الصوائت بوصفها عناصر لغوية موضوعية وقاعدية. والنوع الثاني: الصوتية الندائية، أو الانطباعية، وهي تتناول المتغيرات الصوتية التي تتوخى التأثير على السامع. وأخيراً: الصوتية التعبيرية، وهي تدرس المتغيرات الناجمة عن المزاج، والسلوك

(1) محمد محمد المبارك: خصائص العربية ومنهجها الأميل في التجديد والتوليد، مطبعة نهضة مصر، 1960م، ص 25.

(2) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط 6، 1956م، ص 243-244.

(3) صلاح فضل: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص 22.

(4) أبو العدوس: الأسلوبية: الرقبة والتطبيق، ص 101.

التلقائي للمتكلم. والنوعان الأخيران هما محور الأسلوبية الصوتية⁽¹⁾.

وتتشكل المتواليات الصوتية من ثلاثة عناصر رئيسية، هي: المقطع، والكلمة، والجمل. وهذه العناصر لا تكتسب الفعالية إلا في سياق لغوي لا يصبح واقعا إلا بالرأي الخاص. والعناصر الأسلوبية تجدد مكانا لها بين ذلك الواقع والكلمات المجردة. وهي العملية التي سماها 'هومبولت' الشكل الداخلي للغة، ونجدها عند 'هوسرل' باسم عملية إعطاء المعنى. والشكل الداخلي للغة يتطابق مع الأسلوب كما يرى 'جونتر إيسن'⁽²⁾.

ويجدر بالذكر أن استثنائنا بالأسلوبية الصوتية هنا ليس الغرض منه اختبار الطاقات التعبيرية العاطفية والشعورية عند الخالق عز وجل منشئ القرآن، كما تهدف الأسلوبية التعبيرية. بل إننا نفيد من أدوات التحليل والمصطلحات المستخدمة في تلك الأسلوبية في تناولنا للجانب الصوتي الإيقاعي القرآني في 'جزء عم'، وهو تناول له خصوصيته المستمدة من خصوصية النص القرآني، وليس بالضرورة أن نتبع معطيات الأسلوبية الصوتية وتطبيقاتها على الأصوات الحية لاستجلاء الأساليب. وإنما نحاول أن نتصور أن الخطاب القرآني هو صوت حي داخل مشاعرنا وتأثراتنا المختلفة يمكننا أن ندرسه وتحله. ذلك أن النظم القرآني المعجز يتسم بدقة وضع كلماته وجمله، والدقة في اختيارها وأدائها، والإحكام في سبكها ونسقها، ومتانة اتساق أجزائها مع ما لحروف الكلمة من توزيع حسن، وترتيب دقيق، وإخراج سليم عند النطق⁽³⁾. فالقرآن وحدة تركيبية متراسة متلاحمة في وحدة فنية رائعة⁽⁴⁾. وفي ذلك يقول 'محمد المبارك': .. وقد بلغت هذه الخاصية الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع حيث تتناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق⁽⁵⁾.

ويقول أحمد أبو زيد: 'إن للقرآن روعة وإن جانباً من تلك الروعة يرجع إلى جمال الإيقاع. ومعلوم أن ذلك الجمال الإيقاعي ينبع من التناسب بين العناصر الصوتية واللفظية أي من

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 101.

(2) ليوزف شتريلكا: 'الأسلوب الأدبي' من كتاب: 'مناهج علم الأدب، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول، مج 5، ع 1، 1984م، ص 78.

(3) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج 2، 1953، ج 3، 1954، ج 2، ص 237.

(4) عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبدالكريم عبدالله، تونس، 1980م، ص 225.

(5) محمد المبارك: خصائص العربية، ص 39.

الأصوات اللغوية والحركات والمقاطع الصوتية، ومن توازن الفقرات والآيات، و من تماثل الفواصل والغايات⁽¹⁾.

جرس الألفاظ

جرس: بفتح الجيم وكسرهما، يعني الصوت، والنغمة، وجرس الحرف نغمته⁽²⁾. والقرآن الكريم بلغ المنتهى في دقة اختيار اللفظ المناسب للمعنى، وبالنظر إلى ما بين الألفاظ من دقيق الفرق ولطيف التميز، فهو يتميز باستخدام كل لفظ بحيث يحقق المعنى بدقة متناهية، حيث يضع الألفاظ مواضعها التي لا تصلح لها ألفاظ أخرى، فليس من كلمة أخرى تؤدي ما تؤدي أختها من معنى في موضع بعينه ساقها القرآن فيه⁽³⁾. وكذلك فإن النظم القرآني يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض ونوع التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المخاطبين⁽⁴⁾.

ويزيد مصطفى صادق الرافعي موضوع النظم الصوتي في القرآن إضاءة، إذ يقول: إن الطريقة التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت بها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق، وصفات من اللهجة، لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي ﷺ فجعلت المسامح لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن لم يسمعه بد من الاسترسال إليه، والتوفر إلى الإصغاء⁽⁵⁾.

ويضيف الرافعي: "وأصوات الحروف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع من التركيب، وجهة من التأليف، حتى يمازج بعضها بعضاً، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة، ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده⁽⁶⁾".

(1) أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، المغرب، 1992م، ص289.

(2) الزبيدي: تاج العروس، ج، ص، مادة جرس.

(3) أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط3، 1950م، ص57، 105.

(4) أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص307.

(5) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص213.

(6) السابق: ص213.

وأوضح الرافعي أن من الخصائص التي انفرد بها القرآن، وباين بها سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد، وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وقال: لا وجه لتعليل ذلك إلا إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً، وابتداء ورداً، وإفراداً وتكريراً⁽¹⁾.

وفي كلام الرافعي السابق ما يروي الظم في تبيان تميز الأداء الصوتي في القرآن الكريم، والذي هو من مزاياه التي انفرد بها بل استحدثها للعرب، وما كانوا يعرفونها، وكيف أن هذا الإعجاز قام في ما قام على تناسب الحروف والأصوات بعضها مع بعض، بالنظر إلى مخارجها وصفاتها، وما كان العرب يلتفتون إلى ذلك فيما قبل القرآن الكريم.

فإذا نظرنا في تطبيق هذه الظاهرة على ألفاظ بعضها في جزء عمّ فلننا نجد أنها ناسبت المعنى الذي وضعت لأجله مناسبة تامة دقيقة، بحيث لا يمكن استبدال كلمات أخرى بها. وسنرصده فيما يأتي مجموعة من الألفاظ القرآنية، بعضها ذات دلالات قوية، تستدعي أن يكون الجرس الصوتي فيها قويا وأحيانا انفجاريا. وبعضها ذات دلالات لينة، وهي بالتالي تستدعي جرساً صوتياً ليناً ناعماً.

أصوات الدلالات القوية:

أ- ثَجَاجَا:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ (النبا: 14)، وهي صفة للماء، أي ماء متتابعاً أو كثيراً أو منصبا من السماء. ورجح الطبري أن يكون معنى ثَجَاجَا أي منصبا⁽²⁾. ولنا أن ننظر في الأصوات المكوّنة لهذه اللفظة لنرى كيف هي مناسبة لمعنى الانصباب، والذي ينطوي على سكون في أوله حيث حركة الماء للأسفل قبل أن يجتثك بالأرض، ثم يتبعه صوت انفجارى لطرق الأرض والسمع، ثم صدى لهذا الصوت الانفجاري يستمر ويتتابع. وهذا ما نجده فعلاً في أصوات لفظة ثَجَاجَا؛ حيث صوت ألثاء صوت مهموس رخو مصمت يخرج من بين أطراف

(1) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 218.

(2) الطبري: مج 7، ص 515.

اللسان وأطراف الثنايا⁽¹⁾. وهذه الصفات تناسب المرحلة الأولى من الانصباب وهي المرحلة المندفعة الصامتة النازلة. أما صوت 'ألجيم' فهو صوت مجهور شديد قوي منفتح، حيث اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق به، مستفل، حيث اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق به إلى الحنك، بل يستفل اللسان إلى قاع الفم. مقلقل⁽²⁾. ولا يخفى مدى مناسبة هذه الصفات الصوتية للمرحلة الثانية من الانصباب، وهي لحظة ملاسة الماء النازل للأرض، وهي اللحظة الانفجارية القوية الطارئة. ثم يظهر صوت 'أللف' وهو صوت مدّ ولين؛ حيث تخرج من النطق في لين من غير كلفة على اللسان واللهاء⁽³⁾. وهذا من شأنه أن ينسجم مع المرحلة الثالثة للانصباب، وهي مرحلة تلاشي الماء بعد احتكاكه الانفجاري مع الأرض، بشكل عشوائي حر متتابع، من غير تكلف.

ب- 'غساقاً':

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبا: 25). والغساق هو: الشراب السائل المكوّن من الزمهرير والنتن⁽⁴⁾. وهذا الخليط العجيب الذي جمع بين ليونة الماء السائل وقسوة الزمهرير ووطأة النتن، كان لا بدّ له من أصوات متناقضة كذلك تعبّر عنه. لذا فقد اجتمع صوت 'ألغين' وهو الصوت المجهور الرخوي المستعلي مع صوت 'ألسين' المهموس الرخوي المستفل الصفيري، ثم صوت 'ألقالف' المجهور الشديد المستعلي⁽⁵⁾. فصوت 'ألغين' يناسب وطأة النتن، إذ إنّ النتن ليست شدته في وزنه، بل في أثره المؤذي، وكذلك صوت 'ألغين' فهو رخو مجهور مستعل. وناسب صوت 'ألقالف' الشديد شدة الزمهرير وقسوته. في حين ناسب صوت 'ألسين' المهموس ليونة السائل. ولا يفوتنا صوت 'أللف' المكرّر مرتين في الوسط والآخر، في تعبيره عن سيولة الماء وليّنه، ولكن يكون الإصرار على صبه لأولئك الطاغين.

(1) أبو زيد: التاسب البياني في القرآن، ص 290-291.

(2) السابق. ومعنى مقلقل: أي فيه قلقلة، وهي من أحكام تجويد القرآن. وهي عندما تكون السكون على الحروف (ق، ط، ب، ج، د) فتنتطق بطريقة مميزة وكأنك تطرق الحرف.

(3) السابق: ص 290-291.

(4) الطبري: مج 7، ص 520.

(5) أبو زيد: التاسب البياني في القرآن، ص 290.

ج- زجرة:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (النازعات: 13). والزجرة هي الصيحة⁽¹⁾. حيث تجمع اللفظة بين ثلاثة أصوات مناسبة في صفاتها لمعنى الصيحة. فـصوت الزاي هو صوت مجهور رخوي مستفل صفيري⁽²⁾. يناسب المرحلة الأولى من صياح متدرج، يبدأ بدرجة أقل قوة، ثم يقوى تدريجياً ويتتابع، حيث المرحلة الثانية القوية يناسبها صوت ألجيم، وقد مرت صفته من شدة وجهر وقلقلة، ثم إن تتابع هذه الشدة يعبر عنها صوت ألراء، وهو صوت التكرير.

د- أغطش:

في قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: 29). وأغطش ليلها أي أظلم ليل السماء⁽³⁾. ولا يخفى أن الليل يطبق بترخ وتدرج على الأرض ويتفشى تدريجياً، وقد عبرت الأصوات في لفظة أغطش أتم التعبير وأبدعه عن هذه المعاني. فـصوت ألغين بصفاته الأنفة من رخاوة وجهر واستعلاء وإصمات، يناسب ذلك الليل المتدرج القادم إلى الأرض بهدوء وصمت. وصوت الطاء المجهور الشديد المطبق المستعلي المصمت⁽⁴⁾، يناسب حركة إطباق الليل على الدنيا، وإحكام قبضته عليها. وأخيراً صوت ألشين المهموس الرخو المتفشي⁽⁵⁾، يناسب حركة تفشي الليل وانتشاره في الأفاق بتدرج وهدوء ورخاوة.

هـ- الصاخة:

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ (عبس: 33). والصاخة: الصوت العظيم، وهو اسم من أسماء يوم القيامة⁽⁶⁾. وهي لفظ ذو جرس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو

(1) الطبري: مج 7، ص 533.

(2) أبو زيد: التناسب الياني في القرآن، ص 290-291.

(3) الطبري: مج 7، ص 537.

(4) أبو زيد: التناسب الياني في القرآن، ص 290-291.

(5) السابق.

(6) الطبري: مج 7، ص 549.

يشق الهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً⁽¹⁾ وهذا المعنى عبّرت عنه الأصوات التي تتضمنها اللفظة تعبيراً دقيقاً ومناسباً. فصوت أَلْصَادُ المطبق المستعلي الصفيري يناسب هذه القوة في الصوت الذي ستحدثه نفخة القيامة. ويتبعه صوت المد أَلْفٌ معبّراً عن تتابع هذا الصوت واستمراره لمدة بدون أي عائق، بل واشتداده أكثر. ويأتي صوت أَلْهَاءُ المهموس الرخو المستعلي ليعبّر عن مرحلة تلاشي الصوت وضعفه إيداناً بتوقفه، فهو يجمع بين الهمس والرخاوة من جهة، والاستعلاء من جهة أخرى.

و- سُعِرَتْ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ (التكوير: 12)، أي: أوقدت مرة بعد مرة⁽²⁾. والأصوات في هذه اللفظة انسجمت مع هذا المعنى أيما انسجام، حيث صوت أَلْسِينُ الصفيري الذي يعبّر عن صوت زفير النار وأزيزها بسبب شدة التوقّد. في حين يعبّر صوت أَلْعِينُ المجهور القادم من وسط الحلق⁽³⁾ عن عمق النار وقوة تسعيرها. أمّا صوت أَلْراءُ وهو صوت التكرير فقد عبّر عن عملية إيقاد تلك النار مرة بعد مرة. وهذا غيض من فيض الألفاظ ذات الدلالات القوية في جزء عمّ التي ناسبتها أصواتها أيما مناسبة.

أصوات الدلالات اليبينة:

أ- مهاداً:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (النبا: 6)، أي بساطاً أو مهاداً لكم تمتهدونها وتفترشونها⁽⁴⁾. ويلحظ أنّ اللفظة اشتملت على أصوات انسجمت مع هذا المعنى الذي ينطوي على الليونة والسهولة والراحة، فهناك صوت أَلِيمٌ وهو صوت مستقل مجهور مذلق يأتي من طرف

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3834.

(2) الطبري: مج 7، ص 557.

(3) أبو زيد: التناصب اليباني في القرآن، ص 290.

(4) الطبري: مج 7، ص 512.

اللسان، وهو من أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحاً وأكثرها امتزاجاً بغيرها⁽¹⁾. وهناك صوت ألفاء وهو صوت مهموس رخو مستفل⁽²⁾. وأرى أن هذين الصوتين متناسبان مع معنى المهاد بما يقتضيه من راحة وليونة، ويساعدهما ألف المد في التعبير عن تنابع هذه الليونة واستمرارها.

ب- ألفافاً:

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾ (النبا: 16). والجَنَاتُ الألفاف هي أشجار البساتين المتنفة المجتمعة⁽³⁾. ولك أن تلحظ كيف عبّرت الأصوات في لفظة ألفافاً عن معنى الالتفاف والاجتماع، حيث ألام صوت يخرج من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان فويق الضاحك⁽⁴⁾، أي في الجزء العلوي للفم، في حين يخرج يخرج صوت ألفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا⁽⁵⁾. والانتقال من مخرج الصوت الأول ألام إلى مخرج الصوت الثاني ألفاء يتطلب لفّ اللسان بحركة قريبة إلى الدوران، وهذا برأيي يتواءم تماماً مع معنى ألفافاً المنطوية على حركة لفّ الأشجار على بعضها، ثم إن تكرّر صوت ألفاء وتجمّعه في اللفظة، فكأنه عبّر عن اجتماع الأشجار وتزاحمها.

ج- رحيق:

في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (المطففين: 25)، إشارة إلى أهل الجنة، والرحيق هو الخمر الصرف لا غشّ فيه⁽⁶⁾. وهذا المعنى ينطوي على راحة ونعيم وتكرار لهذا الفعل، وهو شرب الرحيق المختوم بالمسك، أي عاقبته ونهاية شربه⁽⁷⁾. والأصوات في اللفظة جسدت وناسبت هذه المعاني، حيث ألام وهو صوت التكرير، وبالفصوص مع إدغامه مع النون

(1) أبو زيد: التاسب البياني في القرآن، ص 291.

(2) السابق.

(3) الطبري: مج 7، ص 515.

(4) أبو زيد: التاسب البياني في القرآن، ص 291.

(5) السابق.

(6) الطبري: مج 7، ص 574.

(7) السابق: ص 575.

الساكنة قبله، أدى معنى تكرار سقي الرحيق للأبرار، وألجاء "وهو الصوت المهموس الرخو المستفل عبّر عن حال الراحة والانبساط التي تنتاب الأبرار جرّاء شربهم لهذا الرحيق، وساعد على هذا المعنى صوت المدّ ألياء حيث الاسترخاء والاضطجاع للراحة. وصوت ألقاف الشديد المطبق المجهور قد يظنّ لأول وهلة أنه شاذ في هذا المقام، بيد أنه وبعد التأمل نجد أنه قد عبّر عن الختم والانتهاه وكأنه طريقة تؤذن بالختام، وهو متوائم مع صفة هذا الرحيق بأنه مختوم بالمسك كما مرّ، أو مختوم بطين المسك، أي مطبق عليه ومغلق به، فلا يفضّه إلا الأبرار⁽¹⁾.

د- 'وسق':

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق: 17). ومعنى 'وسق': 'جمع ما سكن وهذا فيه من كل ذي روح كان يطير أو يتحرك في النهار'⁽²⁾. فصوت الواو الشفوي الذي يستدعي ضمّ وجمع الشفتين عن نطقه نراه عبّر عن معنى الجمع في 'وسق'. وصوت السين المهموس الرخوي عبّر عن الهدوء والهمس الذي يناسب طبيعة الليل. في حين صوت ألقاف الشديد المطبق عن استحواذ الليل على من فيه وإطباقه عليه.

هـ- 'نمارق':

في قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (الغاشية: 15)، في إشارة إلى واحدة من متع المؤمنين في الجنة، والنمارق هي: ألوسائد والمرافق. ومفردتها غمرقة⁽³⁾. والوسادة تستدعي الراحة واللين والنعومة، وهذا ما عبّرت عنه الأصوات في لفظة نمارق، حيث صوتا 'النون، الميم' من الأصوات المذلفة وهي من أخف الحروف على اللسان كما مرّ، وأحسنها انشراحاً، ثم صوت المدّ الألف يعزّز هذا التعبير بما فيه من استرخاء وحرية واستمرار، وصوت ألراء المرقق هو الصوت المكرر الذي يعبّر عن خفض العيش ودعته ودوامه. وتأمل توالي هذه الأصوات من مخارجها، وتناسقها كيف عبّر عن صفة الترتيب والصف لهذه النمارق، فهي بحق نمارق مصفوفة واقعاً وأصواتاً.

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 3، ص 99.

(2) الطبري: مع 7، ص 583-584.

(3) السابق: ص 614.

و- الكوثر:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: 1). والكوثر فُسر بتفسيرات عدة، منها أنه نهر في الجنة، ومنها أنه النبوة أو الخير الكثير⁽¹⁾. وقيل أن الكوثر هو ذريته الكثيرة صلوات الله عليه وآله وسلم، بدليل أن الآية التي تلتها هي ﴿إِن شَاءَ فَلَّكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أي المنقطع نسله⁽²⁾، حيث الكوثر بمعنى كثير النسل تقابل الأبر المعلوم النسل. ومهما يكن فإن الكوثر تدل على الكثرة والتتابع والتكرار، سواء أكان ذلك في ماء النهر الجاري، أم في الخير الكثير، أو النبوة، أم في الذرية الكثيرة المتتابعة. ويظهر لي أن الأصوات في اللفظة عبّرت عن معنى الكثرة والتتابع بدقة، حيث صوت الكاف وهو الصوت المهموس الشديد دلّ على اندفاع الخير، فالخير مندفع ولكن ليس ذلك الاندفاع المؤذي، بل هو هامس نافع لأنه خير. وألواؤ، الصوت الشفوي الذي يستدعي ضم الشفتين في نطقه، عبّر عن العناية والإيواء الإلهي لنبيه وتعهده بكل كرامة. وصوت ألشء المهموس الرخو يعبر عن تلك العناية واللين. ويأتي صوت ألراء المكرر وهو الصوت الأميز في اللفظة ليعبر عن الكثرة والتتابع وتكرّر الخير على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

2. التكرار الصوتي

التكرار الصوتي في القرآن الكريم هو جزء من إعجاز النظم فيه، ذلك الإعجاز الذي تتضافر في وجوده مستويات بلاغية ونحوية وصوتية ودلالية، ولهذا الإعجاز في النظم خصائص موسيقية وأصول مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصنير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً، وابتداءً ورداً، وإفراداً وتكريراً⁽³⁾.

وللتكرار الصوتي والتوتر الإيقاعي دور مهم في الكشف عن القوة الخفية في الكلمة⁽⁴⁾. والقرآن الكريم خير مثال على ذلك، فهو كلام الله المعجز في كل شيء، وبالخصوص في بيانه وفي انتقائه للكلمات التي تشتمل على التكرار الصوتي، بحيث تنسجم مع الأجواء التي توضع فيها تمام الانسجام.

(1) الطبري: مج 7، ص 705-706.

(2) الطباطبائي: مج 20، ص 370.

(3) الراعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 218.

(4) أ.ف. تشينشرين: الأفكار والأسلوب: دراسة في النص الروائي ولغته، ترجمة: حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد (د.ت)، ص 50.

وقد رأينا عند تناولنا لموضوع "جرس الألفاظ كيف ناسبت الأصوات المعاني في اللفظة الواحدة، ولكن البحث هنا سيركز على تكرار الصوت الواحد في نسق كامل، أو في سياق مجتمع، تمثله آية، أو مجموعة آيات تصب في موضوع واحد.

ومن أكثر الأصوات تكراراً في جزء عمّ صوت الواو. ومن تمثيلاته اللافنة ما نجده في سورة الضحى حيث يقول المولى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ (الضحى: 1-11). فقد تكرر صوت الواو فيها خمس عشرة مرة: سبع منها كان للعطف، ومرتان للقسم، وست كان فيها حرفاً أصلياً. أهمها وأبرزها أثراً تلك التي أستخدم فيها حرف عطف وقسم. علماً أن صوت الألف تكرر أكثر من صوت الواو في هذه الآيات، إلا أن الواو كما مر صوت شفوي مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة⁽¹⁾، وهي إذا تحركت كانت أقوى كما ورد عن الخليل بن أحمد وابن جني⁽²⁾. وعليه فهو أكثر بروزاً من صوت الألف. وقد حقق صوت الواو في هذه السورة فائدتين: معنوية، وصوتية. فالمعنوية تتمثل في التأكيد على توالي نعم الله سبحانه على رسوله الكريم. والفائدة الصوتية تتمثل بلفت السمع لكل نعمة، وتخصيصها صوتياً كما خصصها معنوياً، وهو الصوت الشفوي المجهور الجاذب.

وهناك تكرار صوت السين في سورة الناس على النحو الآتي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝﴾ (الناس: 1-6). هذا التكرار أعطى دلالة رائعة، حيث السين كما مر صوت مهموس لشوي احتكاكي، يحدث في نطق كثيرين له أن تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا. وجاء اختيار هذا الصوت بصفاته المذكورة منسجماً مع طبيعة الوسوسة، وما فيها من خفوت الصوت، سواء أكانت وسوسة الشيطان في صدر الإنسان، أم وسوسة الإنسان للإنسان.

(1) مناف مهدي، علم الأصوات اللغوية، ص 54.

(2) السابق.

فدلّ صوت السين' بجرسه الاحتكاكي الهامس على تصوير حال الهمس الخفي، وأعانه على ذلك صوت الصاد' الذي يشترك معه في كل خصائصه، ويزيد عليه بالإطباق. ويشترك معه كذلك صوت ألفاء' المهموس الشفوي الاحتكاكي، وصوت ألوا' الشفوي الذي اشترك كذلك في تصوير فعل الوسوسة بتجسيده وتصويره لحركة التحريض الهامس على ارتكاب ما لا ينبغي⁽¹⁾.

وفي سورة النازعات' في آياتها 6-8 وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ﴾، نجد أن تكرار صوت ألراء' الذي تتابع في نطقه طرفا اللسان على اللثة تابعا سريعا، يصوّر بشكل رائع الرعشة التي تصيب الأرض والسماء بفعل القيامة، يساعده صوت ألفاء' وصوت ألجيم' الصامت المجهور اللثوي الحنكي الانفجاري الاحتكاكي المركب⁽²⁾. ويسبقه صوت صائت طويل يبرز تكرار أحرف ألراء' ويعطيها استمرارا أكثر وكثافة موسيقية أغزر. ثم ينقطع النفس، وينغلق مجرى الهواء حين النطق بألجيم'، ثم يفتح مرة أخرى لسمع بنطق ألفاء' الذي يلتقط الصدى من ألراء' ليصوّر بجرسه الاحتكاكي المهموس حال الاهتزاز⁽³⁾.

وفي الآيات الآتية من سورة النبأ، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ: 27-30). فالسياق يندرج في إطار العذاب والتفريع لهؤلاء الكفار الجاحدين والمكذبين بآيات الله. وتكرار صوتي' الكاف' وألباء' لاف' للسمع والنظر في سياق الآيات، فقد تكرر كل من الصوتين ست مرات. وإذا علمنا أن كلا الصوتين هو من أصوات الجهر والشدة، فسندرك مدى مناسبة تكرار هذين الصوتين في هذه السياق الذي يشمل على الشدة والتفريع للكافرين. ومن هذين الصوتين بالإضافة إلى صوت أذال' يتشكل الجذر اللغوي كذب'، الذي ينطوي على السبب الرئيسي لتفريع أولئك الجاحدين المكذبين.

(1) محلة: دراسات قرآنية في 'جزء عم'، ص 161-162.

(2) السمران: علم اللغة، ص 198.

(3) محلة: دراسات قرآنية في 'جزء عم'، ص 162.

3- المقاطع الصوتية

اختلف اللغويون المحدثون في تعريف المقطع الصوتي. ولعل أهم تعريفاته من الجانب الفوناتيكي⁽¹⁾ هي أنه: تتابع من الأصوات الكلامية له حد أعلى، أو قمة إسماع، تقع بين حدين اثنين من الإسماع. أو هو: جزء من تيار الكلام يحوي صوتاً مقطعيًا ذا حجم أعظم، محاطاً بمجزيين أضعف منه أكوستيكياً⁽²⁾. أو أنه: "وحدة من عنصر أو أكثر، تصاحبها نبضة صدرية واحدة"⁽³⁾.

أما الاتجاه الفونولوجي⁽⁴⁾ فيعرف المقطع داخل كل لغة على حدة، لذا فليس عنده تعريف عام للمقطع، حيث كل لغة لها نظامها المقطعي المعين⁽⁵⁾. وأهم تعريفات هذا الاتجاه للمقطع هي أنه: "الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر في اللغات المنبورة، أو نغمة واحدة في اللغات النغمية. أو - حسب ماعرفه دي سوسير - هو: الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها. والتعريف الثالث أنه: وحدة تحتوي على صائت واحد فقط، إمّا وحده، وإمّا مع صوائت بأعداد معينة، وبنظام معين"⁽⁶⁾.

والأصوات، منها ما هو مقطعي، ومنها ما هو غير مقطعي، بحسب السياق⁽⁷⁾. والعربية هي ضمن مجموعة اللغات التي تميز المقطعي من غير المقطعي تمييزاً قاطعاً، بغض النظر عن السياق، حيث الأصوات المقطعية هي الصوائت، وغير المقطعية هي الصوامت⁽⁸⁾.

والمقاطع نوعان: مفتوحة، وهي التي تنتهي بصوت صائت، ومقفلة، وهي التي تنتهي بصوت صامت. والكلمة العربية لا يمكن أن تزيد مقاطعها على سبعة مقاطع، مهما اتصل لها من سوابق 'prefixes' أو لواحق 'suffixes'⁽⁹⁾. والمقاطع في اللغة العربية، إما قصيرة صامت + صائت قصيرة، وإمّا طويلة صامت + صائت طويل، أو صامت + صائت قصير + صامت، وإمّا مقاطع زائدة

(1) من كلمة: phnetique، أي: علم الصوت. دليل الدراسات الأسلوبية، جوزيف شريم، ص 156.

(2) من كلمة: Extase أي: انفعال. المصدر السابق، ص 155.

(3) أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، مطبعة سجل العرب، توزيع عالم الكتب، القاهرة، 1976م، ص 238.

(4) من كلمة: phonostylistique: الأسلوبية الصوتية. دليل الدراسات الأسلوبية، جوزيف شريم، ص 159.

(5) أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 242.

(6) السابق: ص 242-243.

(7) السابق: ص 249.

(8) السابق: ص 250.

(9) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 91.

الطول 'صامت + صامت طويل + صامت' نحو 'واذ بسكون الدال'، أو 'صامت + صامت قصير + صامت + صامت' نحو 'وغذ بسكون الدال'. ولما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة، وكان لكل مقطع سماته الصوتية المتميزة، كان ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معين ذا أثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الداخلية تتناسب والأفكار التي تعبر عنها وتصورها. فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمناً أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة، والعكس صحيح⁽¹⁾.

وفي جزء عمّ استعمل القرآن هذه المقاطع الصوتية استعمالاً فنياً. ولنتأمل هاتين الآيتين من سورة الفجر وهما قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ آلَمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: 19-20)، حيث الآيتان تشتملان على تقريع لفئة من الناس تمادت في تعلّقها بالدنيا، واللّهت وراء شهواتها، وغالت في حبها للمال، وكسبه بأية طريقة على حساب آخرتها. ثمّ ننظر نظرة مقطعية صوتية إلى تلكما الآيتين لنرى إن كانت المقاطع الصوتية فيها وظفت توظيفاً فنياً خدمت المعنى المذكور. والتحليل المقطعي للآيتين هو الآتي: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ آلَمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. وسيوضح لدينا أنّ المقاطع الطويلة استحوذت على هاتين الآيتين، فقد بلغت سبعة عشر 17 مقطعاً من مجموع أربعة وعشرين 24 مقطعاً، أي أكثر من الثلثين. واستخدام المقاطع الطويلة بهذه الكثرة اللافتة في الآيتين ناسب معنى التماذي والمبالغة في حب المال، وأكل التراث وطول الغفلة عن الآخرة.

في المقابل عبّر القرآن في جزء عمّ بالمقاطع الصوتية المقفلة عن العقاب الشديد الذي لقيته الأقوام السابقة التي جحدت آيات ربها وكذبت رسله، فقال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: 13). فالمقاطع المقفلة هنا هي 'صَب' - 'لَب' - 'هَم' - 'رَب' - 'سَوْ' وانسجمت مع معنى الشدة والعقاب. ويكاد هذا التقطيع يبرز لنا كيف ينصبّ عليهم العذاب انصباباً في شدة وعنف وتوالٍ وتكرار⁽²⁾. ونجزء عمّ زاخر بأمثلة لاستخدام المقاطع الصوتية استخداماً فنياً بما يناسب المعاني الواردة في السياق.

(1) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 171.

(2) السابق: ص 175.

4- الفاصلة القرآنية

عرّف الرّمانيّ الفواصل القرآنية بأنها: "حروف متشابكة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"⁽¹⁾. والفاصلة: "هي الكلمة التي تُختم بها الآية من القرآن"⁽²⁾. أو هي: "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر. والتفصيل هو توافق أواخر الآي في حروف الروي، أو في الوزن، مما يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النفوس"⁽³⁾. ودار خلاف بين العلماء حول إمكانية إطلاق مصطلح "السجع" عليها⁽⁴⁾. والفنّة من العلماء التي عارضت ذلك إنما فعلت ذلك بقصد تنزيه القرآن عن السجع، حيث قال الرّمانيّ: "الفواصل بلاغة والأسجاع عيب"⁽⁵⁾. أمّا الباقلاّنيّ فقد فرّق بين الفواصل والأسجاع، ونفى وجود السجع نهائياً في القرآن⁽⁶⁾. وخلص إلى القول: "قَبان بما قلنا أنّ الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الأسجاع، لا يخرجها عن حدّها ولا يدخلها في باب السجع"⁽⁷⁾. ونحمد الحسنّويّ أورد هذه القضية الخلافية بشكل مفصّل في كتابه "الفاصلة في القرآن" وخلص إلى القول: "الحلّ أن يعتبر النصّ القرآنيّ نثراً من نوع خاص، وأن ندرج سجعاته تحت اسم الفاصلة (وجمعها فواصل)"⁽⁸⁾. وأرانيّ أميل إلى ماذهب إليه الباقلاّنيّ، ومن بعده الحسنّويّ. ذلك أن القرآن نسيج وحده في نظمه، فهو كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحاقة: 41-43). ومما يميّز به القرآن من الشعر، أي شعر، أن الحد الأدنى للشعر هو الكلام الموزون عروضياً المقفى، من حيث الشكل، وأن الشعر من وضع البشر، ثم هو خاضع لما يخضع إليه البشر من غلو

(1) الرّمانيّ: النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول

سلام، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968م، ص89.

(2) أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص75.

(3) محمد الحسنّويّ: الفاصلة في القرآن، المكتب الإسلامي، بيروت، ودار عمار، عمان، ط2، 1986، ص29.

(4) انظر: عبدالفتاح لاشين: الفاصلة القرآنية، دار المريخ، الرياض، 1982، ص9-16، وعائشة عبدالرحمن: الإعجاز

البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف القاهرة، ط2، 1984، ص253 وما بعدها.

(5) الرّمانيّ: النكت، ص89.

(6) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص57.

(7) السابق: ص64.

(8) الحسنّويّ: الفاصلة في القرآن، ص92.

في الانفعال والتصور. وليس في القرآن شيء من ذلك⁽¹⁾.

وعن غرض الفاصلة القرآنية وأهميتها يقول عبد الفتاح لاشين: الفاصلة في القرآن لها ميزة هامة، تربط بما قبلها من الكلام، بحيث تنحدر على الأسماع المحذرا، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدا لها، بحيث إذا حذفت لاختل المعنى في الآية، ولو سكت عنها القارئ لاستطاع السامع أن ينجته بها انسياقا مع الطبع، والذوق السليم⁽²⁾.

ويضيف لاشين: ليست فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ وأوزان، بل لها علاقة وثيقة بما قبلها من بقية الآية، ولهذا نجد أنها مستقرة في أماكنها، مطمئنة في مواضعها، غير قلقة ولا نافرة⁽³⁾. ويقول: تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن بقية الكلام، وسميت فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، حيث إن آخر الآية فصل ما بينها وبين ما بعدها، ولعل هذا أخذ من قوله تعالى: ﴿الرَّ كَتَبْتُ أَجْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، ولا يجوز تسميتها قوافي، إجماعا من العلماء؛ لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه⁽⁴⁾.

وروى الجاحظ في البيان والتبيين أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي لم تؤثّر السجع على المثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد⁽⁵⁾.

وعمد القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة البلاغية الصوتية فاستخدمها وبخاصة في السور المكية. وتكاد لا نجد سورة مكية تخلو منه إذ كان الوحي المكي يخاطب العاطفة والشعور، ولما كان أكثر سور جزء عمّ مكية فقد شاعت فيه هذه الوسيلة البلاغية شيوعا واضحا، وتعددت طرائق استخدامه لها⁽⁶⁾. ويجدر أن نشير هنا إلى أن القرآن بمخاطبته العاطفة والشعور، فهو يهدف إلى

(1) الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص 130.

(2) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص 1.

(3) السابق: ص 2.

(4) السابق: ص 6.

(5) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، مكتبة الجاحظ، بغداد، ط 4، 1975 م، ج 1، ص 281-282.

(6) محلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 179-180.

مخاطبة العقل في المقام الأول. ولذلك فهو يتنوع فواصله، ويبين بين أطوالها، فيكسر رتابة التعبير، ويثريه بأنغام موسيقية متنوعة تتحدّر منها موجات النغم، وتنشوع أصداؤه، وتتصاعد درجاته⁽¹⁾. وهو لتحقيق ذلك يعتمد إلى طريقتين، الأولى: الانتقال ما بين أنواع الآيات التي هي قرائن للفواصل، القصيرة فالمتوسطة فالطويلة، ثمّ عودا إلى القصيرة وهكذا⁽²⁾. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَجْعَلُ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا ۝ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّغْيِينِ مَقَابًا ۝ لُئِيْلِينَ فِيهَا أَعْقَابًا ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ جَزَاءً وَفَاقًا ۝﴾ (النبا: 6-26). فالمراحة هنا والانتقال ما بين الآيات قصيرة ومتوسطها وطولها واضح لا يخفى على ذي أذن موسيقية، أو على متأمل فيها. فلنا أن نلاحظ مثلاً التفاوت في الحجم بين كل من الآيات: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾، حيث اشتملت الآية الأولى على سبع كلمات، والآية الثانية على أربع، في حين اكتفت الآية الأخيرة بكلمتين. لكن هذا التفاوت لم يحدث أي نفور صوتي، بل كَوّن انسجاماً صوتياً، سببه هذا التدرج التنازلي في طول الآيات، والذي ربما عكس تدرجاً في المعنى، من مستوى النفي المشدد، إلى الاستثناء الأقل تشدداً، إلى التعليل الهادئ، الذي يأتي إجابة فورية لتساؤل قد ينشأ في ذهن قارئ هذه الآيات حول المسوّغ لمثل هذا العقاب الشديد.

أما الطريقة الثانية، فهي: التصاعد النغمي، وهو أن يستهل بفواصل قصيرة، ثمّ يتبعها بفواصل أطول فأطول⁽³⁾. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَاقًا ۝ وَأَعْنَابًا ۝ وَكَوَاعِبَ

(1) لمحة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 180.

(2) السابق.

(3) السابق: ص 181.

أَتْرَابًا ﴿٣١﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٢﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٣٣﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٤﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٦﴾ (النبا: 31-38). فكم هو واضح التصاعد النغمي في هذه الآيات! حيث استهلّت بـ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، وانتهت بـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. والفرق بينهما واضح من حيث الطول، وقد وقع ما بينهما: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾، حيث هي أطول من الأولى، ولكن أقصر من الثانية. ومثل هذا التدرج في طول الفواصل خلق تصاعدا نغميا له تأثيره في النفس والسمع ولا ريب، وله إسهامته الدلالية المعنوية البلاغية كذلك. فمثلاً التدرج من الآية: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ المتوسطة الطول، إلى الآية: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فضلا على ما فيه من تصاعد نغمي، ففيه كذلك - كما يبدو لي - تصاعد دلالي، تمثل بتوسيع الدلالة لكلمة 'رب' من مجرد رب لفرد 'ربك' إلى رب الكون كله، وإضافة صفة الرحمن إليه، لضم الرحمة إلى الربوبية، وختمت الآية بمقطع ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ الذي أضاف صفة الهيبة إلى الربوبية والرحمة. إلا إنه حين يتوازن الإيقاع ويتقارب، وتكون الآيات متساوية الطول تقريبا وقد تشمل سورة بأكملها مثل سورة الشرح، فإن ذلك لا يخلق أي نوع من الرتابة، وذلك بسبب تنوع الفواصل من حيث آخر حرف فيها، فتراوح بين الكاف للآيات الأربع الأولى، ثم الألف للآيتين اللاحقتين، وأخيرا الباء لآخر آيتين.

أنواع الفواصل القرآنية وتطبيقاتها في 'جزء عم'

الفواصل القرآنية أربعة أنواع: المتوازنة، والمطرقة، والمتوازنة، وأخيرا الترسل. وسنعرض لكل نوع ونسوق بعضا من تطبيقاته في 'جزء عم'، ليتبين مدى إسهام الفاصلة القرآنية في رفق الجانب الأسلوبى والبلاغي في التعبير فيه.

١- الفاصلة المتوازية:

وهي الفواصل التي تتفق فيها الكلمتان في الوزن وحرف الروي^(١). ونجاء عم يمتاز بغناه بالفواصل القرآنية المتوازية، فيما يزيد على الأربعين موضعاً. ذلك إن التوازي يؤدي إلى إثراء التعبير بهذا الرنين الموسيقي المحبب الذي تنشيط له النفس^(٢). ومن التوازي في نجاء عم قوله تعالى في نعيم أهل الجنة: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۖ﴾ (الغاشية: 13-14). وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ (الأنعام: 118) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۖ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۖ﴾ (التكوير: 8-11). ففي الآيات السابقة تبدو الفواصل المتوازية جلية، خلقت إيقاعاً مؤثراً، وتناغماً عجباً، وانسجاماً مع المعاني الواردة جديراً بالتوقف عنده والتأمل فيه. فمن ناحية التناغم فإن اتفاق الكلمات سُئِلَتْ، قُتِلَتْ، نُشِرَتْ، كُشِطَتْ في الوزن والروي قد حقق ذلك بوضوح. ومن ناحية الانسجام المعنوي الموازي للانسجام النغمي، فيظهر لي أن سُئِلَتْ موازية لـ قُتِلَتْ نغماً ومعنى، فقد شكلت الكلمتان سبباً ونتيجة، فالموءدة سُئِلَتْ لأنها قُتِلَتْ. ونجد المقابلة في المعنى بين نُشِرَتْ و كُشِطَتْ توازت مع التقابل النغمي كذلك، ففي الوقت الذي طويت به صفحة السماء بذهابها وكشطها، فإن صحفاً أخرى نشرت في المقابل هي صحف الأعمال.

وفي سورة الانشقاق نلاحظ أربعاً من الفواصل القرآنية المتوازية، خلقت كذلك إيقاعاً متميزاً مؤثراً، وهي ضمن الآيات الآتية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۖ﴾ (الانشقاق: 16-19). فالتأثير النغمي يتمثل باتفاق كل من شفق، وسق، اتسق، طبق في الوزن والروي، مع خروج طفيف لكلمة اتسق من ناحية الوزن. أما التأثير المعنوي الموازي لذلك التأثير النغمي، فيبدو لي أنه يتمثل بالتدرج الزمني من الشفق إلى حلول الليل وإعتامه المعبر عنه بسق، ثم ظهور القمر مرحلة جديدة للنور بعد غياب ضياء النهار. وربما عكس كل ذلك التدرج الزمني تدرج مراحل الإنسان من الحياة الأولى، ثم الموت، ثم الحياة الآخرة.

(١) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص 19.

(٢) محلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 182.

والقرآن لا يقف عند حد التوازي في بعض مواضعه في "جزء عم"، بل يتعداه إلى ما يطلق عليه في الشعر لزوم ما لا يلزم⁽¹⁾، وفي النثر الالتزام⁽²⁾. وهو الفاصلة المضاعفة. ويتعدى القرآن التوازي كذلك إلى بعض المحسنات الصوتية، مثل الفواصل الداخلية ونسق التعبير. ومما وردت فيه الفاصلة المضاعفة زيادة على التوازي، وأحدث جناساً صوتياً بديعاً، قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا آلِثَمِمْ فَلَا تَقَهَّرْ﴾ وَأَمَّا السَّاهِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٩-١٠﴾ (الضحى: 9-10). فلم يكتفَ هنا بتوافق حرف الروي الراء في تقهر، تنهر، بل توافَق الحرف الذي قبله وهو الهاء، وهذا غير ملزم عادة على صعيد الشعر، ولكن نجد بعض الشعراء كابني العلاء المعري صاحب ديوان اللزوميات، يلزمون أنفسهم بما لم يلزمهم به قانون الشعر، لذلك سميت هذه الظاهرة بـلزوم ما لا يلزم، إلا أن القرآن تنزه عن أن تجري عليه قوانين الشعر، إذ إن لكل استعمال فيه سبباً ودلالة. وربما كانت الدلالة وراء التوافق الكبير بين تقهر وتنهر من الناحية الصوتية، هو ما تنطوي عليه اللفظتان من معانٍ سلبية متشابهة تتمثل بالقسوة واللوم.

ومما برزت فيه الفواصل الداخلية بوصفها محسنات بديعية قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَتْنَةُ﴾ (اليته: 1). فلنا أن نلاحظ الجناس الناقص بين مشركين، منفكين في ثانيا تلك الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٌ﴾ (الهمزة: 1). واشتملت أيضاً على جناس ناقص بين همزة، لمزة. وتظهر الآية أحياناً على نسق آية سابقة في ترتيب الكلمات وعددها مع اتفاق الفواصل فيها، كقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ تَقَابُلَ تَحْبُونِ، أَكَلًا لَمَّا﴾ وَتَحْبُونِ أَكَلًا حُبًّا جَمًّا ﴿١٩-٢٠﴾ (الفجر: 19-20)، فتأكلون تقابل تحبون، والتراث تقابل المال، وأكلًا تقابل حبًّا، ولماً تقابل نجماً. ونجد نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٤-٥﴾ (العاديات: 4-5).

(1) أحمد الهاشمي: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، المكتبة التجارية الكبرى، ط6، 1966م، ص140.
(2) طاش كبري زادة: مفتاح السعادة ومصباح الزيادة، تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، د.ت، ج2، ص518.

ب- الفاصلة المطرقة:

هي: "أن تتفق الكلمتان في حرف الروي، لا في الوزن"⁽¹⁾. وقد مثل لهذا النوع في جزء عمّ عدد من الآيات، نحو ما نجد في سورة الفيل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ترميهم بحجارةٍ من سجيلٍ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (الفيل: 3-5)، حيث تشابه الروي وهو حرف اللام في الفواصل أبابيل، سجيل، مأكول، ولكن اختلف الوزن؛ فـ "أبابيل" على وزن "مفاعيل"، و"سجيل" على وزن "فَعِيل"، في حين أنّ "مأكول" على وزن "مفعول". ونجد كذلك في سورة التين في آياتها الثلاث الأولى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ و﴿هَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. ولك أن تلاحظه كذلك في سورة الطارق، في آخر آيتين منها: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ و﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ زُوْدًا ﴿(الطارق: 15-17).

ويلفت محمود لحلة، في موضوع الفاصلة المطرقة، إلى ما سمّاه التشابه المقطعي؛ حيث الفواصل التي لا تتفق في الوزن تتفق في أكثر المقاطع، ويقع التمايز بينها في مقطع واحد غالباً، لتحقيق التنوع النغمي⁽²⁾. ويضرب على ذلك مثلاً من سورة النبأ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ و﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (النبأ: 27-28). فمع أن القريتين تنتهيان بلفظين مشتركين في الروي بدون الوزن، لكنّ هناك نوعاً من التناسب والتشابه المقطعي. فـ "حساباً" تتكون من "مقطع قصير + مقطع طويل + مقطع طويل"، أمّا "كذاباً" فتتكون من "مقطع طويل + مقطع طويل + مقطع طويل". فالاختلاف بين الفاصلتين يكون في المقطع الأول فقط، وهو اختلاف طفيف كما يقول لحلة، ثمّ يجتم ملاحظته بقوله: "ولعلّ هذا يفسّر عدول القرآن الكريم عن استخدام المصدر الشائع للفظه كـ "كذب" وهو "تكذيب" واستخدام "كذاباً" بدلاً منه"⁽³⁾. وهذا الرأي الذاهب إلى أنّ القرآن يعدل إلى استعمال لفظ دون آخر، أو يقدم ويؤخر، بغية مراعاة الفاصلة القرآنية، له من مخالفه، بل يحمل عليه بشدة. وستتطرق إلى هذه القضية في ختام تناولنا لموضوع الفاصلة القرآنية، ونبين رأينا فيها، لأن لها مساساً كبيراً وأكيداً بأسلوب التعبير القرآني، ومدى تفرده وتمييزه من كلام البشر.

(1) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص 19.

(2) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 185.

(3) السابق: ص 185-186.

ج- الفاصلة المتوازنة:

وهي "أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط"⁽¹⁾. والفاصلة المتوازنة لها فائدتها الجمالية، فإذا كان اتفاق الوزن والروي في بعض الفواصل يعطي هذا الشراء الموسيقي الذي أشرنا إليه، فإن الاحتفاظ بالوزن والتخلي عن الروي في بعض الأحيان يكون له من الحسن مثل سابقه، إذا حدثت المروحة بينهما⁽²⁾. وقد مثلت لهذا النوع من الفواصل مجموعة من الآيات في الجزء. منه ما يطالعنا في سورة الطارق: ﴿وَالسَّيَّءَ وَالطَّارِقَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۖ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۖ﴾ إن كل نفس لها عليها حافظ⁽³⁾ (الطارق: 1-4)، إذ تضمنت الآيات 2-4 الفاصلة المتوازنة. فـ الطارق، الثاقب، حافظ كلها على وزن واحد هو فاعل، ولكن الروي آخر الحروف فيها يختلف كما هو واضح. ولقد ذلك أيضا في سورة القارة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۖ﴾ (القارة: 4-5).

د- الترميل:

هو عدم التقيّد بوزن ولا بروي في الفواصل⁽³⁾. وهو أقل السمات ظهورا في جزء عم. ولكن هذا الاختلاف في كل من الوزن والروي معاً يعوّضه التشابه المقطعي الذي ذكره محمود نخلة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۖ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ﴾ (النبا: 9-12). ففي أواخر الكلم في هذه الآيات يختلف الوزن والروي، ولكن تشابه المقاطع حيث كل الفواصل نباتا، لباسا، معاشا، شدادا تتكون من مقطع قصير + مقطع طويل + مقطع طويل مع اختلاف الروي ت، س، ش، ذ، والوزن فعالا، فعالا، فعالا. ومثل هذا الانضباط في المقاطع أغنى كثيرا عن وحدة الوزن والروي كما هو ظاهر. وخلاصة القول، بعد هذا التناول السريع للفاصلة القرآنية في جزء عم، إن الفاصلة المتوازنة التي تتحقق باتفاق في الوزن والروي كانت هي السائدة في هذا الجزء، مما يجعلنا نتوقف عند

(1) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص 19.

(2) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 183-184.

(3) السابق: ص 187.

الأثر الأسلوبى لهذه الفواصل الثلاث، وما لها من تأثير في نفوس السامعين، ومعرفة إلى أي حد أسهمت هذه الفواصل، وخاصة المتوازية منها، في تميز الجزء من الأجزاء القرآنية الأخرى، وتفرد به بينها.

علاقة الفاصلة بالسورة والمقطع:

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، أن للفاصلة علاقة بجو السورة، وهو أنواع، نلاحظ منها في "جزء عم" تعلق الفاصلة بمضمون السورة، كما هو في سورة "الكافرون" التي تبرز الفرق بين المؤمنين والكافرين، وأنه لا يمكن الالتقاء ما دام الدين مختلفاً، فكانت الخاتمة الحاسمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 6) ⁽¹⁾. وقد تتعلق الفاصلة موسيقياً بجو السورة، وهذا ما نجده في كل من سور المطففين، الأعلى، الشمس، الليل، التين، الماعون، القدر، العصر، الفيل، الكوثر، الإخلاص، الناس ⁽²⁾.

أما عن علاقة الفاصلة بالمقطع، فيبدو جلياً في سورة الفجر، التي تنوعت فواصلها بتنوع المشاهد والمواضيع فيها، فبدأت بخمس آيات تنتهي بحرف الراء، ثم تسع آيات تنتهي ثمانية منها بحرف الدال وواحدة بالباء. ثم آيتان تنتهيان بحرف النون وقبله متحرك. وهكذا تنوع فواصل هذه السورة الكريمة. ويقول سيد قطب معلقاً على هذه الظاهرة: "السورة نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني، ويبدو فيها تعدد نظام الفواصل، وتغير حروف القوافي، بحسب تنوع المشاهد" ⁽³⁾.

تأثير الفاصلة القرآنية:

للفواصل القرآنية بأنواعها الثلاثة تأثير إيجابي جلي على صُعد عدة. يقول عبد الفتاح لاشين: "الفاصلة لها أثر في نسق الكلام، واعتدال المقاطع، وتجعل موقعه حسناً في النفوس، وتؤثر فيه تأثيراً لا ينكر، وتناسب الأطراف، وتماثل الحروف، مما يريح السامع، ويجذب انتباهه" ⁽⁴⁾. وكلام

(1) الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص 293.

(2) السابق: ص 294.

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3902.

(4) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص 22.

لاشين' هذا يركز على الفاصلة المتوازية. لكن ماذا عن النوعين الآخرين؟ وما تأثيرهما؟ ونجد إجابة لذلك عند باحث آخر، إذ يقول: 'دقات الساعة المتوالية حين تبدأ أو تتكرر الدقات يعيشها السامع، ولما كان تكرار الدقات يتبع نظاما معينا، فإن السامع يتوقع أن تتكرر الدقات بذلك النظام نفسه في المستقبل، وقد يكون هذا التوقع أو الانتظار شعوريا، وقد يحتمل شبه الشعور، دليل ذلك أنه إذا توقفت الساعة عن العمل كان توقفها سببا في لفت نظرك إليها، والبحث عن أسباب توقفها، ومعنى ذلك أن حدوث الأشياء بنظام مخالف لما نتوقع يحدث في أنفسنا شيئا من الدهشة والاضطراب، وهذا هو عينه التعليل النفساني لما يحدث من ارتياح عند الاستماع إلى الموسيقى الصوتية المنسجمة، أو إلى الشعر الموزون، وإلى الثر المسجوع⁽¹⁾.

إذاً فهدف الانتقال من الفواصل المتوازية إلى الفواصل المطرقة والفواصل المتوازنة هو إثارة انتباه السامع، وإخراجه من غفلة استرساله مع الفواصل المنسجمة، تلك التي، مع أنها تريحه وتجذب روحه وعاطفته، إلا إنها قد تقيد عقله عن تلمس المعاني الكامنة وراء ذلك الانسجام، فتأتي الفواصل المطرقة والمتوازنة لتخرجه من تلك الحال إلى حال الانتباه ومتابعة المضمون، وعادة ما يكون مضمونا جديدا يستدعي تغييرا في الفاصلة، ذلك أن أغلب مجموعات الفواصل المنسجمة تجدها تتناول موضوعا واحدا، ثم تظهر فواصل جديدة بظهور موضوع جديد⁽²⁾.

إسهام فواصل 'جزء عم' في تميزه.

أسهمت فواصل 'جزء عم' في تميزه، إلى حد كبير، وذلك من جوانب عدة، أهمها:

- 1- التنوع اللافت للفواصل داخل السورة الواحدة في 'جزء عم'، مع قصر السور، وهذا يحقق إيقاعات مختلفة متباعدة تعكس تأثيرات متباعدة في نفوس السامعين كذلك، مما يجعل 'جزء عم' بحق ذا تأثير متميز على النفس، والأذن البشرية، بين سائر الأجزاء؛ وذلك لأن معظم سورته تنتمي إلى المرحلة المكية الأولى، التي كانت تتطلب جذب انتباه السامعين، والتأثير فيهم عاطفيا وعقليا عند أول استماع لتلك السور المبكرة، وهذا ما حدث فعلا، وخصوصا لدى أناس عُرِفوا بالفصاحة، تؤثر فيهم الكلمة العربية الموزونة، المنسجمة مع غيرها، المنظومة بدقة.

(1) حامد عبدالقادر: دراسة في علم النفس الأدبي، القاهرة، ص 86، دن.

(2) انظر لاشين: الفاصلة القرآنية، ص 48.

- ب- التنوع اللافت للفواصل تبعاً للانتقال من سورة إلى أخرى، وهذا يحقق الهدف نفسه من توخي شدّ الانتباه، وجعل كلّ سورة في الجزء متميّزة، بالرغم من تماهيا مع الطبيعة العامة للجزء في مستويات عدة، وإسهامها في رسم معالمة المفردة.
- ج- استحواذ نوع الفاصلة المتوازية على الجزء، مع تقارب الفواصل في معظم سورة، جعل منه منظومة إيقاعية مفردة مؤثرة ميزته من سائر الأجزاء القرآنية.

ومما يؤكد تميز "جزء عم" بفواصله القرآنية، وأنها تشكل ملمحاً أسلوبياً مهماً فيه، هو الاهتمام الكبير بها من قبل مفسر معاصر مثل "سيد قطب" حظي بمكانة كبيرة بين الدارسين، وخصوصاً فيما يتعلق بالجانب التصويري والصوتي في القرآن، فنجد الحسنائوي⁽¹⁾ في معرض تناوله لإسهامات المحدثين في موضوع الفاصلة القرآنية، يذكر أن "قطب" توفّر على الفاصلة أكبر التوفّر في "جزء عم" بالذات، وربط -أي قطب- الفاصلة بسياقها في المقطع والسورة والجزء والقرآن بأسره، لما لها من الأهمية. وتوسّع في تطبيق إيقاعات الفواصل الحسية العنيفة والغامضة والرخية. وأبرز ظاهرة التناسق، لا سيما التناسق الموسيقي والنفسي والفكري للفظة الفاصلة، وحروفها، وقريبتها المتنوعة الطول، من خلال ظاهرة التكرار⁽¹⁾. وهو لم يركّز على "جزء عم" بالذات إلا لما وجد من تميزه بالفاصلة أكثر من غيره من الأجزاء القرآنية الأخرى.

قضية مراعاة الفاصلة:

هذه القضية أثارت جدلاً ونقاشاً كبيراً بين العلماء المختصين بالدراسات القرآنية. ومفادها: هل يغيّر القرآن نسق تعبيره مراعاة للفاصلة القرآنية؟ أي هل يزيد وينقص من ألفاظه، أو يقدّم ويؤخر، أو يؤثر لفظاً على لفظ، مراعاة لتناسب وتوافق الفواصل فيه؟

ألفراء هو أول من ناقش هذه القضية في كتابه "معاني القرآن"، حيث يتخذ هذا العالم من رعاية الفاصلة - في مقام أول - وسيلة ترجيح لبعض القراءات القرآنية، فحول قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ كُنَّا عِظَمًا خَيْرَةً﴾ (النازعات: 11)، يقول ألفراء: "حدثني مندل عن مجاهد عن ابن عباس أنه قرأ ناخرة، وقرأ أهل المدينة نخرة. وناخرة أجود الوجهين في القراءة، لأن الآيات بالآلف. ألا ترى أن

(1) الحسنائوي: الفاصلة في القرآن، ص 67-68.

ناخرة والحافرة، والساهرة أشبه بمجيء التنزيل، والناخرة والنخرة سواء في المعنى بمنزلة الطامع والطمع والباخل والبخل⁽¹⁾.

وحول قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: 4)، قال: «وقد قرأ القراء يسري بإثبات الياء ويسر' بحذفها. وحذفها أحب إليّ لمساكلتها رؤوس الآيات، ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها. أنشدني بعضهم:

كفّاك كفّ ما ثلّيقُ درهماً جوداً، وأخرى تُعطى بالسيفِ الدّما

وانشدني آخر:

ليس تخفي يساري قذّر يوم ولقد تُخفّ شيمتي إيساري⁽²⁾

في مقام ثان يذهب هذا العالم إلى القول إن القرآن يعتمد أحياناً إلى الحذف إذا سوّغ ذلك دليل سبقت دلالاته على المعنى، بغية اتفاق رؤوس الآيات. ويضرب على ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: 3). ويعلّق على تلك الآية قائلاً: «وما قلاك، فألقيت الكاف كما تقول: قد أعطيتك وأحسنّت. ومعناه: أحسنت إليك. فتكتفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى، ولأنّ رؤوس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه⁽³⁾.

في مقام ثالث يرى القراء في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة: 1) أنّ المصدر أضيف إلى صاحبه رعايةً للفاصلة، كأن يقول الإنسان: لأعطينك عطيتك، وهو يريد: لأعطينك عطية⁽⁴⁾.

(1) الفراء، يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط3، 2001م ج3، ص231.

(2) السابق: ص260.

(3) السابق: ص273-274.

(4) السابق: ص283.

ويرى محمود لمحلة أن الفراء في ملاحظاته تلك لم يقرر مطلقاً أن القرآن قد يعدل عن نسق إلى آخر، أو يؤثر لفظاً على غيره، مقصداً إلى المشكلة بين رؤوس الآيات⁽¹⁾ لذا استنكر محلة هجوم عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ على الفراء لفهمها الخطأ - على حد قول محلة - لكلامه. وعائشة عبد الرحمن في كتابها الإعجاز البياني في القرآن ردت على الفراء، وحاولت تنفيذ رأيه القائل بأن القرآن يغير تعبيره مراعاة للفاصلة القرآنية، وهذا يستدعي أن يكون التغيير أحياناً على حساب المعنى الدقيق والخاص. وقد ناقشت كثيراً من استشهاده في هذا المجال، ويئت خطاها، ومن ذلك آية سورة الفجر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ التي يقول الفراء فيها أن ياء العلة حذفت من يسري لمشكلة رؤوس الآيات، فقد ردت عليه بقولها: ويكفي للرد على من ذهبوا إلى حذف الياء في آية الفجر لرعاية الفاصلة أن نلفت إلى أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذفها هنا في مقاطع الآيات، ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية الفواصل، وتماثل رؤوس الآيات، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر، وواوه أيضاً، وياء المنقوص مضافاً ومعرفاً بال، في أواسط الجمل ودرج الكلام⁽²⁾. واستشهدت بنت الشاطئ على ما قالت بمجموعة من الآيات القرآنية تبين أن الحذف كان أحياناً في وسط الآيات وليس آخرها، وهذا من شأنه أن يفند الرأي القائل أن الحذف يكون لمراعاة الفاصلة القرآنية في آخر الآية⁽³⁾.

ونجد أن محمود لمحلة وافق عائشة عبد الرحمن في بعض ما ساقته من استشهادات قرآنية دعمت بها رأيها. ولكنه خالفها في بعضها، ورآه استشهداً غير جائز؛ لأن الحذف فيه لالتقاء الساكنين⁽⁴⁾. غير أن محلة المنتصر للفراء يرى أن هذا الأمر لا يستحق العناء من بنت الشاطئ لأنه - بحسب رأيه - لا صلة له بالمعنى. ويرى أن حذف الباء أو الواو في الآيات التي استشهدت بها لا يؤثر في المعنى بشيء، ومن ثم يسقط الاحتجاج بما تقول⁽⁵⁾. وعزز محلة تأييده للفراء بأن ساق شاهداً قرآنياً هو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۖ نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾ (القارعة: 9-11)، حيث يرى أن هاء السكت زيدت على ماضي في الآية رعاية للفاصلة، وتحقيقاً للنسق

(1) محلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 190.

(2) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن، ص 251.

(3) انظر السابق: ص 251-252.

(4) محلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 190-192.

(5) السابق: ص 192.

الموسيقي دون أي تأثير في المعنى^(١).

وفي خضمّ هذا الجدل أراني أميل إلى الرأي الذي ينص على أنه لا مراعاة للفاصلة في القرآن على حساب المعنى. وهو الرأي الذي تبنته مجموعة من الدارسين أمثال عائشة عبد الرحمن وغيرها. ففي الاستشهاد الذي ساقه 'الفراء' من سورة 'النازعات': ﴿أَوَذَّا كُنَّا عِظَمًا خَيْرَةً﴾، وروى عن ابن عباس أن القراءة بـ'ناخرة' هي الأجود لأنها تراعي الفاصلة القرآنية، وجعل هذا مدعاة لترجيح هذه القراءة خلافا للقراءة الشائعة بـ'نخرة' مستندا إلى أن 'نخرة' و'ناخرة' في معنى واحد. أرى أن هذا الكلام تنقصه الدقة. ذلك أن 'نخرة' تقدم معنى خاصا ودقيقا مناسباً للآيات لا تقدمه لفظة 'ناخرة'. فـ'نخرة' صفة مشبهة تستدعي ملازمة الصفة للموصوف و دوامها، في حين أن 'ناخرة' اسم فاعل لا ينطوي على استمرار الصفة وملازمتها للموصوف. وبما أن الكلمة جرت على لسان المنكرين للبعث في الآية فهم يقولون: ﴿أَوَذَّا كُنَّا عِظَمًا خَيْرَةً﴾، فالأنسب أنهم يستعملون الصفة المشبهة، حيث عظامهم 'نخرة'، والنخر صفة ستبقى ملازمة لها أبداً، لأنه لا بعث ولا نشور سيغير حالها ويخرجها من هذه الصفة على حدّ زعمهم. فهذا استعمال قرآني دقيق معجز ربما لم يلتفت إليه 'الفراء' ولا 'محمود نخلة'. وليس أدلّ على ذلك من أن القراءة بـ'نخرة' هي القراءة الشائعة وهي جارية على الألسن، فيها نزل القرآن. وإلا لو كانت اللفظتان في معنى واحد كما يتصور لشاعت القراءة بـ'ناخرة' بحكم مناسبتها للفاصلة.

أما قول 'الفراء' إن 'كاف' الخطاب ألقيت من الفعل 'قلّى' في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ مراعاة للفاصلة، لأنه دلّ عليها دالّ سابق هو 'كاف' الخطاب في 'وددك'، فذلك قول قد نعوزه الدقة أيضاً، ذلك أن حذف 'كاف' الخطاب من 'قلّى' لم يكن الباعث إليه - فيما أرى - مراعاة الفاصلة، بل ربما حذفت لإكرام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حيث المقام في سورة 'الضحى' كلها هو مقام التكريم والنعمة والإرضاء للرسول الكريم. و'قلّى' معناها: هجر وجفى، فحذفت 'كاف' الخطاب الدالة على رسول الله من هذا الفعل حتى لا يحدث أي اتصال ولو على مستوى الاستعمال اللغوي بين فعل ينطوي على الجفوة والهجر فاعله 'الرب' سبحانه، وبين الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. أمّا اقترانها - أي 'كاف' الخطاب - مع الفعل 'ودّع' فكان مقبولا من باب أن

(١) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 192.

وَدَعُ لا تحمل ما تحمله قُلُوبُ من تلك المعاني السلبية المذكورة، بل قد يودّع الإنسان من يحبه ويحترمه إذا اضطرته ظروف لذلك. ولأنه بدأ به، كان لا بدّ من ضمير الخطاب معه.

وكلام الفراء حول إضافة المصدر إلى صاحبه في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وتعليقه أن ذلك وقع لمراعاة الفاصلة، فنرى أنه تعليل غير دقيق أيضاً، حيث إن الإضافة هنا تقتضي معنى خاصاً دقيقاً لا تقدمه كلمة زُلْزَالٌ وحدها بدون إضافتها إلى الأرض. فلو كانت الآية على نحو: إذا زلزلت الأرض زلزالاً، لما عنت كلمة زُلْزَالٌ هنا يوم القيامة بالتحديد، بل أي زلزال، ولكن بالإضافة إلى الأرض كما هو حاصل في الآية فقد حصرت الإضافة الزلزال يوم القيامة، كما يظهر. وبناء على ما تقدّم نجد أن القرآن لا يلجأ إلى تغيير في تعبيره من حذف أو زيادة أو تقديم أو تأخير، وغيرها من أنساق الكلام مراعاةً للفاصلة، مما يستدعي بناء على ذلك الزعم تخليه عن معنى خاص دقيق لا يناسب السياق غيره. لكن الأمر هو أن القرآن الكريم يجتمع فيه تقصّيه للمعنى الدقيق العميق، مع وجود فواصل متوافقة منسجمة بعضها مع بعض، ومنسجمة مع المعنى المراد في الوقت نفسه. وهذا من إعجاز القرآن الذي لا يكون في غيره. فهو كلام الربّ الحكيم العالم اللطيف سبحانه. على أننا في الوقت نفسه لا ننكر دور تعدد القراءات القرآنية في تعدد المعاني، وإظهار قدرة القرآن التعبيرية، لكن ليس هو التعدد الذي يقوم بالأساس من أجل مراعاة الفاصلة.

الفصل الرابع

المستوى التركيبي البلاغي للجمل القرآنية في "جزء عم"

توطئة:

لغة مستويان من الأداء: المستوى المثالي: وهو الذي يقوم على النحو وقواعده في بلورة عناصره، وعلى اللغة في تأليف تلك العناصر، حيث يقدم صورة مثالية كاملة للغة، فإذا لم تسعفه هذه العبارة الظاهرة الفعلية تطوّر بتقدير هذه الصورة⁽¹⁾.

والمستوى الثاني هو المستوى الإبداعي: الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها⁽²⁾ بما أطلق عليه الانزياح أو الانتهاك أو العدول. وفي هذا المستوى يحدث الإبداع والابتكار والتجديد، وهو الفضاء الذي يخلّق به علم البلاغة العربية، الذي يقوم على مقولتين: الأصل المثالي، ثمّ الانحراف عنه⁽³⁾.

والمستوى التركيبي هو أحد مستويات التحليل الأسلوبي، وهو يتمثل بدراسة الأشكال اللغوية المنحرفة على صيغة أو شكل لغوي منطقي يكون في درجة الصفر من التعبير⁽⁴⁾. وستتناول مظاهر الانزياح والعدول التي لها أثر دلالي ووظيفة فنية تغني النص، وتضفي عليه اللمسة الإبداعية، وهي:

(1) عبدالحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة خايمي، القاهرة، 1980م، ص 191-192.

(2) محمد عبدالمطلب: البلاغة والأسلوبية، ص 198.

(3) عبدالحكيم راضي: نظرية اللغة، ص 210.

(4) حمادي صمود: الوجه والقفاء في تلازم الحداثة والتراث، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م، ص 99-100.

التقديم والتأخير:

وهو بؤرة مباحث الأسلوب الدائرة حول التركيب، ويكتسب هذا المبحث أهمية خاصة من حقيقة أنه يخضع للطابع الخاص بها فيما يتعلق بترتيب الأجزاء داخل الجملة فيها⁽¹⁾. حيث هو مرآة لإظهار ترتيب المعاني في النفس⁽²⁾. فالكلمات: تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس⁽³⁾. وهو تحوّل في بنية الجملة نحو إعادة ترتيب المفردات وتركيبها في الجملة على نحو يرتبط أسلوبياً وفكرياً بالمنشئ... وترمي الأسلوبية إلى فحص النص الأدبي في تراكييه اللغوية للكشف عن القيم الجمالية التي تكمن خلفها، والاختيار في النظرة الأسلوبية كذلك إما أن يكون خاضعاً لإرادة المنشئ، أو واقعا لا خيار فيه له⁽⁴⁾. وعليه فإن عملية التقديم والتأخير في مستواها النحوي وداخل العملية الإسنادية، تدخل في إطار الانزياح في النحو في التداول الأسلوبي، من حيث إنه خرق للنمط المألوف لتركيب الجملة العربية. ولكن يكون الانزياح في مستواه النحوي عدولا عن البنية السطحية لا العميقة، لأن الثانية فرض ذهني غير مرتبط بالاستعمال، عكس الأولى المرتبطة به. وبناء على هذا الكلام فيمكن القول إن الأسلوب هو انزياح عن قاعدة الاستعمال اللغوي، لا انزياح عن القاعدة الذهنية التصورية⁽⁵⁾.

وهناك ملمح إبداعي وراء التقديم والتأخير، يؤدي إلى تغيير موقع الكلمة داخل السياق، وفي هذا الشأن يقول فندريس: إن ذلك في غاية الدقة، ويتطلب حساً لغوياً مدرباً، ولطفاً عالياً في الذوق الأدبي، يضاف إليه معرفة نادرة بالظروف الفيلولوجية للغة المدروسة⁽⁶⁾. واللغة العربية زاخرة بظاهرة التقديم والتأخير. وذلك لأنها من اللغات التي لا تأخذ فيها الكلمة صفتها النحوية اعتماداً على موقعها، بل اعتماداً على الإعراب. لذا كانت الكلمة حرة في

(1) عبدالحكيم راضي: نظرية اللغة، ص 211.

(2) خليل عمارة: في نحو اللغة وتراكييها: منهج وتطبيق، دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر، عالم المعرفة، جدة، 1984م، ص 88.

(3) عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإيجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 40.

(4) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 276-277.

(5) السابق، ص 188.

(6) ج فندريس: اللغة، تحرير: عبدالحميد الدواخلي وزميله، مكتبة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950، ص 188.

حركاتها داخل الجملة⁽¹⁾. ومع ذلك فإنّ هناك رتباً لترتيب الكلمات في الجملة: فالفعل عادة يتقدّم على الفاعل، والمبتدأ على الخبر، وهكذا⁽²⁾. ولا يعدل عن هذه الرتب إلا لما يراد من معنى خاص يدخل في إطار البلاغة والإبداع. يقول سيبويه³ عن العرب في هذا الشأن: "يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بشأنه أعمى، وإن كان جميعاً يهملهم ويعنيانهم"⁽³⁾.

واهتمام البلاغيين برتب الكلمات في الجملة يختلف عن اهتمام النحويين بها، ففي الوقت الذي يهتم النحويون بالرتبة من حيث كونها أحد عناصر التركيب المثالي في الأسلوب اللغوي المعتمد على النحو التقعيدي، فإنّ البلاغيين يهتمّون في الرتبة ما يكشف عن مدى العدول عنها وكيفية ذلك العدول، والذي ينطوي على نزعات نفسية تصبغ فعل التخاطب، كتشويق السامع، أو التفاؤل، أو التلذّذ⁽⁴⁾. أو أحياناً الاختصاص⁽⁵⁾. أو التفخيم وحسن الذوق واللياقة⁽⁶⁾. وحول هذا يقول "عبد العزيز عتيق": ليس شيء من أجزاء الكلام في حد ذاته أولى بالتقدم من الآخر، لأن جميع الألفاظ من حيث هي ألفاظ تشترك في درجة الاعتبار، وهذا بعد مراعاة ما تجب له الصدارة كألفاظ الشرط والاستفهام. وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخير له لا يرد اعتباراً في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي، أو داع من دواعيها⁽⁷⁾.

ولأهمية التقديم والتأخير في إبراز الجانب الإبداعي في الخطاب من حيث إنه أقوى أسباب العدول، فقد نال اهتماماً واسعاً من البلاغيين⁽⁸⁾. وعلى رأسهم الجرجاني، حيث يقول فيه: "هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّر عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راق لك، ولطف عندك أن قدّم به شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"⁽⁹⁾.

(1) رمون طحان: الألسنة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م، ج2، ص11.

(2) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص201.

(3) سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخفاجي، القاهرة، ط3، 1988، ج1، ص35.

(4) عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص201.

(5) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي: مفتاح العلوم، القاهرة، 1937م، ص96.

(6) أحمد الشايب: الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط6، 1966م، ص197.

(7) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، 1974، ص149.

(8) انظر: حميد العامري: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996م، ص12-51.

(9) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص83.

والغالب على 'جزء' عمّ هو الترتيب الاعتيادي للكلمات في سياق جملها، الاسمية منها والفعلية، حيث المبتدأ يتقدم على الخبر، والفعل على الفاعل، وهو ما يمكن أن نطلق عليه التزام الرتب في إنشاء الجملة. على أن الجزء كذلك لم يخلُ من مواضع ظهر فيها التقديم والتأخير البلاغي لأغراض متعددة. ويجدر بالذكر أن النظم القرآني هو منتهى البلاغة، سواء في ترتيبه الاعتيادي للكلمات، أم فيما ظهر فيه التقديم والتأخير، ذلك أن النظم هو توخي معاني النحو، والنظم هو البلاغة. ودراستنا تقوم على تتبع الظواهر اللغوية التركيبية، سعياً للوصول إلى تحليل وفهم للخطاب القرآني الكريم. وليس المقصود هو إظهار أن مواضع قرآنية معينة في 'جزء' عمّ هي البليغة دون غيرها. فكل القرآن هو بليغ ومعجز في بيانه ونظمه ولا ريب.

أ- تقديم المسند إليه:

المسند إليه والمسند هما الركنان الأساسيان في الجملة، يقوم عليهما المعنى. والمسند إليه هو المخبر عنه⁽¹⁾. وله صور عدة في السياق العربي، هي: الفاعل، نائب الفاعل، المبتدأ الذي له خبر، ما أصله مبتدأ وخبر أي: (اسم كان وأخواتها، اسم إن وأخواتها، المفعول الأول للفعل ظنّ، المفعول الثاني لأرى وأخواتها)⁽²⁾.

ومن أمثلة تقديم المسند إليه في 'جزء' عمّ قوله تعالى في كل من المواضع الآتية: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 24). ﴿وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (المطففين: 27). ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: 3). ﴿وَجُودٌ يَوْمَيزِ نَاعِمَةً﴾ (الغاشية: 8). ﴿قُلُوبٌ يَوْمَيزِ وَاجِفَةً﴾ (النازعات: 8). ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: 42). ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدْعُ آلَيْتِيْمَ﴾ (الماعون: 2). ونلاحظ في كل الأمثلة السابقة أن المسند إليه هو المبتدأ. وقد تقدّم لأغراض متعددة منها:

1. لأن تقديمه هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه؛ لكونه محكوماً عليه فيكون مقدماً في الذهن. ويتقدم كذلك ما كان أصله مبتدأ، مثل اسم إن للغرض ذاته، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ آلِنَسْنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: 6). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ آلِنَسْنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: 2).

(1) حميد العامري: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص 56.

(2) السابق: ص 57-58.

2. التشويق: كما في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ فالقول: وجوه يومئذ... يشوق السامع إلى معرفة حال هذه الوجوه. فتأتي ناعمة لتبيل ظمأه. والأمر نفسه في قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.
3. التوبيخ: كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، فيظهر لي أن تقديم المسند إليه أولئك إلى جانب أن تقديمه هو الأصل، فهو ينطوي كذلك على توبيخ وإهانة للكفار أصحاب الوجوه السوداء المغبرة، كما أوضحت الآية السابقة لهذه الآية. والأمر نفسه وراء تقديم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾.
4. التعالي: كما في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، فيبدو لي أن فرعون في حقيقة الأمر لا يهمنه أن يكون لقومه رب، ولكن يهمنه أن يكون هو الرب لهم، فنراه احتكر هذا الأمر وقصره على نفسه، فتقدم المسند إليه أنا لإظهار التعالي والخيلاء في نفس ذلك المسرف الظالم.
5. التخصيص: وذلك عندما يكون المسند إليه مسبوقاً بنفي، ويكون الخبر فعلاً، وما في معناه، كاسم الفاعل واسم المفعول⁽¹⁾. ونجد ذلك في 'جزء عم' في قوله تعالى: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ﴾. فالمسند إليه ألتاء المتحركة مسبوقه بنفي ليس، والخبر 'بمضيطر' هو اسم فاعل بما معنى الفعل، فيكون تقدم المسند هنا للتخصيص. ويفيد نفي هذا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإثباته لله تعالى⁽²⁾.

ب- تقديم المسند:

والمسند هو المخبر به أو المحكوم به⁽³⁾. ويأتي على صور عدة، هي: الفعل التام، اسم الفعل، خبر المبتدأ، ما أصله خبر المبتدأ: (خبر كان وأخواتها، خبر إن وأخواتها، المفعول الثاني لظن

(1) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني)، دار الفرقان، عمان، ط9، 2004، ص222.

(2) السابق: ص223.

(3) العامري: التقديم والتأخير في القرآن الكريم. ص92.

وأخواتها، المفعول الثالث للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل)، المصدر النائب عن فعل الأمر⁽¹⁾.
والمسند يتقدم لأغراض منها:

1. الأهمية. ومن ذلك قوله تعالى في المواضع الآتية: ﴿أَزْوَاجًا وَخَلَقْنَاهُمْ﴾ (النبا: 8).
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (الشمس: 11). ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر: 1). ﴿يَشْهَدُهُ
الْقُرْبُونُ﴾ (المطففين: 21). ونلاحظ في كل الأمثلة السابقة أن المسند وهو الفعل قد تقدم
على المسند إليه وهو الفاعل أولاً: لأن أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه اعتماداً على
الرتبة. وثانياً: - وهو الأهم في رأيي - هو غرض الأهمية. إذ أن الأهمية تتجه إلى الخلق
بجد ذاته في الآية ﴿أَزْوَاجًا وَخَلَقْنَاهُمْ﴾ قبل اتجاهها إلى كون خلق الناس أزواجاً، فتقدم المسند
وهو الفعل خلق على فاعله المسند إليه. وفي الآية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾، فالأهمية هي
ليان التكذيب من ثمود، لا لثمود نفسها، فتقدم فعل التكذيب على فاعله. والأهمية في
﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ هي لبيان الإلهاء الذي سببه التكاثر، لا للتكاثر بعينه، فنراه قدّمه. والأمر
نفسه في قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْقُرْبُونُ﴾، فالأهمية في هذا المقام تتجه نحو بيان الشهادة من
المقربين، لا للمقربين أنفسهم، فقدم المسند يشهد.

2. القصر والتوكيد والاختصاص: كقوله تعالى في المواضع الآتية: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ
شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 37). ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (الغاشية: 12). ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ
الْفَجْرِ﴾ (القدر: 5). ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (البلد: 20). وأخيراً: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
مَّسَدٍ﴾ (المسد: 5). ونلاحظ أن تقديم المسند وهو الخبر في كل الأمثلة السابقة قد أفاد القصر
الذي هو من أساليب التوكيد⁽²⁾، حيث إن العين الجارية هي مقصورة على تلك اللجنة العالية
وخاصة بها، والسلام بمستوى من المستويات مقصور على ليلة القدر وهو من مزاياها دون
غيرها من الليالي، والنار مقصور لإصاها على الكفار، وحبل المسد مقصور على حمالة
الحطب وخاص بها.

(1) العامري: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص 92-93.

(2) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 262.

3. التشويق: كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ﴾ (عبس: 40)، في هذه الآية تقدمت شبه الجملة الخبر عليها على المبتدأ غبرة، لتشويق القارئ إلى معرفة حال وجوه الكفرة، حيث تتقدم الجملة "وجوه يومئذ عليها.." ثم تأتي كلمة غبرة نتيجة⁽¹⁾.

ج- تقديم المفعول به:

1. تقديم المفعول به على الفاعل:

ولم نقع إلا على موضعين له في جزء عم، هما قوله تعالى: ﴿إِذْ تَادُّنُهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طَوًى﴾ (النازعات: 16). وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (النازعات: 25). حيث تقدم في الموضع الأول المفعول به وهو الضمير المتصل بالفعل تاداه على الفاعل ربه، لقاعدة نحوية مفادها أنه إذا أمكن اتصال الضمير فلا يؤتى به منفصلاً⁽²⁾. وفي الموضع الثاني تقدم المفعول به، وهو الضمير المتصل في أخذه للمسوخ نفسه. وبما أن البلاغة هي توخي معاني النحو، فالتقديم هنا ينطوي على بلاغة ولا ريب.

2. تقديم المفعول على الفعل والفاعل معاً:

وذلك في كل من الآيات الآتية: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النبأ: 29). ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا﴾ (النازعات: 30). ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾ (النازعات: 32). ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ (عبس: 20). وأخيراً: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّابِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ﴾ (الضحى: 9-10).

ونلاحظ في كل الآيات السابقة كيف تقدم المفعول به على الفعل والفاعل معاً. والأغراض البلاغية من وراء هذا التقديم للمفعول متعددة، سنناقش بعضها فيما يأتي. فقليل بعضه لرعاية

(1) إبراهيم عقله الحجاج: جزء عم: دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة مؤتة، الأردن، 2006م، ص14.

(2) يقول ابن مالك: وفي اختيار لا يميء المنفصل إذا تأتى أن يميء المتصل. ابن عقيل، بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: طه محمد زيني، مكتبة محمد صبيح، القاهرة، 1965، ص185.

الفاصلة⁽¹⁾، ولا يلتفت إليه كما قال فضل حسن عباس⁽²⁾. ففي قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾⁽³⁾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾⁽⁴⁾ (الضحى: 9-10). في الآيتين استفهام تقريرى باستخدام همزة الاستفهام، وهو تأكيدى ينطوي على من⁵ وفضل من الله على رسوله، فكان من المناسب والمتوائم مع السياق أن تستخدم الأداة فأما⁶ الرابطة، بعد الاستفهام ﴿أَلَمْ تَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوَى﴾⁽⁷⁾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾⁽⁸⁾ (الضحى: 6-7). وبما أنه استخدمها فقد سوغ ذلك تقديم المفعول به على الفعل والفاعل، بل أوجب ذلك، فلا يمكن أن تكون الجملة: فأما لا تقهر اليتيم، لأن أما لا يمكن أن يتبعها فعل مضارع منفي، ولكن يتبعها اسم بلا إشكال. ويبدو لنا أن تقديم المفعول هنا فضلا على أن له مسوغا نحويا، فقد انطوى أيضا على غرض بلاغي؛ هو إظهار أولوية اليتيم بعدم القهر على غيره، لأنه فاقد للآب أو للآم أو للآئتين معا، وذلك أدعى إلى الحنان والعطف عليه. وفي المقابل قهره لا يتأتى إلا عن قسوة شديدة في القلب. وكذلك فإن السائل أولى الناس بالأيتيم، ذلك أنه محتاج، ودفعته الحاجة لإراقة ماء وجهه وإهدار كرامته بذل السؤال، فهو في حال نفسية ومادية يرثى لها، لا تحتل بعد ذلك النهر والجفاء، وبناء على ما سبق ربما كان الغرض البلاغي هنا هو الإبراز والأولوية أو التخصيص كما يرى فضل عباس⁽³⁾. ومن هنا ندرك أن التقديم في الآيتين السابقتين لم يكن رعاية للفاصلة كما ذكر بعض الدارسين⁽⁴⁾.

أما الغرض من تقديم الأرض في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا﴾، فهو - فيما أرى - المقابلة مع السماء، التي قدمت أيضا في السياق السابق للآية المذكورة، وهو قول المولى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾، فالسما هنا تقدمت في السياق، لا على أنها مفعول به مقدم على الفعل والفاعل، بل لأنها كانت من أركان الجملة الاستفهامية: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾، ثم دل عليها الضمير في بناها⁷ لذا فكان من المناسب أن تتقدم الأرض في سياقها كما

(1) انظر عبدالفتاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1999م، ص169.

(2) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني، ص243.

(3) السابق: ص243.

(4) عبدالفتاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن. ص169.

تقدمت السماء، ولكن تقدم الأرض أخذ صورة تقديم المفعول به على الفعل والفاعل. هذا من جهة التناسب والمقابلة، أما من جهة المعنى البلاغي، فتقديم الأرض دلّ على التخصيص بعملية الدحو. وعليه فيظهر لي أن الدحو ليس هو مجرد جعلها كروية، بل إضافة إلى ذلك جعلها صالحة للعيش عليها، وهذا مقصور على الأرض وحدها من بين الكواكب الأخرى، وإلا فإن الدحو لو كان بمعنى التكوير فهو أصابها وأصاب غيرها من الكواكب، فلا تخصيص لها بناء على هذا المعنى المحدود. ويؤكد هذا المعنى ما أورده الزمخشري في الكشاف في تفسيره لهذه الآية؛ حيث فسّر دحاهها بقوله: دحاهها بسطها ومهداها للسكنى.. بما لا بد منه من تأتي سكنها من تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها والسكون....⁽¹⁾

أما تقديم كل شيء في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾، فيبدو لي أن الغرض من ورائه التأكيد على الإحاطة والشمولية، وهي أولى من تقديم أحصينا، لأن السياق هنا يندرج تحت إطار إظهار القدرة الإلهية، وهذا لا يكون بمجرد الإحصاء، الذي يشترك فيه الخالق مع المخلوق، ولكن يكون بشمولية الإحصاء وإحاطته؛ بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

د- تقديم الجار والمجرور والظرف:

وهذا يغلب أن يكون في جمل الماضي المثبتة، ومثل هذا التقديم يكون عادة لإبراز المقدم ليقع في نفوس المخاطبين، ويذعنوا له⁽²⁾.

ويلحظ أن ظاهرة تقديم الجار والمجرور هي السائدة هنا بالمقارنة مع تقديم الظرف، الذي سيمثل بشاهد واحد هو قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا﴾ (النازعات: 30). كما ويلحظ أن الجار والمجرور، أو الظرف، في الغالب لا يتقدمان على كل أجزاء الجملة فيبدأ بهما، بل يتقدمان على أجزاء داخل الجملة، وعادة ما يكون هو المفعول به، كما هو في قوله تعالى في كل من المواضع القرآنية الآتية: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (النبأ: 14). ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ (الشرح: 2). ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (عبس: 27). ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(1) الكشاف: ج4، ص215.

(2) لمحة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص274.

(المطففين: 14). ولم يحدث أن تقدّم الجار والمجرور على كل أجزاء الجملة في جزء عم إلا في ثلاثة مواضع، هي: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (عبس: 19). ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: 8). ﴿عَلَىٰ آلَٰرَائِكَ يَنْظُرُونَ﴾ (المطففين: 35).

وكان غرض التقديم في كل ما سقناه من شواهد قرآنية هو إبراز المقدم كما مرّ، ولكنّ هذا الإبراز قد يتفرّع إلى معانٍ خاصة مختلفة، لا بأس أن نضيء بعضها توخياً للفائدة، وتحريماً للغرض البلاغي الدقيق وراءها. ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، فيبدو لي أنه قدّم الجار والمجرور من المعصرات للفت الأسماع والعيون إلى السحاب المتراكم في السماء بما يمثل الرهبة ويجسّد القدرة الإلهية، أو حتى لا يذهب الذهن إلى ماء آخر غير ماء الغيث الذي ينزل من السحاب. وربما للإشارة إلى القدرة وإلى النعمة في آن معاً، فالقدرة متمثلة بتشكيل السحب، والنعمة متمثلة بإنزال الماء منها، والقدرة تسبق النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فأرى أنه قدّم الجار والمجرور على قلوبهم لأنّ الأهمية هنا للقلب الذي هو محط الإيمان وعدمه، وعطأ أثر الصالحات أو السيئات، فهو مرآة تعكس ما بداخلها على حياة الإنسان. وليست الأهمية للعمل السيئ الذي اكتسبوه بحذاته، بل بمدى تأثيره على قلوبهم.

أمّا تقديم الجار والمجرور من نطفة على كامل الجملة في قوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾، فيبدو لي أن الغرض منه التحقير والتقليل، وساعد على ذلك تنكير نطفة وهو ما سنبينه في باب التنكير والتعريف لاحقاً.

الحذف والذكر:

سنستخدم مصطلح الحذف اتباعاً لما درج عليه غالب الدارسين من القدامى والمحدثين، لثلاث يتوهم أنا تناول موضوعاً مختلفاً. وإن كنا نفضل استعمال مصطلح عدم الذكر بدلاً منه، لأنه الأنسب في مقام القرآن الكريم. المقصود بالذكر هنا هو ذكر الكلمة، سواء أكانت مسنداً إليه أم

مسنداً، مع قيام قرينة دالة عليه تجوز حذفه، ويكون ذلك لفرض بلاغي⁽¹⁾. أما الحذف فهو: إسقاط الكلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام⁽²⁾. وهو يعتري الجملة والمفرد والحرف والحركة⁽³⁾. وينبغي أن يقع في ما لا يختل به المعنى بالحذف. يقول ابن جني: "إن الحذف لا يكون إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"⁽⁴⁾. وبعض المحدثين يقسم المحذوفات إلى محركات وواصلات. ويقصد بالمحركات الأسماء والأفعال، بغض النظر عن وظيفتها، أساسية كانت أم ثانوية. أما الواصلات فيقصد بها الحروف والأدوات، باستثناء ما قام منها بوظيفة أساسية في التركيب⁽⁵⁾. وللحذف دور في تكريس ما يسمّى في الدرس الأسلوبى الاتساق النحوي؛ وذلك باستخدام الأدوات الاتساقية التي يربط فيها منشئ النص بين عرى النص وجمله، وهي تعد ظاهرة أسلوبية يجري توظيفها على مستوى النص⁽⁶⁾.

وقد حظي هذا الباب باهتمام القدماء، ومما قيل فيه ما ورد عن الجرجاني: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين. وربّ حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"⁽⁷⁾. ويبيّن محمد عرفة ذلك الحسن الذي يحققه الحذف، والتي لم يذكرها الجرجاني في معرض كلامه الأنف. يقول عرفة: "فالمحذوف تدلّ عليه قرائنه، فإذا ذكر كان ثقیلاً في موضعه، لأنه تعريف لما عُرّف، وبيان لما بُيّن، وإذا حُذف رُفعت المؤونة عن السامع بذكره، ورُفعت الكلفة التي تكون عليه عندما يسمع حديثاً معاداً، أو كلمة لم يجد فيها فائدة جديدة، فالكلمة الخالية من الفائدة كالثقل تؤذى العين بوجوده، فإذا لم تبصره في موضع كان يتوقع وجوده فيه، وجدت لذلك من الأنس والمحبة ما يغمر القلب سروراً"⁽⁸⁾.

(1) لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص 145.

(2) الرماني: النكت، ص 70.

(3) ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: الخصائص، تحقيق محمد علي التجار، المكتبة العلمية، ج 2، ص 360.

(4) ابن جني: الخصائص، ص 360.

(5) محمد الهادي الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشوقيات، الجامعة التونسية، 1984م، ص 303-304.

(6) أبو العدوس: الأسلوبية: الروية والتطبيق، ص 236.

(7) الجرجاني: دلائل الإيجاز، ص 105-109.

(8) محمد عرفة: مشكلة اللغة العربية، ص 86.

ويضيف "عبد الفتاح لاشين" معللاً حسن الحذف كذلك: "إن في الحذف ما يشغل الفكر، ويعمل في تحديد المحذوف ومكانه، فالمعاني بعد أن كانت تأتي من الألفاظ اشترك العقل في الدلالة عليها والإشارة إليها⁽¹⁾."

هذا وقد بسط الزركشي القول في فوائد الحذف، فذكر له ستاً من الفوائد منها التفخيم والإعظام، وطلب الإيجاز والاختصار، والتشجيع على الكلام، وغيرها⁽²⁾.

ويلاحظ فيما سبق من كلام في تعريف تلك الثنائية الأسلوبية الحذف والذكر أن التركيز الأكبر كان منصباً على الحذف أكثر منه على الذكر، حتى أن الزركشي لم يذكر الأخير في كتابه البرهان، واعتنى بظاهرة الحذف، بل أسهب في تفصيلها وإيضاحها وإيراد الشواهد عليها⁽³⁾. وقد يعلل ذلك ما سقناه من كلام محمد عرفة و"عبد الفتاح لاشين" في بيان جمالية الحذف وفائدته، الأمر الذي لم يكن للذكر منه إلا حظ قليل.

أولاً: الذكر

من أمثلة الذكر في جزء عم قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ۚ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ﴾ (عبس: 17-19)، حيث إن "خلقه" الثانية هي فعل يجوز حذفه أو ذكره من الناحية اللغوية، لأن هناك قرينة دالة عليه وهي جملة الاستفهام السابقة: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ﴾ فلو كان الجواب: "من نطفة فقدره" لجاز، وكان واضحاً، ولكن القرآن ذكر الفعل "خلقه"، وكرره، ليؤكد خالقية الله سبحانه للإنسان، وليهسي - فيما أرى - للفعل اللاحق "فقدره". فكان الذكر في محله، وأدى دوراً بلاغياً ولغوياً في آن معاً. ويلحظ كذلك أن اللفظة المكررة "خلقه"، مرة جاءت ضمن أسلوب إنشائي هو الاستفهام "من أي شيء خلقه؟"، ومرة جاءت ضمن الأسلوب الخبري "من نطفة خلقه فقدره"، وذلك أحدث توازناً ما.

(1) لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص 151.

(2) انظر الزركشي: البرهان، ج 3، ص 104-105.

(3) السابق: ص 103 وما بعدها.

ونجد الذكر كذلك في قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾

وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ (عبس: 38-40)، وهنا ذكر القرآن يَوْمَئِذٍ الثانية، بالرغم من وجود قرينة دالة عليها هي يَوْمَئِذٍ الأولى. لذا جاز حذفها أو ذكرها. ولكن القرآن ذكرها فيما يبدو لي لغرض بلاغي؛ هو زيادة التنبيه إلى ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ونرى أن الذكر في أحد مستوياته يتقاطع مع التكرار اللفظي، كما مرّ في تكرار الفعل 'خلقه' في سورة 'عبس'. والتكرار والذكر يقدمان الغرض البلاغي نفسه في كثير من الأحيان.

ثانياً: الحذف 'عدم الذكر'

من أنواعه المتحققة في 'جزء عم': حذف المسند إليه، وحذف المسند، وحذف المضاف، وحذف الموصوف، وحذف الصفة، وحذف المفعول به، وحذف الجار والمجرور. ولكل نوع من الأنواع السابقة أغراضه البلاغية، وتوظيفاته الفنية. والقرآن الكريم هو المنتهى فيها وغاية الكمال، وستتناول فيما يأتي كل نوع على حدة، ونسوق له الشواهد الموضحة، ونقف في ختام الموضوع على بعض الأغراض البلاغية التي قام البحث عليها.

أ- حذف المسند إليه:

يحذف المسند إليه لأغراض عدة^(١). كان عدد ما رصدناه في 'جزء عم' منها خمسة، هي:

1. الاحتراز عن السأم والعبث: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾

(القارعة: 10-11)، يعلق 'عبدالفتاح لاشين' على هذا الحذف قائلاً: 'ندرك هذا إذا تأملنا الفرق بين هذا الأسلوب الموجز وبين أن يقال: وما أدراك ماهيه. هي نار حامية. من الإسراع إلى ذكر النار، بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها'^(٢).

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿١٠﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿١١﴾ نَارُ اللَّهِ

(١) لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص 150، وما بعدها.

(٢) السابق: ص 151.

الْمَوْقَدَةُ ﴿٥﴾ (الهمزة: 4-6)، فأرى أنه أسرع إلى ذكر النار، وحذف الضمير المنفصل "هي"؛ احترازا عن السام.

2. كون المسند لا يصلح إلا له: كقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: 8)، ذلك أن الإلهام للنفس وهدايا التجدين لا يكون إلا من الله سبحانه، فلا يصلح المسند ألهم هنا إلا للمسند إليه المحذوف، وهو الله سبحانه، حيث هو الفاعل. كذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْمُوءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ (التكوير: 8)، فالسائل هو المولى عز وجل، وما يدل عليه من لفظ محذوف، لأن المسند سُئِلَتْ لا يصلح إلا له.

3. ضيق الصدر: ونجده متحققا في قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين: 13)، فكما يبدو لي حذف المسند إليه المبتدأ وهو الضمير "هي"، فلم يقل: "هي أساطير الأولين" على لسان الكافر، لأنه ضائق صدره بآيات الله سبحانه.

4. احتقار من هو في حكم المسند إليه: ونلاحظه في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (النازعات: 42)، فحذف الفاعل للفاعل "يسألونك" وهو الكفار؛ إذ هو مفهوم ضمنا، واكتفى بأن أشار إليهم بالضمير المتصل "وار الجماعة"؛ وذلك تحقيرا لهم فيما أرى. والكلام نفسه في: ﴿يَقُولُونَ أَيُّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ (النازعات: 10).

ب- حذف المسند:

وقد سبق تعريف المسند وتبيان صوره في الكلام. و هو كذلك يُحذف لأغراض عدة، لم نجد منها في جزء عم إلا غرض التحذير، وهو في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (الشمس: 13)، فهناك فعل محذوف تقديره أحذروا، حذف لأن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير^(١).

(١) الزركشي: البرهان، ج 3، ص 105.

ج- حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه:

وهو كثير في القرآن عموماً وفي جزء عمّ خصوصاً. قال ابن جني أن منه زهاء ألف موضع. وهو في غالبه يدخل في باب المجاز⁽¹⁾. ومن ذلك قوله تعالى في المواضع القرآنية الآتية: ﴿وَجَاءَ رُؤُكَ وَآلَمَلِكُ صَفًا صَفًا﴾ (الفجر: 22)، أي جاء أمر ربك⁽²⁾. ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات: 40)، أي اتباع الهوى. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ (النازعات: 42)، أي وقت الساعة⁽³⁾. ﴿وَجَعَلْنَا الْهَآرَ مَعَاشًا﴾ (النبا: 11)، أي ذا معاش⁽⁴⁾. وقوله: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: 2)، أي يتلو مضمونها⁽⁵⁾. وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: 8)، أي عن شكر النعيم⁽⁶⁾. ومثله كثير في جزء عمّ.

د- حذف الموصوف:

ويشترط فيه أمران: أن تكون الصفة خاصة بالموصوف. وأن يعتمد الموصوف على مجرد الصفة من حيث هي؛ لتعلق غرض السياق⁽⁷⁾. أي أن السياق يكتفي بذكر الصفة دون الموصوف؛ لأن الغرض متعلق به، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 95)، حيث اكتفى هنا بذكر الصفة دون الموصوف، فلم يقل: والله عليم بالعباد الظالمين، أو الناس الظالمين. لأن الغرض وهو العلم متعلق بالظلم فيهم، لا بمطلقهم. ولجئ ذلك في جزء عمّ في قوله تعالى في كل مما يأتي: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (النبا: 24)، أي ماء بردًا. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ (النبا: 24)، أي كلامًا.

(1) الزركشي: البرهان، ج 3، ص 146.

(2) السابق: ص 148.

(3) عز الدين عبدالعزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي: مجاز القرآن، تح: مصطفى محمد الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999م، ص 19.

(4) السابق: ص 470.

(5) السابق: ص 476.

(6) السابق: ص 477.

(7) الزركشي: البرهان، ج 3، ص 154.

(35)، أي لا يسمعون قولاً لغوا ولا قولاً كذاباً. ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: 38)، أي قال قولاً صواباً. ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (النازعات: 1)، أي والملائكة النازعات. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (النازعات: 25)، أي نكال الكلمة الآخرة؛ وهي قوله: أنا ربكم الأعلى. ونكال الكلمة الأولى؛ وهي قوله: ما علمت لكم من إله غيري⁽¹⁾. فحذف الموصوف وهو الكلمة وأبقى صفتيها وهما الآخرة، الأولى. ونجزء عمّ زاجر بهذا النوع من الحذف، نكتفي منه بما مر.

وأرى أنّ حذف الموصوف في كل ما مضى كان غرضه البلاغي تركيز الاهتمام على الصفة، وهذا يشبه عملية التقريب بالمجهر، حيث يُترك الشيء كلّهُ ويُقَرَّبُ جزء منه ويُكَبَّرُ للتركيز عليه دون الأجزاء الأخرى، لأنّ المطلب ينحصر فيه. وهو في الوقت نفسه يحقق الإيجاز. والبلاغة هي الإيجاز كما قيل.

هـ- حذف الصفة:

ويمثل ذلك في جزء عمّ قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بُحْبُهَةٌ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (الفجر: 23)، أي: وآلى له الذكرى المفيدة. وعلّق صاحب تفسير كنز الدقائق في ذيل هذه الآية قائلاً: أي منفعة الذكرى لئلا يناقض ما قبله⁽²⁾. ومثله قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلْيَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَقَابِلًا﴾ (النبا: 39)، أي مآباً حسناً. فحذف الصفة لأنه ربما اعتبر المآب هو المآب الحسن حسب، وكان السيئ ليس مآباً.

وحذف المفعول به: وهو كثير جداً في جزء عمّ، حيث أحصينا منه قرابة العشرين موضعاً، منها قوله تعالى في كل من المواضع الآتية: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ (البروج: 13)، أي يبدئ الخلق ويعيده. ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ خَشِيَ﴾ (الأعلى: 10)، والمقصود: من يخشى الله سبحانه.

(1) الطبري: التفسير، مج 7، ص 536.

(2) محمد بن محمد رضا بن إسماعيل القمي المشهدي: تفسير كنز الدقائق، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1413 هـ ج 11، ص 350.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (الفجر: 23)، أي يتذكر أعماله أو الإنذار له في الدنيا. ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: 24)، أي ياليتني قدمت عملاً صالحاً لحياتي. ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (النازعات: 23)، والمقصود: فحشر السحرة من كل صوب، ونادى الناس للمشاهدة.

ويبدو لي أن حذف المفعول في أغلب الشواهد السابقة كان غرضه الإيجاز. كون المفعول به المحذوف مفهوماً ضمناً، وفي السياق ما يدل عليه. نحو قوله: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، حيث المفعول المحذوف هنا وهو عملاً مفهوماً ضمناً، ويدل جوف السياق عليه. فالكلام على لسان الإنسان الذي سيقدم إلى يوم الحساب خالي الوفاض من الصالحات التي تنجيه، فيتمنى أن لو استعد لمثل هذا اليوم، وأكثر من فعل تلك الخيرات. وهذا المعنى بدهي ينبع به مجمل السياق. فسوّغ ذلك حذف المفعول به. وربما أفاد الإطلاق، أي قدمت أي عمل صالح، وهو ينطوي على حث على التقديم للأخرة والاستعداد لها، بغض النظر عن ماهية العمل المقدم صغيراً أم كبيراً. وربما سوّغ عدم ذكر المفعول في مواضع أخرى ما سبق ذكره في موضع آخر من القرآن. نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾. فعرفنا أن الحشر كان للسحرة لأنه صرح بها في موضع سابق، هو قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ﴾ (الشعراء: 36-37).

ز- حذف الجار والمجرور:

والجزء كذلك زاخر بهذا النوع من الحذف، فقد وقفنا على أكثر من ثلاثين موضعاً له، منها قوله تعالى في كل من المواضع القرآنية الآتية: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى: 17)، أي أبقى من الدنيا. ﴿وَأَمَّا مَنْ نَحَلَ وَاسْتَفْتَى﴾ (الليل: 8)، أي استغنى عن كسب الأجر. ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 27)، أي يغنيه عن شأن غيره. ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (الغاشية: 23)، أي تولى عن الحق. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق: 15-16)، أي يكيدون

للإسلام وللمسلمين. وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح: 7)، أي فانصب في حاجتك إلى ربك، أو فانصب في الدعاء والعبادة⁽¹⁾.

وحذف الجار والمجرور في معظمه كان الغرض منه الإيجاز، كما هو الحال في حذف المفعول، نحو قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فالمعنى مفهوم ضمنا أنهم يكيدون للإسلام، فكان من الإيجاز والبلاغة حذف الجار والمجرور. وأحيانا يكون الغرض هو الإطلاق وعدم التقييد، نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ أَلْتَكَاثُرُ﴾ (التكاثر: 1)، أي الهاكم التكاثر في الأموال والأولاد والخيال وكل شيء من متاع الدنيا. فكان الغرض من حذف الجار والمجرور هنا هو إطلاق كلمة ألتكاثر وعدم تقييدها بنوع محدد، لتدل على عموم التكاثر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فهو إيجاز وعدم تقييد في آن معا، فالإيجاز أن المعنى مفهوم ضمنا أنه أبقى من الدنيا، أما عدم التقييد فهو في إطلاق أبقى حيث هي أبقى من الدنيا ومن كل حياة أخرى يتوهمونها.

ونختتم بالقول إن الحذف ظاهرة أسلوبية شائعة وبارزة جدا في جزء عمّ، وهي إحدى مزاياه. والحذف فيه ينطوي على أغراض بلاغية، وتوظيفات فنية، في غاية الجمال والدقة، أسهمت في رسم أسلوب التعبير فيه إسهاماً جلياً. ويجدر القول إن الحذف في القرآن الكريم لا يفهم منه أن المحذوف كان واقعاً ثم حذف. ومثل هذا الفهم يقودنا إلى الهجوم على فكرة الحذف كونها تنتقص من التعبير القرآني بشكل من الأشكال. لكن مصطلح الحذف مبني على افتراض وجود المحذوف، مع الإدراك أن وجوده المفترض هو خلاف البلاغة والرقى التعبيري، لذا فإن الكمال التعبيري في عدم وجوده، وهو ما يعبر عنه بالحذف، إشارة إلى تدخّل الحس البلاغي وترجمته حركياً.

التعريف والتنكير:

ليس لأحد طرفي ثنائية التعريف والتنكير أفضلية على الآخر، فلكل توظيفه الخاص، فإذا كان التعريف في أحد توظيفاته تحديداً للدلالة، وبياناً لدقة ما ترمز إليه بتشكيلاتها المختلفة، فإن التنكير يمكن أن يكون تعميقاً بمنح البنية مقدرة على العطاء المتجدد المتواصل الذي يشري الدلالة

(1) الطبري: التفسير، مج 7، ص 657.

متجاوزاً المتعارف عليه، وقد يحدث العكس، ومرّة ذلك إلى مقدرة المبدع على الخلق والابتكار، كما أن تعدّد وسائل التعريف قرين بثناء الدلالة، كما يمكن أن تقدّمه هذه الوسائل التعبيرية من معانٍ وإيجاءات⁽¹⁾.

وقد لفتت أهمية هذه الثنائية انتباه القدماء، وحظيت باهتمامهم؛ نظراً إلى حضورها في الأسلوب العربي، ووظيفتها البلاغية الفنية، فأولوها عناية في كتاباتهم، ومنهم "سيبويه" والجرجاني⁽²⁾.

أولاً: التعريف

هو: التمييز، هو الأفراد، هو التخصيص بعد التعميم، هو أن يكون شيء ما محدداً بين المتكلم والسامع فيدور حوله الكلام، هذا يتحدث عنه وذلك يفكر فيه، وهو نفسه يفرض نفسه على المتكلم والمخاطب⁽³⁾. وما عليه السلف هو وجوب تعريف المسند إليه. إذ بدون تعريفه وتعيينه لا يمكن أن يُعتدّ بما يحكم عليه. لأنّ هدف التعريف هو إفادة المخاطب وربطه بالمعنى، لذا فإنّ فكرة تعريف المسند إليه تتجاوز الأثر النحويّ إلى إبراز الأثر الدلالي بمستوياته الإبداعية⁽⁴⁾. وستتناول المعرفة بأقسامها المتعددة، ونقف على بعض تطبيقاتها القرآنية في "جزء عمّ سعياً إلى توضيح توظيفها الفني الإبداعي الذي أسهم في بلورة الأسلوب القرآني وتميّزه.

أ- الضمير:

للضمير فائدة كبيرة في الربط المحكم بين أجزاء الجمل، ويعين على الإيجاز، كما أنّ له ذلك الدور في تغيير المعاني النحوية. ويضيف التعبير القرآني إلى الضمير وظائف أخرى تنطوي على ثراء تعبري فني مهم⁽⁵⁾. ومن ذلك:

(1) سعد أبو الرضا: في البنية والدلالة: رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، دار المعارف، الإسكندرية، 1987م، ص153.

(2) انظر: سيبويه: الكتاب، ج 1، ص22؛ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص136 وما بعدها.

(3) سعد أبو الرضا: في البنية والدلالة، ص153.

(4) السابق.

(5) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص206.

1- حذف المعاد: إذ لا بدّ من الضمير المتصل في اللغة العربية من معاد مرجع يعود إليه. وتعليل ذلك نجدّه عند ابن يعيش حيث يقول: "وذلك لأنك لا تضمّر الاسم إلّا بعد تقدّم ذكره، ومعرفة المخاطب على من يعود ومن يعني، أو تفسير يقوم مقام الذكر، ولذلك استغنى عن الوصف"⁽¹⁾. ونجد ميزة حذف المعاد للضمير القرآني في جزء عمّ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَؤِنَّا لَمَرُدُّوُونَ فِي الْحَاوِرَةِ﴾ (النازعات: 10). قال ابن عاشور فيها: "والضمير في يقولون مراد به المشركون للعلم بالذين كتى عنهم بالضمير في هذا المقام"⁽²⁾. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ (النبا: 40). المعاد المحذوف هو الكفار، وقد دلّ عليه المقام. وكذا في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خُلِقَهُ﴾ (عبس: 18)، حيث الضمير المستتر في "خلقه" عائد إلى لفظ الجلالة، ولم يتقدّم بل دلّ عليه المقام. وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبا: 37). حذف المعاد لإرادة العموم، يقول ابن عاشور: "الضمير في لا يملكون عائد إلى الأرض والسموات وما بينهما، باعتبار ما تشتمل عليه هذه العوالم من الموجودات العقلاء من الملائكة والإنس، وما لا يعلمه إلّا الله"⁽³⁾. ومن طريف ذلك أن يكون المعاد محذوفاً من حيث هو مرجع، ولكنه يُذكر بعد ذكر الضمير، أي تحدث عملية عكسية. فبدل أن يرجع الضمير إلى معاده، فإنّ معاده يرجع إليه. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿يُضَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (طارق: 15-17)، إذ إنّ واو الجماعة في يكيدون هي للكافرين، ولم يتقدم ذكرهم، بل تأخر عن الضمير مقدار أربع كلمات في ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا﴾. وربما لم يذكرهم في معرض الكيد تحقيراً لكيدهم. وذكرهم تالياً في معرض الإمهال، لأنه محصور بهم.

(1) ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي (ت643هـ): شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج3، ص56.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مع15، ص69.

(3) السابق: ص50.

2- الالتفات: وهو الالتفات من استعمال ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، وذلك لغرض بلاغي هو التجسيم والاهتمام. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٣٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٣٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٣٩) فَذُقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٤٠) (النبا: 27-30)، فبدأ بالحديث عنهم بضمير الغائب إنهم...، ثم التفت وخاطبهم بضمير المخاطب فذوقوا...، قال الزغشري عنها: «ومجئها على طريقة الالتفات شاهد على أن الغضب قد تبالغ^(١)».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١١) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (١٢) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (١٣) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (١٤) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (١٥) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (١٦) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (١٧) وَفَيْكَةً وَأَبًا (١٨) مَتْنَعًا لَكُمْ وَلِتَعْلَمِكُمُ (١٩) (عبس: 24-32)، فجنده هنا بدأ بصيغة الغائب المفرد ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ...﴾، وختم ملتفتا بصيغة المخاطب الجمع ﴿مَتْنَعًا لَكُمْ...﴾ وهذا من رائع الالتفات في القرآن. فالمقام الأول هو مقام الإنسان الغافل عن ربه ونعمه، البعيد عنه. فناسبته صيغة الغائب. لكن المقام الثاني هو مقام إقامة الحجة على ذلك الإنسان بما أعادق ربه عليه من نعم محسوسة يتمتع بها، ولا سبيل له لإنكارها، فناسب ذلك صيغة الخطاب. ومن الالتفات أيضا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ (٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (٧) (الفجر: 15-17)، فنراه بدأ بضمير الغائب المفرد: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ وختم بضمير المخاطب الجمع ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ وربما كان الغرض وراء ذلك هو تنبيه أولئك الجاحدين إلى أن المتحدث عنه ليس غيرهم، بل هم أنفسهم.

(١) الزغشري، جار الله محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبته وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج 1، ص 519.

3- اختلاف الضمير لاختلاف الاعتبار التضمني: وذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ (عبس: 11-12)، ففي الآية ضميران يعودان على التذكرة، الأول: في إنها، وهو مؤنث يوافق التذكرة المؤنثة. والثاني: في ذكره، لا يناسبها لأنه مذكر. وتخرج ذلك نجده في قول الزمخشري في تعليقه على هذه الآية: ذكر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر^(١). والذكر هو من أسماء القرآن، فلذا أشار إليه بالمذكر.

4- ضمير الشأن: استعمله القرآن في موضع واحد من أجزاء عم وكان استعمالاً فنياً ذا قيمة تعبيرية خاصة، وضمير الشأن يؤتى به بغية زيادة الاهتمام بأمر ما. في المواطن التي يكون فيها أمر مهم تراءد العناية به، فيكون هذا الضمير أداة للتنبيه، يدفع المرء إلى الإصغاء، فلذا وردت الجملة بعده استقرت في النفس واطمأن الفؤاد^(٢). وذلك الموضع الوحيد الذي ورد فيه ضمير الشأن في جزء عم هو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: 1). ذلك أنه هو الموضع الأهم والأميز في الجزء، لأنه يتضمن عقيدة التوحيد العظيمة، وكل ما سواها يدور في فلكها.

5- أفراد الضمير إذا احتمل المعاد الأفراد وغيره: وقع ذلك حيثما وردت من الموصولة، ومع أن من هي اسم موصول عام يستعمل للمفرد والمثنى والجمع، تذكيراً وتأنيساً، إلا أن القرآن في جزء عم استخدمه مع المفرد المذكر في كل مواضعه التي بلغت ثمانية عشر موضعاً، ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: 38). وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ (النبا: 39). وقوله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النازعات: 37). وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ نَّحْشِهَا﴾ (النازعات: 40).

وربما كان الغرض البلاغي لهذا الاستخدام لفت الانتباه إلى المسؤولية الفردية لدى كل إنسان أمام الله سبحانه وتعالى، مصداقاً لقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ عِندَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: 95). نحو

(١) الزمخشري: الكشاف، ج 4، ص 218.

(٢) أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص 134.

مانجده في الآيات: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ

﴿٣٩﴾﴾ (النازعات: 37-39)، فيها إشارة إلى أن فعل الطغيان هو فعل فردي، لأن الطغيان هو تجاوز الحد في الفساد أو الظلم أو الكفر، وليس كل ظالم هو طاغياً. وربما اختلف شكل الطغيان ومستواه من طاغٍ إلى آخر. لذا كان استخدام صيغة المفرد هو الأنسب والأدق. وذكر الزركشي قريباً من ذلك في البرهان وسمّاه خطاب الجمع بلفظ الواحد^(١).

6- الإظهار في موضع الإضمار: وسمّاه الزركشي: الخروج على خلاف الأصل. وذكر له أسباباً

عدة^(٢). وهو يكون عندما يكرّر الاسم مرة أو مرتين، ولا يلجأ إلى إضماره وإحلال الضمير مكانه، بالرغم من المسوّغ لذلك. والغرض البلاغي وراء هذا الأسلوب القرآني هو لفت الانتباه لأهمية الأمر. كقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ

﴿٣﴾﴾ (القارعة: 1-3). فلم يقل: القارعة. ماهي. وما أدراك ماهي. ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ (الناس: 1-3)، فلم يقل: قل

أعوذ برب الناس، ملكهم، إلههم. ولو استعملها على نحو ما ذكرنا لاستدعى ذلك أن يأتي بواو العطف ليربط بين أجزاء السياق، حيث بدون الربط يضطرب التركيب، لكن مع تكرار الاسم مراراً وإظهاره لم يحتاج إلى واو العطف، بل لو وضعها لكانت ثقيلة وغير منسجمة. ولعل الغرض البلاغي المعنوي من حذفها هو التأكيد على أن الربوبية والمالكية والألوهية، كلّها لواحد، هو الله سبحانه. ولم يستعمل العطف كي لا يتوهم أن الرب شيء والمالك شيء آخر والإله شيء ثالث. وأمر آخر هو الإشارة إلى أن هذه الصفات كلها تجتمع من الله على الناس في آن معاً، فهو في الوقت الذي هو ربّهم، هو مالِكهم، وهو كذلك إلههم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ

الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ (الكوثر: 1-3)، فلم يقل: فصلّ لنا، مناسبة لضمير المتكلم في مستهل السورة،

وذلك لينبه على أنه أهل لأن يُصلّى له، لأنه ربّه الذي خلقه وأبدعه وربّاه بنعمته^(٣).

(١) الزركشي: البرهان، ج 2، ص 233.

(٢) السابق: ص 484.

(٣) الزركشي: البرهان، ج 2، ص 494.

7- مراوحة استخدام الضمير بين المفرد والجمع بحسب المقام: وهو يدخل في باب الالتفات. يقول محمود السعران: في لغة القرآن الكريم نَمِيز بين المواضع التي يتكلم فيها الله تعالى باسمه من تلك التي يتحدث فيها عن نفسه بضمير الغيبة، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه للمؤمنين، ومن خطابه للكفار، ومن حديثه عن أولئك جميعاً، ونفصل خطاب المؤمنين لله من خطاب الكفار له، ومن خطاب الرسول إياه، وسنلاحظ في تكلم الله جلّ وعلا باسمه أنه يستعمل أحياناً ضمير المتكلم المفرد، وأحياناً ضمير الجماعة المتكلمين، ومن الواجب ربط كل من ذلك بظروفه، وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير، والاستعانة بما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن⁽¹⁾.

ويبدأ السعران بالاستشهاد على ما ذكر، فيورد مثلاً على تكلم الله جلّ وعزّ باسمه بضمير الجمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهًا إِلَهُهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية: 25-26). وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (البقرة: 4). ويذكر السعران مثلاً لتكلم الله عز وجل في صيغة المفرد قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجَيْتِ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۖ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي﴾ (الفجر: 27-30). وأنه في سورة الأعلى يتكلم الله تعالى بضمير جماعة المتكلمين ثم يشير إلى ذاته بضمير المفرد الغائب، لا بضمير الغائبين. ثم يعود إلى الكلام بضمير جماعة المتكلمين: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۚ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۚ وَتُصَوِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الأعلى: 6-8)⁽²⁾.

ويلاحظ أنّ الله تعالى يشير إلى ذاته في القرآن الكريم مصطنعاً ضمير المفرد الغائب، مستنداً الصيغ إلى المفرد الغائب، وأنه لا توجد آية آية يشير فيها الله إلى ذاته بضمير جماعة الغائبين، أو بإسناد الصيغة إلى جماعة الغائبين. ويمثل على ذلك بما ورد في الآية السابقة وفي الآيات الآتية من سورة عبس: ﴿قَتِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۚ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ﴾

(1) محمود السعران: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، بنغازي 1968، ص 88 وما بعدها.

(2) السابق: ص 88 وما بعدها.

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنْشِرَهُ ﴿٢٥﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٦﴾ (عبس: 17-23). ويلاحظ أنه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله في التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (عبس: 24-27).

ويخلص السعران من هذا إلى أن الله عز وجل يتكلم باسمه مصطنعاً ضمير جماعة المتكلمين مرة، ومصطنعاً ضمير التكلم المفرد مرة، ولكن التعظيم وإعلاء الشأن لم يمثلا مرة في القرآن، ولا في غير القرآن، باستعمال ضمير المتكلمين الاثنين...⁽¹⁾. ويمثل السعران بعد ذلك لخطاب المؤمنين لله تعالى، ولخطاب الكفار لله، وخطاب الله سبحانه لهم، وحديثه سبحانه عن الكفار، وحديثهم عنه⁽²⁾.

ويضيف 'محمود السعران': 'والقرآن عندما يخاطب الرسول ﷺ يخاطبه بضمير المفرد ومن ذلك: ﴿يَسْ﴾ وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمَ ﴿١﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾﴾ (يس: 1-3). و﴿وَالْضُّحَىٰ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ (الضحى: 1-6). وأما خطاب الله لرسوله وطلبه إليه أن يقول كلاماً: ﴿قُلْ يَتَايَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾⁽³⁾.

ومجمل ما قاله السعران أن القرآن في حديث الله جلّ وعلا عن نفسه يستخدم ضمير الجمع وضمير المفرد، وأحياناً يجمعهما في آية واحدة. ويستخدم ضمير المفرد الغائب ولا يستخدم ضمير الجمع الغائب مطلقاً. وفي خطاب المؤمنين لله يعمد القرآن إلى ضمير المخاطب المفرد. ويعمد إلى الضمائر المتعددة في خطاب الله لهم. أما خطاب الكفار لله فيلجأ القرآن غالباً إلى ضمير المفرد المخاطب، وأحياناً بصيغة الجمع. وخطاب الله لهم يستخدم فيه الضمائر المعتادة. ويخاطب الله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه، أو يتحدث عنه بصيغة المفرد المخاطب أو الغائب.

(1) محمود السعران: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، ص 88 وما بعدها.

(2) السابق: ص 88 وما بعدها.

(3) السابق: ص 88 وما بعدها.

لكن محمود السعران لم يعلل تلك المراوحة في استخدام الضمائر حسب المقام، مع أنه قال في ثانيا كلامه: "ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه، وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير والاستعانة بما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن"⁽¹⁾.

ولعلنا نستطيع أن ندلي بدلونا في هذه المسألة، حيث إنه، وبعد التأمل في استعمال الضمائر في "جزء عم" خصوصا، وكيف تختلف باختلاف المقام، وجدنا أنه فيما يتعلق بالخطاب الإلهي للناس مؤمنين كانوا أم كافرين، فالمعول على غرض الخطاب، فإن كان الغرض يدخل في إطار تأكيد الهيمنة الإلهية والمقدرة، فالضمير يؤتى به عادة في صيغة الجمع، مثل: ﴿إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثم إن علينا حسابهم ﴿﴾، فهنا المقام مقام هيمنة وقدرة، فكان أن استعمل ضمير الجمع. والأمر نفسه في: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. أما إذا لم يكن الغرض في إطار إظهار الهيمنة والقدرة، فغالبا يستعمل ضمير المفرد، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿﴾. فهذا المقام ليس مقام الهيمنة والقدرة، بل مقام الإكرام واللين والفضل، فناسب ذلك ضمير المفرد.

وفي قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّطُكَ فَلَا تَنسَى﴾ ﴿﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿﴾ وَكُيِّسَتْكَ لِلسَّرِيِّ ﴿﴾ راوح بين ضمير الجمع وضمير المفرد، ربما لأن الإقراء هو أمر من الله، ولكن نفذته الملائكة ممثلين بجبريل عليه السلام، فناسب ضمير الجمع، لكن علم الغيب سواء كان جهرا أم سرا، فذلك يختص به الله وحده، لذلك استخدم المفرد.

ونستنتج من ذلك أنه إذا كان الفعل يختص به الله وحده، وفي السياق ما قد يتوهم مزاحمة الله سبحانه في فعله، فإن القرآن يعدل إلى استخدام ضمير المفرد، كما لاحظنا في الآية السابقة من سورة الأعلى. ونستنتج كذلك أنه إذا كان الفعل مما يوكل الله به إلى الملائكة، أو مما يقوم به الإنسان نفسه بهداية من الله سبحانه، فإن القرآن يلجأ في التعبير عنه إلى ضمير الجمع، كما لاحظنا في قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّطُكَ فَلَا تَنسَى﴾، إذ إن جبريل هو الذي يقرئ النبي بأمر من الله تعالى. وكقوله

(1) محمود السعران: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، ص 88 وما بعدها.

تعالى: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ﴾. ومعلوم أن ذلك يحدث في إطار سنن إلهية، وفيه الكثير من التسخيرات والمقدمات التي يقوم الخلق من ملائكة أو بشر بعملها، فكان من المناسب استخدام ضمير الجمع هنا.

وغاطبة الرسول صلى الله عليه وآله بصيغة المفرد، بالرغم مما هو معروف ومقطوع به من مكانة الرسول عند ربه، ربما جاءت لغرض تدقيقي تحرزي، إذ إن الرسول في معظم خطاب الله تعالى له في القرآن إنما يتلقى الرسالة والتشريع والهدي من ربه، وهو المفوض الوحيد بتبليغها، وهو الأمين عليها، وهو المختص وحده من بين الناس بهذا المقام، حيث اصطفاه الله تعالى له، لذلك جاء خطابه له بصيغة المفرد، حتى لا يتوهم متوهم أن هنالك نبياً آخر معاصر للرسول يشاركه في رسالته وفي مقامه، وكيف لنا أن نتصور أن يستقيم استهلال سورة "يس" مثلاً لو كان على هذا النحو: يس. إنكم لمن المرسلين. إذا لوقعنا في لبس شديد، وعلى هذا فقيس.

ومن هنا نستنتج كيف أن القرآن الكريم في عامة أجزائه، وفي جزئه الأخير خصوصاً، كان مبدعاً في استعمال الضمير بحسب المقام في إطار سياقات جميلة.

ونجدر الإشارة إلى أن الاستعمال اللغوي للضمير وتوظيفه يعكس مقصداً أسلوبياً مهماً يستحق الدراسة، فمثلاً نجد أن اتصال ضمير المخاطب بالاسم يحمل درجات عالية من التكثيف الفكري، وشحنات قوية من الإيقاعات العاطفية⁽¹⁾. ولنا أن نلاحظ هذا في قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾ (الضحى: 1-8). حيث يعكس اتصال ضمير الخطاب بالاسم في الآيات السابقة مدى الاتصال بين الرب المعطي المكرم ونيه المعطى، ويتضح فعلاً تدفق كبير للشحنات الإيقاعية.

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 235.

ب- اسم الإشارة:

يُلجأ إليه في 'جزء عم' للإشارة إلى المحسّات والمعنويات⁽¹⁾. فالإشارة إلى المحسّات نجدها في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ﴾ (البلد: 1-2). وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ (المطففين: 32). أما الإشارة إلى المعنويات فيمثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11). ولم ترد الإشارة للقريب في 'جزء عم' بدون هاء التنبيه، ولم ترد الإشارة للبعيد بدون لام البعد⁽²⁾.

ولم يُستعمل اسم الإشارة في 'جزء عم' للإشارة إلى المحسّات والمعنويات فقط، بل أسهم في بيان معانٍ بلاغية تستشف من المقام، كما نجد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (النازعات: 12)، فتلك هنا اسم إشارة لشيء معنوي هو الكرة. ولكنه قدّم معنى آخر يناسب السياق، وهو استبعاد حصول البعث من قبل الكفار المنكرين له، حيث إن تلك اسم إشارة اقترن بلام البعد. ومجيء اسم الإشارة أولئك في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (المطففين: 4)، أفاد الإشارة وأفاد التهكم في الوقت نفسه، إذ إن أولئك اسم إشارة للبعيد، كما هو معلوم، وانطوى استعماله على معنى الإعراض عنهم من جهة، وعلى معنى بعدهم عن الهداية من جهة أخرى. ولم يقل يظنون، بل عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة تهكماً بهم، وتقليلاً من شأنهم⁽³⁾.

ومن المعاني التي يعطيها اسم الإشارة: التقرّيع، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين: 16-17). فما أنكره من عذاب هو مائل أمامهم، والإشارة إليه مما يزيدهم غمّاً على غمّ، وشقاء على شقاء، فإنّ أشدّ شيء على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكر - وهو يتألم له - بأنّ وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها، وأسباب التقصي عنه كانت في مكتته فأغفلها⁽⁴⁾.

(1) لحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 218.

(2) السابق: ص 218.

(3) السابق: ص 219.

(4) محمد عبده: تفسير جزء عم، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1985م، ص 35.

وقد يُستخدم اسم الإشارة نفسه في سياق واحد بمعنيين متقابلين، كما هو في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝﴾ (البينة: 6-7). وعلق محمود نخلة على ذلك بقوله: أشير إلى الكافرين باسم الإشارة أولئك نفورا منهم، وإيحاء ببعدهم من الهداية، وأشير إلى المؤمنين باسم الإشارة ذاته أولئك للدلالة على رفع منزلتهم وعلوهم في معراج الهدى والخير، وذلك بعد حسي مكروه، وهذا بعد معنوي مرغوب⁽¹⁾.

ج- الاسم الموصول:

يُستخدم في جزء عم كثيرا عندما تكون صلته هي مناط الحكم وموضوع الاهتمام⁽²⁾.

كقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾ (الماعون: 4-7)، إذ إن سبب التهديد لهم هو سهوهم عن صلاتهم ورياءهم ومنعهم للماعون. وهذه كلها قدمت صلاتا للاسم الموصول المكرر الذي، وكانت هي مناط الحكم. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ (المطففين: 1-3). وكذلك قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝﴾ (النبا: 1-3)، حيث اختلافهم في النبا العظيم هو موضع الاهتمام، وهو بالتالي صلة الاسم الموصول الذي. ومثله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝﴾ (الهمزة: 1-3). وكذلك قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝﴾ (قرش: 3-4).

(1) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 220.

(2) السابق: ص 220.

وأحياناً يتكرر الاسم الموصول، فتتعدد الصلوات بناء على ذلك، حين يراد الاهتمام بكل صلاة واستقلالها بأمر يستحق البيان. وذلك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِى أخرجَ الْمَرْعى ۝ فَجَعَلَهُ عُشَّاءَ أُحْوى ۝﴾ (الأعلى: 1-5)، فقد كرر الاسم الموصول في قوله: ﴿وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِى أخرجَ الْمَرْعى﴾. مع أن صاحب الصلاة واحد. فلم يقل الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى فجعله غشاء أحوى. للاهتمام بمدلول كل صلاة من الصلوات الثلاث، واستقلال كل واحدة منها في الدلالة على استحقاق التسبيح، وعلى نوع الإيجاد فمقام البيان اقتضى الإطناب⁽¹⁾.

ويؤتى بالاسم الموصول في 'جزء عم' لإرادة الجنس أحياناً كما في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكْذِبُ بِالْدينِ﴾ (الماعون: 1)، فقد علّق ابن عاشور على هذه الآية بقوله: 'والأظهر أنه مراد به الجنس، أي جنس من يكون حاله هذا الوصف وهو التكذيب بالدين'⁽²⁾. أي ليس المقصود شخصاً معيناً.

ومن وظائف الاسم الموصول في الجزء كذلك: إرادة التشويق لمعرفة الخبر، وذلك بإطالة الصلاة⁽³⁾. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرْقِ﴾ (البروج: 10). وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11).

ولإخفاء اسم ما تحقيرا لصاحبه أو تعريضا به، هو من الوظائف التي يعمد إلى الاسم الموصول فيها في 'جزء عم'. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهى ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝﴾ (العلق: 9-10). قال القرطبي: 'أرايت الذي ينهى: وهو أبو جهل عبداً وهو محمد ﷺ، فإن أبا جهل قال: إن رأيتُ محمداً يصلّي لأطأن عنقه. قال أبو هريرة: فأنزل الله هذه الآيات تعجباً منه. وقد

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 170.

(2) السابق: ص 240.

(3) محلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 221.

أعرض القرآن عن ذكره باسمه، وآثر التعبير عنه بالموصول تعريضاً، وتحقيراً من شأنه⁽¹⁾. ومن اللافت أن القرآن الكريم في جزء عم يعمد أحياناً إلى إحلال الاسم الموصول ما، وهو لغیر العاقل، محلّ مَنْ الذي هو للعاقل، كما في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (البلد: 3). وذلك ربما مراعاة لحال الوليد الذي لم ينضج عقله، ولم تفتتح ملكاته، فشأنه في هذه السن الصغيرة شأن من لا يعقل؛ لانعدام قدرته على التمييز أو التفكير⁽²⁾.

د- المعروف بـ'أل':

أل التعريف أنواع ثلاثة: عهدية وجنسية واستغرافية. والعهد في النوع الأول: عهد ذكري أو ذهني كثنائي أو حضوري. والجنس في الثاني: إما جنس شامل لكل الأفراد على الحقيقة، بحيث يمكن أن يحلّ محله لفظ كل. وإما جنس شامل على سبيل المبالغة والادعاء في صفة ظاهرة فيه، وإما جنس به بيان الحقيقة أو الماهية. والاستغراق، وهو إما حقيقي، يشمل كل الأفراد، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَفِي خُسْرٍ⁽³⁾ ف(ال) في الإنسان للاستغراق، تشمل جميع الأفراد، بدليل الاستثناء. أو استغراق عرفي، وهو ما يدل على جميع الأفراد، ولكن من حيث العرف. كأن يقول لك أستاذك: اجمع كل الطلاب. والمقصود: كل طلاب فصلك. لا الطلاب كلهم في كل مكان وزمان⁽⁴⁾.

والأنواع الثلاثة مستخدمة في جزء عم، استخداماً فنياً بارعاً، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (النازعات: 42)، ف'أل' في كلمة الساعة للعهد الذكري، فهي لم تُذكر في هذه الجملة ولكنها بمنزلة المذكور، بدليل قوله عز وجل: يسألونك. فسؤالهم عنها يقتضي ذكرها. واستغنى بما يحمله السؤال من معنى الذكر عن الذكر ذاته. وليس وراء ذلك براعة تعبير ولا روعة بيان⁽⁵⁾.

(1) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج 20، ص 124.

(2) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 222.

(3) عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط 1986، م 8، ج 1، ص 303.

(4) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ص 329.

(5) نخلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 223.

ومن العهد الذهني قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَبْتُةُ﴾ (اليبنة: 1)، فـ'أل' في كلمة 'اليبنة' للعهد الذهني. فما كان هؤلاء الكفار ينتظرون يبنة بعينها، بل كانوا يترقبون بينة تُعرف بأوصافها من مجيئها⁽¹⁾.

وفي المقابل هناك 'أل' الجنسية التي تشمل أفراد الجنس جميعاً ويمكن استبدال كل بها، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ (العصر: 1). والتقدير: وكل عصر. وقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 6). والتقدير: إن مع كل عسر يسرا. وهناك 'أل' الجنسية التي تفيد المبالغة وادعاء الشمول بمصطلح النحويين. أو تفيد 'القصر' بمصطلح البلاغيين. كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَقَابًا﴾ (النبا: 39). وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ جَعْنَىٰ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11). فـ'أل' في كلمتي 'اليوم' و'الفوز' تفيد هذه المبالغة والدلالة على الكمال، أي ذلك هو اليوم الذي لا يوم مثله، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا نظير له⁽²⁾.

وفيما يتعلق بـ(ال) الاستغرافية، فنجد النوع الحقيقي في آية سورة العصر المذكورة. ولجده كذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ (عبس: 24)

فالإنسان هنا يستغرق كل الأفراد، بدليل أنهم كلهم يأكلون الطعام. أما النوع العرفي من الاستغراق فنلاحظه في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (المطففين: 23)، فكلمة 'الأرائك' تستغرق جميع النوع، لكنها عرفاً تشير إلى أرائك الجنة فقط. وربما كان الغرض هو تعظيم شأن تلك الأرائك، بالنظر إلى أرائك الدنيا الزائلة.

هـ- المضاف إلى معرفة:

يضاف الاسم النكرة إلى اسم معرفة في جزء عمّ لأغراض تتجاوز مجرد التعريف. منها: التعظيم، وذلك بإضافة الشيء إلى لفظ الجلالة، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 302

(2) لمحة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 225.

وَسُقِّيَهَا ﴿(الشمس: 13)﴾، فأضاف 'رسول' وثاقاً إلى لفظ الجلالة بغرض التعظيم.

وأحيانا تكون الإضافة للمعرفة بغرض التهويل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10)، حيث أضاف 'عذاب' للمعرفتين 'جهنم'، 'حريق' لغرض التهويل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: 6). فنجد التهويل أيضاً يقف وراء إضافة 'نار' إلى المعرفة 'جهنم' في هذه الآية.

وتضاف النكرة إلى المعرفة أحيانا لغرض بيان النوع وزيادة التأكيد. كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ (التكاثر: 5-7)، إذ إن 'علم اليقين' نوع من اليقين. وعين اليقين نوع آخر منه. بالرغم من أن كليهما مرتبط باليقين. ولم يتوضح ذلك إلا بالإضافة. أما ما علق به محمود لحلة على هذه الآية بقوله: 'وإضافة العين إلى اليقين للمبالغة في التأكيد، فالأصل اليقين عينه، ثم قدم لفظ التوكيد لزيادة المبالغة'⁽¹⁾. فأرى أن هذا التحليل ربما يكون غير صحيح، ذلك أن 'عين اليقين' لا تعطي معنى اليقين عينه كما فهم لحلة، بل إنها تشير إلى نوع من أنواع اليقين متقدم هو 'عين اليقين'، أي اليقين الذي يتحقق برؤية العين، وقبله 'علم اليقين'، وهو اليقين الذي يتحقق بالعلم دون الرؤية، كما هو الحال في إيماننا بالجنة والنار يقيناً من غير أن نراهما.

ومن الإضافة إلى المعرفة بغرض المبالغة ما نجده في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: 5). وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (التين: 8)، حيث إن إضافة 'أسفل' إلى 'سافلين' وإضافة 'أحكم' إلى 'حاكمين' كان لغرض المبالغة. والتقدير: أسفل كل من أسفل. وفي الآية الثانية: أحكم كل من حكم⁽²⁾.

ومن أغراض الإضافة إلى المعرفة: الإناس، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (النازعات: 19)، فأضاف 'رب' إلى 'كاف الخطاب' لطفافاً في الدعوة إلى التوحيد، واستنزالا

(1) لحلة: دراسات قرآنية في جزء هم، ص 226.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مج 15، ص 428.

لطائر نفور فرعون، لأنه لو قال: وأهديك إلى الله لنفر، لأنه كان يعبد آلهة باطلة، فإذا قال له إلى ربك، وقد كان فرعون يعلم أن له رباً، طمع في أن يهديه موسى من معرفة آلهته، فأصغى إليه حتى إذا سمع قوله وبرهانه داخل الإيمان نفسه⁽¹⁾.

أحياناً تأتي الإضافة إلى المعرفة في "جزء عم" لأدنى ملابسة كما أوردها ابن عاشور في تفسيره، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَتْبَصُرُهَا حَشِيعَةٌ﴾ (النازعات: 8-9)، فأضاف الأبصار إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة. والمراد أصحاب القلوب⁽²⁾.

ثانياً: التنكير.

وهو الطرف الثاني في ثنائية التعريف والتنكير، وقد وُظِفَ توظيفاً فنياً بلاغياً أثرى الدلالة في "جزء عم"، وخصوصاً تنكير المسند إليه، أو تنكير الفاظ في الجملة غير المسند. أما تنكير المسند فلم يشكل مهيماً أسلوبياً، لأن التنكير أصل فيه. والبلاغة إنما تتجلى فيما عدل فيه عن الأصل. والتنكير شائع في "جزء عم"، لأنه يناسب المسائل العامة التي عرض لها القرآن في هذا الجزء، كذكر دلائل قدرة الله، ونعمه على خلقه، ووصف يوم القيامة، وما يصاحبه من أحداث جسام، وما يحدث فيه من ثواب وعقاب إلى غير ذلك من أمور يناسبها التعميم أكثر مما يناسبها التخصيص⁽³⁾. ومن أمثلة التنكير في "جزء عم" قوله تعالى في كل من المواضع الآتية: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (النبا: 12). و﴿وَجَنَّتِ أَلْفَافًا﴾ (النبا: 16). و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (صاحجة مستبشرة) و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ﴾ (ترهقها فترة) (عبس: 38-41). وكثير غيرها في الجزء القرآني الأخير. أما أهم الأغراض البلاغية للتنكير في هذا الجزء فهي:

(1) ابن عاشور: التحرير والتوير، مج 15، ص 55.

(2) السابق: ص 50.

(3) لمحة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص 200.

أ- التحقير:

كما في قوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ۖ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ﴾ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۖ﴾ (١٩) (عبس: 17-19)، فتكثير نطفة جاء لغرض التحقير لذلك الإنسان الطاغوي الكفور، فالمقام مقام توبيخ وإهانة، وتعجب من تكبر هذا الإنسان المهين الأصل، بدليل قوله تعالى في مستهل الاستشهاد: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ۖ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿كَأَلَيْسَ لِمَنْ يَنْتَه لِنَشْفَعُ بِالنَّاصِيَةِ ۖ﴾ (٢٠) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۖ﴾ (العلق: 15-16)، حيث أن تكثير ناصية الثانية جاء لتحقيرها، المقصود صاحب الناصية وهو أبو جهل^(١). بينما لم يتكرر الناصية الأولى بل عرفها؛ لأن المقصود كان بيان الجزء الذي سيجري عليه السفع أي السحب، وليس ناصية أبي جهل تحديدا، ثم لما خصصها به نكرها تحقيرا له.

ب- الاستغراق التعميم:

ما عليه النحاة هو: أن الفكرة تعم إذا جاءت في سياق نفي أو استفهام^(٢). أو إذا جاءت بلفظ يدل على العموم، مثل كل ونحوه. والفكرة عادة لا تعم في غير ذلك. بيد أن القرآن الكريم جعل كلمة نفس في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۖ﴾ (الانفطار: 5)، تدل على العموم بالرغم من أنها ليست من ألفاظ العموم، وليست في سياق نفي أو استفهام. وكأنه قال: علمت كل نفس ما أحضرت. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۖ﴾ (الفلق: 5). فالمعنى: ومن شر كل حاسد.

ج- التهويل:

وذلك في قوله تعالى في المواضع الآتية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۖ﴾ (المطففين: 1). و ﴿وَيْلٌ يَّوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۖ﴾ (المطففين: 10). و ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۖ﴾ (الهمزة: 1). و ﴿وَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۖ﴾

(١) الطبري: التفسير، مج 7، ص 570.

(٢) ابن يعيش، شرح المفصل، ج 1، ص 86.

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿ (الماعون: 4-5). ويذهب محمود لمحلة إلى أن كلمة 'ويل' لم تستعمل في كل تلك الشواهد بمعناها المعجمي كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما استعملت بوصفها لفظة منكّرة تفيد المبالغة والتهويل. وهذا بحسب رأيه ما سرّغ الابتداء بالنكرة في كل تلك المواضع، محتجاً بكلام لابن يعيش نقله⁽¹⁾.

كما أن تنكير ناراً جاء بغرض التهويل في كل من المواضع الآتية: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (الليل: 14). و﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: 3). و﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ (البلد: 20). و﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: 4). حيث قال ابن عاشور: 'وتنكير ناراً للتهويل'⁽²⁾.

ونرى أن هنالك ملحظاً بلاغياً في تنكير ناراً في الشواهد السابقة إلى جانب ما فيه من غرض التهويل، يستشف بالتأمل، وهو أن التنكير جاء لا استبعاد التخصيص، فإنه لو قال: فأنذرتكم النار التي تَلَظَّى، لتبادر إلى الذهن أن هنالك أنواعاً من النار، منها التي تَلَظَّى، ومنها غير ذلك. فكان التنكير استبعاداً للتحديد والتخصيص. والله أعلم.

د- التعظيم:

وهو كثير في الجزء، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: 6). وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة: 8). و﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: 5) وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: 2). وغيرها الكثير.

والتنكير في كل الشواهد السابقة أفاد التعظيم، أو بالأحرى أفاد إظهار التعظيم لأشياء عظيمة. أي أن عظمتها نابعة من قيمتها وأثرها في الكون. وأحياناً يراد إظهار عظمة شيء لا من حيث قيمته، بل من حيث كثرته وتعددته. مثل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَسِيرٍ ﴿٢﴾﴾

(1) لمحة: دراسات قرآنية في جزء هم، ص 204.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 389.

(العصر: 1-2). وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَاقٍ﴾ (البلد: 6). فتكثير 'خسر'، ما لا هو لبيان أن الخسر عظيم، أي شديد، وأن المال الذي أنفقه كثير جدا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾ (قريش: 3-4). قال الزخشي: التذكير في خوف وجوع لشدةتهما، يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو التخطف في بلدهم ومسايرهم^(١).

هـ- التكرار والتوالي:

كقوله تعالى: ﴿كَأَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢١﴾ (الفجر: 21-22). قال الزخشي: 'دكًا بعد دك.. أي كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثًا'^(٢). وقال: 'صفًّا صفًّا: ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًّا بعد صفٍّ محدقين بالجن والإنس'^(٣).

الفصل والوصل

كان مما أورد الجاحظ في البيان والتبيين: قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل^(٤). أي من عرفهما فكأنه أحاط بأركان البلاغة. وقال عبد القاهر الجرجاني عن الوصل والفصل: أعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول أنه خفي غامض ودقيق وصعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى، وأدق وأصعب^(٥). وقال عنه أيضا: أنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة^(٦). والفصل والوصل هو من مباحث المعاني الموسومة بقدرات أسلوبية عالية، بما تشتمل عليه من حروف المعاني الرابطة، والتي عدل بها البلاغيون عن

(١) الزخشي: الكشف، طبعة مصر 1307 هـ ج 2، ص 563.

(٢) السابق: ص 543.

(٣) السابق

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 81.

(٥) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 159.

(٦) السابق: ص 178.

وظيفتها النحوية إلى ما وراء ذلك من وظائف فنية بلاغية⁽¹⁾.

أولاً: الفصل.

والفصل "عند القدماء: هو ترك عطف الجمل بعضها على بعض بالواو"⁽²⁾. وفي تعريف محدث هو: الوقوف عند نهاية كل عنصر، حتى يشعر السامع بانتهائه، ويتهياً الخطيب لعنصر تالٍ فهو يفرغ من عنصر سلف، ويقبل على عنصر أتى⁽³⁾. وفي تعريف حديث آخر هو: "قطع معنى عن معنى بأداة لغرض بلاغي"⁽⁴⁾. والتعريف الأخير - فيما أرى - هو أوجزها وأدقها؛ لأمر سيتضح مع الاستغراق في تناول هذا الموضوع.

وقد جعل القدماء "الفصل" على خمسة أوجه هي: كمال الاتصال، كمال الانقطاع، شبه كمال الاتصال، شبه كمال الانقطاع، التوسط بين الكمالين⁽⁵⁾. لكن باحثاً محدثاً هو منير سلطان قد تحفظ على هذا التقعيد لثنائية الفصل والوصل، وأوضح أن فيه قصوراً يتمثل في أوجه عدة، منها: قصر الوصل والفصل عند القدماء على الجمل دون المفردات. وأنهم حصروا "الفصل" في "طرح الواو" فقط، في حين أن القرآن فصل بغير الواو أيضاً. وأنهم سموا الفصل بين الجملتين الخبرية والإنشائية كمال الانقطاع، والحال أن عطف الخبرية على الإنشائية أو العكس جائز عند بعض النحاة، على رأسهم "سيبويه". وقد ساق هؤلاء النحاة اثني عشر شاهداً في القرآن على ذلك. وآخر تحفظات "سلطان" هي أن هذه القواعد لم تراعى المعنى العام، ولا السياق الجامع المتجانس الذي اقتضى فصلاً هنا، ووصلاً هناك، وانكششت قواعدهم في أمثلة تعليمية وشواهد محدودة، غاضة الطرف عن رحاب القرآن الفسيحة⁽⁶⁾.

وسلطان يلخص رأيه في وظيفة الفصل والوصل، التي يراها منسجمة مع المعنى العام بقوله إن المقياس الحقيقي لقبول الفصل أو الوصل هو أن تؤدي العبارة - في إطار السياق العام -

(1) محمد عبدالمطلب: البلاغة والأسلوبية، ص 80.

(2) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 170.

(3) لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص 307.

(4) منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 2، 1997، ص 31.

(5) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 187.

(6) منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص 167-168.

الغرض من صياغتها في إيصال المعنى إلى المخاطب في أوضح صورة وأحلاها، فإذا أدى الوصل بين مفردتين أو جملتين إلى معنى غير المقصود، أو إلى المعنى المقصود بصورة رديئة أو بصورة لا يقبلها العقل وجب الفصل، وإذا كان الفصل سببا في الإيهام بغير المقصود أو في فقدان المنطقية الفنية أو العقلية، أو فقدان الرشاقة في الأسلوب وجب الوصل^(١).

وسننهج في تناولنا للفصل والوصل في جزء عمّ النهج نفسه الذي انتهجه سلطان، إذ لم يقصر تناوله لهذا الموضوع على نظريات القدماء، بل أعطى لعقله وذوقه حقّ التأمل والتعمّق في المسألة، ممّا جعله يتوصّل إلى حقائق جديدة معتمدا على إيمانه بترابط النصّ، وتقديره للسياق العام. وهي الأمور التي ربما أغفلها القدماء عندما خاضوا في هذه المسألة، ممّا جعلهم يقعون فيما تحفظ به سلطان عليهم. وكان ذلك اقتناعاً منا بما ساقه من أدلة في معرض تبيانه لأوجه القصور في تناول القدماء لهذا الموضوع المهمّ.

مواضع الفصل:

فصل القرآن الكريم في جزء عمّ بين المفردات، وكذلك فصل بين أركان الجملة الواحدة، وفصل بين الجملتين، وكذلك فصل بين جمل عدة. ونفصل ذلك فيما يأتي:

أ- الفصل بين المفردات بطرح الواو:

نحو قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٦﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٧﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٨﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٩﴾﴾ (عبس: 13-16). وقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٩﴾﴾ (عبس: 38-39). وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْذُوذُ ﴿١٤﴾﴾ (البروج: 14) و﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَنْشَعَةٌ ﴿٢٧﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢٨﴾﴾ (الغاشية: 2-3).

ويبدو لي أن التأمل في هذا النوع من الفصل يلحظ أن الغرض البلاغي من ورائه هو المزامنة، فالصحف: مكرمة مرفوعة مطهرة في الوقت نفسه بدون انفصال، لذلك لم يفصل بينها بالواو. والكلام نفسه ينطبق على باقي الأمثلة.

(١) منبر سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص 167-168.

ب- الفصل بين أركان الجملة الواحدة:

وهذا يتحقق بضمائر الفصل، أو بالجملة المعارضة: أما الفصل بضمائر الفصل فقد أشار إليه سيبويه⁽¹⁾، والفرأء⁽²⁾، والجرجاني⁽³⁾، والزغشري⁽⁴⁾، وغيرهم. ونجد في جزء عم في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (النبا: 1-3). حيث فصل الضمير المنفصل 'هم' بين أركان جملة: الذي فيه يختلفون. وأرى أن الفصل بهذا الضمير في هذا الوضع أفاد التخصيص. أي أنهم هم المختلفون فيه، وليس غيرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات: 39). فصل الضمير 'هي' بين الجحيم ومأوى لغرض التأكيد. وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: 42). والفصل بالضمير المتصل 'هم' في هذه الآية أفاد التخصيص، أي أن تلك الصفات خاصة بهؤلاء.

والنوع الثاني هو الفصل بالجملة المعارضة: وقد أشار إليها ابن جني⁽⁵⁾، وابن وهب⁽⁶⁾، والجرجاني⁽⁷⁾، وغيرهم. ويعرفها الزركشي بأنها حين يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معاً، بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوته بفواته، فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين لنكتة⁽⁸⁾.

وفي جزء عم وجدت نحواً من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ وهو يخشى. ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس: 8-10)، وهنا اعترضت جملة 'وهو يخشى' أركان الجملة التي تحقق الغرض الأصلي وهي: 'وأما من جاءك يسعى.. فأنت عنه تلهي'. وربما الغرض إظهار مدى سلبية التلهي، لأنه تله عن رجل يخشى الله.

(1) سيبويه: الكتاب، ج 1، ص 394-395.

(2) الفرأء: معاني القرآن، ج 1، ص 409 وص 51.

(3) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 98.

(4) الزغشري: الكشف، طبعة مصر ج 1، ص 434، كل عمران 62.

(5) ابن جني: الخصائص، ج 1، ص 335.

(6) أبو حسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحدوثي، جامعة بغداد، 1967، ص 124-125.

(7) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 98.

(8) الزركشي: البرهان، ج 3، ص 56.

ومثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10)، حيث فصلت جملة ثم لم يتوبوا بين أركان الجملة الواحدة والتي تقديرها: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات لهم عذاب جهنم... والغرض فيما يبدو لي تأكيد أهمية التوبة في حطّ الذنوب العظام.

ج- الفصل بين الجملتين: ومن أدواته:

1- وار الاستئناف:

وقد أشار إليها الزرخشري⁽¹⁾. وعنها يقول الزركشي: «وُتِّسِيَ وَارُ الْقَطْعِ» وهي التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى، ولا مشاركة في الإعراب، ويكون بعدها الجملتان، فالاسمية كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام: 2). والفعلية كقوله تعالى: ﴿لَنَبَيِّنَ لَكُمَّاء وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ﴾ (الحج: 5). وإنما سميت وار الاستئناف لئلا يتوهم أن ما بعدها من المفردات معطوف على ما قبلها⁽²⁾. وقد وقفت على موضع واحد في جزء عم بما أتاح لي تأمل، في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. (القدر: 4)، فقد فصلت الواو الاستئنافية بين الجملتين تنزل الملائكة والروح فيها. ولم تعطف الثانية على الأولى. والغرض فيما أرى تمييز الروح من الملائكة.

2- ثم:

وتأتي للاستئناف بالرغم من أن غالب استعمالاتها يكون للعطف. ونجدها في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۖ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (الأعلى: 12-13). وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ فَكُّ رَقَبَةٍ ۖ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْقِبَةٍ ۖ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۖ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

(1) الزرخشري: الكشف، طبعة مصر، ج3، ص127، سورة الشعراء: 153-154.

(2) الزركشي: البرهان، ج4، ص437.

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ (البلد: 11-17).

3- بَلْ:

وتكون استثنائية وتؤدّي وظيفة من وظائف الإضراب هي القطع الصريح^(١). ونلاحظها في جزء عم في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر: 16-17). وقوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٨﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ زَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (المطففين: 12-14).

4- الجمل المعترضة:

وفي جزء عم وجدت نحواً من ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ (التكوير: 15-18). حيث اعترضت جملة الجوار الكنس سياق القسم المتتالي، ولم تكن هي ضمن القسم المعطوف على بعضه. بل كانت بمثابة توضيح أو تعريف للخنس. وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مِسْكَ ﴿٢٦﴾ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَرَّا جُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ (المطففين: 25-27)، فاعترضت جملة: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ بين الجملتين: "خِتَمُهُ مِسْكَ" و"وَمَرَّا جُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ"، فهما متصلتان بالمعنى من خلال العطف. وربما كان الغرض البلاغي من وراء هذا الفصل هو الحث على المنافسة، والسبق إلى نيل ذلك الرحيق المميز.

(١) الزركشي: البرهان، ج 4، ص 258.

5- الاستثناء المنقطع:

أشار إليه الزغشري⁽¹⁾. وقال المالقي⁽²⁾ عنه: أعلم أن إلا حرف معناه الاستثناء ولفظه موضوع لذلك، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم يخرج ببعض الشيء من كله، وهو الذي يُسمى الاستثناء المتصل، وقسم بمعنى لكن يُسمى ما يكون له كذلك الاستثناء المنفصل، والاستثناء المنقطع⁽³⁾. وضرب الزركشي⁽⁴⁾ مثالا له من "جزء عم"، هو قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الأنعام: 11) إلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (الغاشية: 22-23)، فالأ هنا بمعنى لكن⁽³⁾، فهي للاستثناء المنقطع، وعلى ذلك فهي أداة فصل.

وهكذا نرى كيف شكّل الفصل بكل مستوياته ظاهرة بلاغية في جزء عمّ تقوم سمة أسلوبية فيه، لها كبير فاعلية في إيصال المعاني المنشودة، وفي التأثير الفكري والشعوري.

ثانيا: الوصل

وهو "ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي"⁽⁴⁾. ويسهم الوصل في الاتساق النحوي للنص الأدبي الذي سبق ذكره في باب الحذف. وللوصل مواضع عديدة تتنوع تبعا لتنوع الكلام بين مفردات أو جمل. وستتناول هذه المواضع بشيء من التفصيل فيما يأتي:

مواضع الوصل:

أ. الوصل بين المفردات: وصل القرآن الكريم في جزء عمّ بأدوات الربط. ولم يقصر ذلك على حروف العطف كما سنرى، بل تعدّاها إلى أدوات ربط أخرى، منها: ذات، ذو كقوله تعالى فيما يأتي: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: 3). ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق: 11). ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج: 1). وفائدتها المصاحبة، أي النار صاحبة اللهب، وهكذا. ومفردة الذي: وهو اسم موصول، وفي الوقت نفسه أداة ربط بين المفردات. كقوله تعالى: ﴿وَمَا

(1) الزغشري: الكشاف، ج 1، ص 292.

(2) المالقي: أحمد بن عبد النور: وصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد الخراط، دمشق، 1975، ص 85.

(3) الزركشي: البرهان، ج 4، ص 236.

(4) منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص 31.

تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١٠﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١﴾ (البروج: 8-9)، حيث فصلت الذي بين مفردتي الحميد وملك. ومن المفردات الواصلة كذلك حروف الجر، حيث نجد حرف الجر على في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَرَعَلَيْتَا قُعُودٌ﴾ (البروج: 6). وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (البروج: 9). وفائدتها الاستعلاء الحقيقي والمعنوي^(١). وحرف الجر عن في: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات: 40). وفائدتها المجاوزة^(٢). والباء: ﴿تَرْفَعُوهُ مُطَهَّرَةً بِأَيْدِي﴾ (سفرة: عبس: 14-15). ولها فوائد كثيرة، منها: الإلصاق والتعدي والاستعانة والتعليل والمصاحبة وغيرها^(٣). والاستعانة كان هو الفائدة في الشاهد المذكور. وحرف الجر إلى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس: 24). واللام: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار: 19). وحرف الجر في: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (العلق: 29). وكلها لها معاني متعددة^(٤).

ومن المفردات الواصلة كذلك الواو: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: 38) و﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (ص: ١٧) و﴿عِنبًا وَقَضْبًا﴾ (ص: ١٨) و﴿زَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (ص: ١٩) و﴿حَدَاقٍ غُلْبًا﴾ (ص: ٢٠) و﴿فَنَكِهَةً وَأَبًا﴾ (ص: ٢١) (عبس: 27-31). والفاء: في قوله تعالى: ﴿فَالسَّيْقَتِ سَبَقًا﴾ (ص: ٢٢) و﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (ص: ٢٣) (النازعات: 3-5). وهناك أم المتصلة. ولجدها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (النازعات: 27).

(١) أحمد فليح: حروف الجر ومعانيها، المركز القومي للنشر، 2001م، ص 110.

(٢) السابق: ص 109.

(٣) السابق: ص 113.

(٤) للمزيد عن حروف الجر ومعانيها يرجع إلى كتاب حروف الجر ومعانيها لأحمد فليح المذكور آنفاً.

ب- وصل الجمل: وتنقسم إلى أقسام عدة هي:

1- الوصل بين الجملة والمفرد:

كقوله تعالى: ﴿فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا ۖ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۖ﴾ (العاديات: 3-4). وألفاء هنا حرف عطف يفيد السرعة. وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۖ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۖ﴾ (الضحى: 1-2). وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۖ﴾ (التكوير: 17-18). فجاءت الجملة موضحة لجانب ما في المفرد، فالليل وضحته إذا سجي بل خصصت المراد منه في هذا الموضع. بينما في موضع آخر نجد أن لفظة الليل نفسها تخصصت بـ إذا عسعس.

2- الوصل بين الجملة والجملة:

وصل القرآن بين الجملة والجملة بروابط مختلفة منها الآتي: ألفاء، كقوله تعالى: ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (عبس: 21). ثم، نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۖ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (الأعلى: 12-13). وتفيد العطف مع التراخي. أو، للتخير. كقوله تعالى: ﴿فَكَ رَقَبَةً ۖ أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ﴾ (البلد: 13-14). إن ناصبة المضارع، ونجدها في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ﴾ (التكوير: 28). أن بمعنى 'عندما'، كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۖ﴾ (عبس: 1-2). إن الشرطية، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۖ﴾ (الأعلى: 9). إذا الفجائية، في قوله تعالى: ﴿فَلِإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ﴾ (النازعات: 13-14). إذا الشرطية، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا تَتَلَّيْ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (المطففين: 13). مَنْ الشرطية، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ﴾ (عبس: 12). ما التعجبية، مثل قوله تعالى: ﴿قَتِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۖ﴾ (عبس: 17).

وهناك غير هذه الأدوات مثل إلا والذي والذين وإذا الظرفية. وكلها تربط بين جملتين في جزء عم. وكثير منها إلى جانب كونه رابطا فهو كذلك يؤدي أغراضا بلاغية، سنسلط الضوء على بعضها لاحقا.

3- الوصل بين مجموع جمل ومجموع جمل أخرى:

وله أشار الجرجاني بقوله: فأمر العطف إذاً موضوع على آلك تعطف تارة جملة على جملة، أو تعتمد [تارة] أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض، ثم تعطف مجموع هذه على مجموع تلك⁽¹⁾.

ويمثل ذلك في جزء عم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10). ففي الآية طرفان، الأول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾، والثاني: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. والطرف الأول منهما يشتمل على جملتين، عطف الثانية منهما ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ على الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفي الطرف الثاني جملتان كذلك، عطف الثانية منهما: ﴿لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ على الأولى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. والطرفان بما يتضمنان من جمل فصل بينهما بالفاء.

من أغراض الوصل والفصل في جزء عم:

1- الإيضاح بالاستطراد:

وهو يتخذ صوراً عدة في الفصل والوصل القرآني، منها التفسير، والاستطراد، والتفصيل بعد الإجمال. فمن البيان والتفسير في جزء عم قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ١١ ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (عبس: 24-25). وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ١٢ ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (عبس: 18-19). وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ١٣ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ١٤ ﴿عَبَسَ: 1-2﴾. حيث إن جملة ﴿جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ كانت تفسيراً وبياناً لسبب العبوس والتولي.

(1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 244.

والإيضاح بالاستطراد هو غرض بلاغي يؤديه الفصل، ونلاحظه في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (٢٧) خْتُمُهُمْ مِشْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَرَجُهُمْ مِنَ تَنْزِيمِ ﴿٢٩﴾ (المطففين: 25-27). فالجملة المعترضة: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، فصلت بين سابقها ولحقها، وشكلت إيضاحاً بالاستطراد.

أما إيضاح التفصيل بعد الإجمال: فحققه الوصل باستخدام كيف غير الاستفهامية، والتي يكون تقديرها مع الاسم بعدها شيئاً يبدل البعض من كل. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: 7). إذ التقدير: أفلا ينظرون إلى الإبل خلقها. وهنا الإبل إجمال، وكيف خلقت تفصيل. ويؤديه الفصل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حَجِيمٍ﴾ (يصلونها يوم الدين) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (الانفطار: 14-16). فأجل العقاب بلفظة 'حجيم'، ثم فصله بجملي: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ و ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾.

2- تثبيت المعنى:

ونجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11). إذ إن جملة الفوز الكبير هي صلة للاسم الموصول ذلك، وصلت ما قبلها به لتثبيت المعنى. ونحو ذلك في قوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (الذين إذا أكتالوا على الناس يستوفون) (المطففين: 1-2). فالصلة هنا تثبيت لمعنى المطففين.

3- تقسيم الموضوع إلى أجزاء موصولة:

وهذه ظاهرة شائعة في القرآن الكريم، حيث يُعتمد أحياناً إلى الفكرة الرئيسة لموضوع ما، ويضعها في شكل جملة قصيرة أو طويلة، ثم يشرها في أجزاء موصولة مختلفة القرب أو البعد من الفكرة العامة، والقرآن في هذا لا يلتزم وتيرة واحدة في هذا العرض، فقد يجيء بالفكرة الرئيسة

أولاً، ثم ينثرها إلى أجزائها، وقد يقدم الأجزاء ثم يأتي بالفكرة من بعد... وهكذا⁽¹⁾. ونجزء عمّ
ذاخر يمثل هذا التقطيع الذي يؤدي فيه فن الوصل والفصل دوراً بارزاً.

ونلاحظ ذلك في سورة المطففين التي تبدأ بالآية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهي تشكل الموضوع
الرئيسي الذي ستتوالى أجزاؤه أو ملحقاته، وذلك في الآيات الآتية:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

﴿أَلَّا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾

والعكس سنجدّه في سورة الانشقاق التي ظهرت فيها الأجزاء قبل الموضوع الرئيسي على
النحو الآتي:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾

فالآيتان الأولى والثانية يتنظمهما نسق معين، والآيات الثالثة والرابعة والخامسة يتنظمها
نسق آخر، ثم الآية السادسة وهي الموضوع الرئيسي، وقد جاءت أجزاؤه قبله، فهي كلها تصبّ فيه،
وتقدير ذلك كالآتي: يأتيها الإنسان إنك كادح إلى ربك فملاقية إذا السماء انشقت...

(1) منير سلطان: الوصل والفصل في القرآن الكريم، ص 200.

4- تصوير الهيئة المنفصلة والهيئة المتصلة:

يقول الجرجاني: 'كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من (الواو) فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها - أي في صدر جملة الحال - فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد. وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت (الواو) فذاك لأنك مستأنف بها خبراً، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات⁽¹⁾. وساق الجرجاني كلاماً بعد هذا يبين فيه أن 'واو' الحال تؤدي وظيفة الربط بين الجمل، بالإضافة إلى وظيفتها الأصلية في تبيان حال صاحب الفعل⁽²⁾.

إذاً فصل الهيئة هو 'حال' جملة يؤتى به بدون واسطة الواو، ويكون الحال متماهياً في صاحب الحال، أو يكون فعل جملة الحال مندمجاً مع فعل صاحب الحال، وهما في حكم واحد. كان نقول: جاءني زيد يسرع. فأدخلنا الإسراع في الجيء وجعلناهما شيئاً واحداً.

أما وصل الهيئة فهو 'حال' جملة، تُستخدم معها إما 'واو' الحال، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ ۖ وَاتُّمَّ عِيْكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ (البقرة: 187). أو ضمير يتوب عنها، كقوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكْتَسِبُونَ﴾ (البقرة: 44).

ونجد فصل الهيئة في جزء عم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۖ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (المطففين: 22-23). والتقدير: يجلسون على الأرائك ينظرون، فالفعل 'يَنْظُرُونَ' وكأنه أدمج في الفعل 'يُجْلِسُونَ' وصاروا شيئاً واحداً. ونلاحظه كذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ (الفجر: 22). والتقدير: وجاء الملك يصفون صفا صفا. فتماهى الفعل 'يُجْلِسُونَ' مع الفعل 'جاء' مكونين هيئة منفصلة.

أما وصل الهيئة، فنجد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ وَهُوَ مُحْتَسِي ۖ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس: 8-10)، حيث وصلت 'واو' الحال 'جملة الحال' بالجملة السابقة. وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۚ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج: 19-20)، فربما

(1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 213.

(2) السابق: ص 214.

تكون الواو هنا للحال، وتؤدي غرض التعجب من كونهم يكفرون مع إحاطة الله بهم وهيمته عليهم. وعليه فتكون الواو قد وصلت بين الجملتين مكونة وصل الهيئة. ومثله قوله تعالى: ﴿وَبَلَّ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ (الأعلى: 16-17). فهنا الواو قد تكون للحال أيضا، والتقدير: بل تؤثر الحياة الدنيا في حين أن الآخرة خير وأبقى. وتؤدي غرض التعجب كذلك، وقد وصلت بين الجملتين مكونة وصل هيئة.

5- تناسب الإيقاع الصوتي مع الإيقاع الدلالي:

حيث إن الفصل والوصل إلى جانب أنهما يستخدمان في فصل المفردات والجمل، أو وصلها لأغراض بلاغية كما تبين، فهما كذلك يوصلان النغمات الإيقاعية للآيات أو يفصلانها بما يتناسب مع طبيعة الموضوع وما الملازم له⁽¹⁾. والفصل والوصل يقومان بذلك ضمن منظومة إيقاعية كاملة متعددة الأجزاء، مثل الفصص والطول والثبات والتغير والإطراء والتنوع، وهناك أيضا عنصر اللازمة والتي هي: آية تتكرر مرات على مدى السورة، بعد إيقاعات مختلفة؛ لتعمل على ربط الإيقاعات السابقة بتلك اللاحقة، إلى أن تأتي اللازمة التالية⁽²⁾.

وهذا التناسب للإيقاع الصوتي مع الإيقاع الدلالي الذي تسهم في تحقيقه ثنائية الفصل والوصل لمجده في جزء عم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۝

خِتَمُهُمْ مِنْ سَكِّ ۖ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ (المطففين: 22-26).

فهذا إيقاع هادئ مفصول، يحكي لنا حال الاسترخاء والنعم التي سينالها الأبرار، فتكثر

(1) منير سلطان: الوصل والفصل في القرآن الكريم، ص 217.

(2) السابق.

الباء والواو ليمثلا المد الزمني والاسترخاء النفسي⁽¹⁾. وفي سورة الشرح:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ (الشرح: 1-6).

وبالتأمل في الآيات السابقة نجد كفاف الخطاب هنا فيها تسرية للنفس، نفس النبي الكريم وبعدها تأتي ألف الإطلاق تصوّر الأمل الذي لا حدود له. كل ذلك في نعمات موصولة هادئة⁽²⁾.

(1) منير سلطان: الوصل والفصل في القرآن الكريم، ص 215

(2) السابق.

الفصل الخامس

المستوى البلاغي في "جزء عم"

القسم الأول: المستوى التصويري توطئة:

التصوير سمة بارزة في القرآن الكريم، فكلّ جزئية منه قد اتحدت مع غيرها، لتقدم مشهداً يتقاطع مع مشاهد أخرى في السياق، يبيّن روعة التصوير وجلالة المصور جلّ وعلا. والتصوير في القرآن يُعبّر بالصورة المحسّنة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية⁽¹⁾. و"جزء عم" شأنه في ذلك شأن باقي القرآن؛ يعتمد إلى تصوير الخوارج النفسية والنماذج البشرية والصفات المعنوية على شكل صور حسية متباينة ما بين بسيطة ومركّبة، لكنها تتشابه في كونها تضيّج بالحركة، وتمتاز بتضافر أدوات التصوير فيها، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز.

1- الصور الحسية في "جزء عم":

الصور الحسية: هي الصور التي تدركها إحدى الحواس الخمس، كالصور البصرية والسمعية والذوقية والشميّة واللمسية. وعُني العلماء قديماً وحديثاً بالصور الحسية في القرآن الكريم، كونها تجسّد المعنويات، وتقربها إلى الفهم، لتحرك سواكن القلوب، وتأخذ بتلايبب العقول. ومن العلماء القدامى الإمام الرّماني الذي لاحظ أنّ النقلة في الاستعارة القرآنية تبدأ من المعنوي العقلي، وتنتهي إلى الحسّي العيني الذي يعرض المعنوي من خلاله. ومن هنا سهل عليه أن يفترض أن استعارات القرآن الكريم وتشبيهاته تتناول معنى أصيلاً مجرداً، وتقديماً محسوساً، وذلك عن طريق ربطها المعنوي المجرّد بالحسّي العيني⁽²⁾.

(1) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشرق، بيروت، ط8، 1982، ص36.

(2) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت، ط2، 1983م، ص261-262.

وأما شيخ البلاغة الجرجاني⁽¹⁾ فالتفت إلى تلك الأهمية للصور الحسية، وعبر عن ذلك بقوله: إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأنيها بصريح بعد مكني، وأن تردّها من الشيء تعلمها إيّاه إلى شيء هي به أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكرة إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأنّ العلم المستفاد عن طريق الحواس، أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر في القوة والاستحكام⁽²⁾. أي نقل المعنى من المعنوي إلى الحسيّ متمثلاً بتجسيده أمام المتلقّي؛ كي ينفذ إلى فهمه بسرعة.

ثم جاء الإمام الزمخشري⁽³⁾ صاحب "الكشاف" لتبرز لديه ثلاثة مصطلحات في هذا المجال هي: التصوير، التمثيل، التخيل. ورأى أنّ التقديم الحسيّ للمعنى القرآني هو أسلوب أشمل وأعمّ من التشبيه والاستعارة، وأنّ الصور الحسية، حقيقية كانت أم مجازية، إنّما هي تصوير للمعنى وتهيئة له في مخيلة المتلقّي⁽⁴⁾.

واهتم المحدثون كذلك بالصور الحسية، فهناك من الغربيين كوفن⁽⁵⁾، الذي عدّ الأوضح في الصور الفنية، والأكثر ثباتاً من الأشياء المرسومة في الذهن، هو تلك الأشياء المحسوسة التي يمكن إبصارها وسماعها وتلمسها وشمّها⁽⁶⁾.

وينظر عبد الإله الصايغ⁽⁷⁾ إلى الصور الحسية وكأنها النافذة التي يستقبل بها الذهن رياح الحياة والتجربة، وهو محتاج في كثير من اعتمالاته إلى الحواس، لترجمة تلك الاعتمالات، فتكون الحواس بهذا المنحى أهمّ وسائل الذهن في الاستقبال والبت⁽⁸⁾.

ويبدو لي أن موضوع الصور الحسية يستحق كل هذا الاهتمام من الدارسين قديماً وحديثاً، لما يمثله من أسلوب راق في التعبير وتقديم المعاني، وتقريبها إلى الأذهان. ولما ينطوي عليه من تأكيد الصلة بين ذهنية الإنسان وحواسه المختلفة، تلك الصلة التي تجعله يقارب الأمور المعنوية مقارنة أكثر عمقاً. وهذا يؤكد مدى أهمية الحواس في فهم الحياة بشقيها المعنوي والمادي.

(1) الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد الأسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996، ص 99.

(2) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 267-268. وراجع الزمخشري: الكشاف، ج 2، ص 552. طبعة مصر.

(3) نعيم الباني: مقدمة لدراسة الصورة الفنية، دمشق، 1982، ص 74.

(4) عبد الإله الصايغ: الصورة الفنية: معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987، ص 406.

وظائف التصوير الحسي:

من وظائف التصوير الحسي في "جزء عم": التشخيص والتجسيم اللذان يقومان في المقام الأول على الاستعارة والكناية قبل التشبيه. وستناولهما بالتوضيح وإيراد الشواهد عليهما من الجزء القرآني الأخير، وستناول بعدهما كذلك موضوع الانزياح في الجزء، بما يتضمن من الكناية والتشبيه والمجاز، كلاً على حدة.

التشخيص:

هو: إسباغ الحياة الإنسانية على ما لاهية له، كالأشياء الجامدة والكائنات المادية غير الحية⁽¹⁾. وهو مِيزة من مِيزات الاستعارة، وليس فرعاً من فروعها، وتشكيلاً من تشكيلاتها⁽²⁾. وهو ضرب من ضروب الانزياح الأسلوبي، إذ هو صورة من صور الخروج عن المألوف، وانتظار اللامتظر، وتوقع اللامتوقع⁽³⁾. وغاية التشخيص في القرآن هو الهدف الديني بالمقام الأول، بإقامة صلات بين النفس الإنسانية وما حولها من موجودات؛ لإيقاظ التأمل الذي يمكن أن يقرب هذه النفس إلى الله خالقها سبحانه وتعالى.

ومن أمثلته في "جزء عم" قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۖ﴾ (التكوير: 17-18). فالقرآن في هذه الآية شخص ظاهرتين طبيعيتين، يجتمع فيهما المادي والمعنوي غير الحيين، وهما ظاهرتا الليل والصبح. الليل بظلامه وسكونه. والصبح بأنواره وانعكاساتها وظهور شمسها. فجعلهما وكأنهما كائنان حيّان؛ الليل يعسّ في الظلام بيده أو برجله لا يرى. والصبح يتنفّس، إشارة إلى بعث الحياة فيه، بعد أن كان ميتاً بفعل غياب الشمس وجثوم الظلام⁽⁴⁾. وأرى أن هذا التشخيص وارد في سياق قسّم عظيم على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وحقيقة استمداده الوحي من السماء، وبرأته من كل عيب يخدش رسالته، فجاء هذا التشخيص لينبّه الكفّار والناس جميعاً، ويقول لهم إنه كما يأتي الصبح فينفض غبار الليل والظلام عنه، وتدبّ فيه الحياة ويُبعث من جديد، وتأتلق فيه الأنوار، فكذلكم أنتم عليكم أن تنفضوا ظلام

(1) جبور عبدالنور: المعجم الأدبي، بيروت، 1979م، ص 67.

(2) عهود عبدالواحد: السور المدنية: دراسة بلاغية وأسلوبية، ص 202.

(3) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 183.

(4) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3842.

الجهل والكفر عن أنفسكم، وتبعثوها من جديد لتتألق بنور الحق والهداية، نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وربما وجدنا التشخيص كذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۖ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ (الزلزلة: 1-4). فيبدو لي أن القرآن في هذه الآيات شخص الأرض الجامدة، فجعلها وكأنها إنسان يتحدث وينطق بأخبار وأسرار كثيرة، لا بل كل الأخبار والأسرار التي كانت الأرض ساكنة عنها. وهذا التشخيص يدعو الإنسان إلى التأمل في هذه الأرض التي يعيش عليها، وتنطبع كل حركاته وسكناته فوقها، ويدعوه إلى التعامل معها على أساس أنها كائن حي يشعر ويحس ويعرف ويخزن، لذا فمن الواجب أن ينجل منها ويخاف، ويحذر أن تفضحه في يوم من الأيام، ويجهد أن يكون سلوكه فوقها مستقيماً صالحاً مرضياً عنه. وهذا من قبيل عقد الصلة بين النفس الإنسانية والموجودات المنظورة حوله؛ تنمية للإحساس الروحي لديه. وهو الأمر الذي أشار إليه أحمد فتحي رمضان⁽¹⁾.

ومن التشخيص الرائع في جزء عم كما يظهر لي، قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۖ﴾ (البلد: 6)، ولعله هنا شخص المال وجعله كائناً قابلاً للهلاك والموت. ليجعل الناس تتعامل مع المال على أنه كائن حي يموت بإنفاقه في طرق الشر والباطل، أو بالبخل وعدم إخراج الحقوق الشرعية، بينما يحيا بالتصدق والزكاة وإغاثة الملهوف ومساعدة كل محتاج. وهذا المعنى يدل على سياق الآيات اللاحقة لهذه الآية، فلتأملها وندرك ذلك المعنى. يقول تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۖ﴾ (البلد: 6) ﴿أَتَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۖ﴾ (البلد: 7) ﴿أَلَمْ نجعل لَهُ عَيْنَيْنِ ۖ﴾ (البلد: 8) ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۖ﴾ (البلد: 9) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۖ﴾ (البلد: 10) ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۖ﴾ (البلد: 11) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ﴾ (البلد: 12) ﴿فَكُ رَقَبَةً ۖ﴾ (البلد: 13) ﴿أَوْ إطْعِمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ﴾ (البلد: 14) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ﴾ (البلد: 15) ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۖ﴾ (البلد: 16) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ﴾ (البلد: 17-16). فهو مال ميت جرى إهلاكه لأنه لم يقتحم به العقبة، ولم يفك به رقة، ولم يطعم به يتيمًا أو مسكينًا، ولم يوصله ذلك المال ليكون من المؤمنين المتواصين

(1) أحمد فتحي رمضان: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 146.

بالصبر والتراحم. وبالتالي لم يجعله ذلك المال من أصحاب اليمين، فهو على ذلك مال ميت لا فائدة منه.

و في قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ^(١) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْدَةِ ^(٢) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ^(٣) فِي عَمَلٍ مُّمَدَّدَةٍ ^(٤) (الهمزة: 6-9). فإراه تشخيصاً لحال النار مع الكفار من أهلها، فهي في شدة نفاذها إلى خلايا الإنسان وأدق أجزائه فكانها مخلوق يتحرى ببصره أدق المواضع وأكثرها تأثيراً بالحرارة كي يهجم عليها ويفترسها، وهو مطبق على ما يريد أتم الإطباق بواسطة عمد معدة. وتلك صورة بصرية، والمعنى مستعار من الاطلاع على الدقائق. أو ربما في تصوير آخر، كانها ذلك المخلوق الذي يعرف أن هذه القلوب السيئة السوداء هي التي أودت بأصحابها إلى النار، فتحرّاهم لتنتقم منها، وهي تدرك تباينها في السوء والانحراف، فتكون درجة إحراقها لها مبنية على تلك المعرفة. والله أعلم.

ورأينا فيما سبق من شواهد في "جزء عم" كيف يشخص القرآن الكريم الأشياء الجامدة التي لا روح فيها، فيمنحها الحياة، ليقربها إلى الفهم أولاً، وليعقد صلة بين الإنسان وما حوله من موجودات مادية لإيقاظ التأمل والتفكير فيه ثانياً، مما يقربه إلى خالقه زلفى. فقد جعل القرآن الصبح يتنفس، والأرض تتحدث، والمال يموت، والنار تطلع. ليبين آثار هذه الموجودات، وفعاليتها في مسيرة الحياة.

التجسيم:

أشار إليه الجرجاني في معرض حديثه عن الاستعارة بقوله: إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها جُسِّمت حتى رأتها العيون ^(١). وكذلك أشار المحدثون إليه بقولهم إنه: "تحويل المعنوي المجرد من اللبوس والحدودانية المكانية إلى حسيات تُرى أو تُسمع أو تُلمس أو تُشم أو تُذاق" ^(٢).

وهو كما يبدو لي: رسم صورة مادية واضحة لها أبعاد مختلفة، لتوضيح أو تقريب اختلاج نفسي أو موقف حياتي أو سلوك إنساني، لا يمكن تصويره بدقة ما لم يُجسَّم بصورة مألوفة للناس،

(١) الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 41.

(٢) عبدالإله الصايغ: الصورة الفنية معياراً نقدياً، ص 417.

تشبه في حيثياتها ومراميها حيثيات ومرامي ذلك الشيء المعنوي من سلوك أو موقف أو اختلاج.
ومن التجسيم في جزء عمّ فيما يبدو لي قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۖ سَيَذَكِّرُ ۚ مَنْ تَخَشَىٰ ۚ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۚ﴾ (الأعلى: 9-11)، فرمّا جسم الذكرى المعنوية كأنها شيء مادي في طريقه، فيراها الأشقى من بعيد فيغيّر طريقه ويتجنّبها كي لا يراها، وهذا منتهى البغض والإعراض.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين: 5). الغرض هنا فيما يظهر لي تجسيم حال هذا الإنسان الذي أكرمه الله تعالى، وأنعم عليه بالعقل وبالشكل الجميل، ثم يختار هو طريق الباطل، فيكون مصيره ذلك المصير السيئ الذي لا سوء بعده. فعبر القرآن عن هذا المصير السيئ غاية السوء، والذي هو شيء معنوي، بشيء مكاني حسي مادي، هو أسفل سافلين أي أقصى الخفض. وهذا تجسيم لمعنيين: الانحطاط السلوكي والانحطاط المصيري.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: 10). هنا تجسيم للمعنويين: الخير والشر، أو الحق والباطل، يجعلهما طريقين محسوستين، وهذه صورة بصرية تنطوي على أبعاد دلالية جميلة، حيث إنّ الطريق فيها بداية ونهاية، وفيها مراحل ومزالق ومخاطر، وفيها طرفان عن يمين وشمال، ورفقة الشر ورفقة الخير، وهذا كلّ متحقق في حركة الإنسان نحو ربّه. وإذا ما عرفنا أن معنى النجدة لغويا هو الطريق الواضح، فسندرك مدى دقة هذا التجسيم، حيث طريقا الخير والشر، الهداية والضلال، الحق والباطل، واضحان جدا، وللإنسان أن يختار، وسيحاسب على اختياره، ولا حجة له بعد ذلك، ولا يمكن أن يدّعي أن الأمر لم يكن واضحا بيناً أمامه.

ويجسم القرآن عذاب النار والألم المعنوي الناتج عنه بطعام كربه مؤذٍ، بل ممت، في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبا: 30)، والتقدير: لن نزيدكم إلا زيادة عذاب. وهذا التجسيم الذي جعل العذاب المعنوي كأنه طعام مادي محسوس، فرمّا الغرض منه تنبيه الناس إلى أن كثيرا مما يذاق ويُستلذ به في الدنيا ويخالف نهج الله تعالى، سيتحوّل إلى ذواق زائد للعذاب الشديد في الآخرة.

2- الانزياح في جزء صم.

إن أدوات التصوير من كناية واستعارة ومجاز وتشبيه تشكّل ظاهرة أسلوبية متشعبة هي ما يطلق عليه الانزياح. وهو ما تقوم معظم مباحث علم البلاغة من بيان ومعان وبديع على أساسه. وكذلك لنجد الانزياح في النحو متمثلاً بصور كثيرة منها التقديم والتأخير، والمخالفة بين العدد والمعدود، والتذكير والتأنيث، وصور الخلاف النحوي، وغيرها⁽¹⁾. والانزياح كما أجمع على تعريفه النقاد أو كادوا: خروج عن المألوف أو عما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج عن المعيار لفرض قصد إليه المتكلم، أو جاء عفو الخاطر، لكنه يخدم النص بصورة أو أخرى، وبدرجات متفاوتة⁽²⁾. ولأهمية الانزياح بوصفه ظاهرة أسلوبية فقد قيل إن الأسلوب في أي نص أدبي هو في حقيقته انحراف \ انزياح عن نموذج من الكلام ينتمي إليه سياقياً⁽³⁾.

وعملية الانزياح تمتد تأثيرها إلى القائل والنص والمخاطب. والانزياح ما كان ليُلاحظ ويصير هو الأسلوب نفسه، لولا وجود المعيار المتمثل بالمستوى المثالي⁽⁴⁾. وهو -أي الانزياح- جاء لإخراج اللغة من دائرة المعاني المعجمية الضيقة والمعيارية المحددة، إلى دائرة النشاط الإنساني الحي⁽⁵⁾. ومن أهدافه لفت الانتباه، ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد. وكذلك تكريس البعد الجمالي في الأدب للوصول إلى ما سمّاه "رولان بارت" لذة النص⁽⁶⁾. وفيما سبق نلاحظ مستويات عدة من الانزياح، فمن مخالفة المعيار، إلى انزياح نص عن نص، إلى انزياح سياقي في البنية الكلامية الواحدة. ويبدو لي أن هذه المستويات تشترك في الهدف من وجودها في لفت الانتباه، ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد. وما يهمنا في هذا المجال هو المستوى الأول الذي يقوم على مخالفة المعيار، للوصول إلى الإبداع المتمثل بالكناية والاستعارة والمجاز.

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 188-192.

(2) عبدالسلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل السني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1977م ص 94.

(3) شفيح السيد: الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م، ص 51.

(4) محمد عبدالمطلب: البلاغة والأسلوبية، ص 268.

(5) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص 184.

(6) شكري عباد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، انترناشونال برس، القاهرة، 1988م، ص 79-81.

والقرآن الكريم هو كلام عربي مبين، استخدم الأسلوب العربي نفسه، بما يشتمل عليه من علوم البلاغة، وبما تتضمنه هذه العلوم من انزياحات بلاغية، تهدف إلى أغراض بلاغية مهمة، كما مرّ. ومستناول فيما يأتي مظاهر الانزياح في القرآن الكريم بصورة المتعددة، من كناية واستعارة ومجاز.

الكناية:

قل فيها إنها 'وَادٍ' من أودية البلاغة، وركن من أركان الفصاحة، وتفتقر إلى شيء من الدقة لما فيها من الغموض⁽¹⁾. والكناية لها تعريفات عدة، فهي عند بعض العلماء: التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالطاهر⁽²⁾. أو هي: ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم، فينتقل منه إلى الملزوم⁽³⁾. أو هي: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه⁽⁴⁾. ووفقاً للمنهج الأسلوبي وبالتحديد الوصفي منه، فإن 'جاكبسون' قد مثل الكناية بالمجاورة، التي هي الترتيب الذي اقتضاه السياق، وأن لكل كلمة موقعها فيه. في حين مثل الاستعارة بالاستبدال الذي يقوم على استبدال كلمة بغيرها، ويتبع ذلك تغييرات في الإسناد. فالكناية تعمل على ترتيب العناصر ضمن المجاورة، بينما تعيد الاستعارة تنظيم هذه الأشياء وفقاً لمبدأ الاستبدال والتداعي⁽⁵⁾.

ويشتمل 'جزء عم' على مجموعة من الكنايات، سبقت لأغراض بلاغية مختلفة، منسجمة مع السياق العام بشكل إبداعي لا مثيل له. فمن كنايات الجزء قوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا خِزَّةً﴾ (النازعات: 11)، فالقرآن هنا كنى على لسان الكفار عن معنى بقائهم أحقاباً طويلة في الأرض موتى. وغرض الكناية في هذه الآية تعليل تكذيبهم للبعث، فهم لمحدودية تفكيرهم ظنوا أنّ طول بقاء الميت في بطن الأرض وتحول عظامه نخرة، يوجب استحالة بعثه وإحيائه من جديد.

(1) عبد القادر حسين: القرآن والصورة البيانية، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1985، ص207.

(2) عبد العظيم بن عبد الواحد ابن أبي الإصبع المصري: تحوير التجبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ، ص143.

(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، دت، ج1، ص286.

(4) القزويني، محمد بن عبد الرحمن الخطيب: تلخيص المفتاح، مطبعة الحلبي، مصر، 1938م، ص307.

(5) إبراهيم خليل: الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997م، ص116.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيرَةً أَوْ ضُحًى﴾ (النازعات: 46)، كناية عن عدم شعورهم بمرور الزمن الطويل عليهم وهم أموات عظامهم نخرة، بعكس ما قد توفّموا، وسبق ذكرنا إياه، من أن طول المقام في بطن الأرض يوجب استحالة البعث.

أما في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين: 13). لقوله أساطير الأولين كناية عن التكذيب بآيات الله، حيث يجعلها بمثابة الخرافات التي لا تُصدّق. والغرض البلاغي وراء هذه الكناية هو الاستخفاف من هذا الإنسان المكذب الذي لا يعطي لعقله الفرصة لتأمل تلك الآيات. والآية دقيقة في التعبير عن سرعة تكذيبه واتهامه لآيات الله بالكذب والخرافة، حيث جاء الفعل قال بعد جملة إذا تتلى عليه آياتنا مباشرة بلا فاصل، واستعمل الفعل بصيغة الماضي؛ للدلالة على نيته المبيتة للتكذيب.

أما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (الأعلى: 13)، فأرى فيه كناية عن شدة العذاب، فليس الكافر حياً؛ لأن فوقه عذاباً لا حياة معه، ولا هو يميت؛ إذ لا موت في الآخرة. والغرض البلاغي إظهار الحال الفظيعة المأساوية التي يعيشها الكافر في نار جهنّم. والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (١٦) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (٢٠) (المطففين: 29-30)، يتضمن كناية عن الاستهزاء في يتغامزون. والغرض إظهار دناءة فعلهم، فهم تجاوزوا الاستهزاء اللفظي إلى الاستهزاء الحركي.

ونجد الكناية أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (١٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢٠) (القارعة: 6-7)، فثقل الميزان كناية عن الفوز والنجاة في الآخرة. وتشتمل الكناية هنا على غرض بلاغي رائع، هو لفت الانتباه إلى العدل الإلهي المتمثل بالحساب والميزان، ومن ثم حض الناس على عمل الخير، وزيادة الرصيد، كي تثقل موازينهم يوم القيامة. والأمر نفسه من الكناية في: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (١٧) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٢١) (القارعة: 8-9)، فخفة الميزان كناية عن الخسارة في الآخرة ودخول النار. وفيها تحذير من كل ما يوجب خفة الميزان في يوم الحساب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْصِ فِي الْعُقَدِ﴾ (القلق: 4)، كناية عن السحر، أو الساحرات. والغرض منها كما يبدو لي رسم صورة منفرة لهذه الفئة من الناس، حيث يمارسون حركات غريبة، ليست مما يتقبله الناس عادة، وذلك بهدف التنفير من عمل السحر.

كانت تلك مجموعة من كنايات "جزء عم". وقد لحظنا كيف تتعددت أشكالها وأغراضها، وكيف أنها منسجمة تمام الانسجام مع النسيج التعبيري في الجزء القرآني، فبعضها كنايات خفية، تحتاج إلى عميق تأمل لإدراكها، وفك رموزها، نظراً لتماهيتها مع سياقاتها.

المجاز:

المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي. والقرينة هي التي تبين لنا أن المعنى الحقيقي غير مراد، وأن المعنى المجازي هو المقصود⁽¹⁾. والمجاز قسمان، فهناك المجاز اللغوي، ومرجعه إلى اللغة، لأن الكلمة استعملت في غير ما وضعت له. وهو ينقسم إلى قسمين: مجاز مرسل، واستعارة. وهناك المجاز العقلي ويسمى المجاز الحُكْمِي حيث التغيير فيه ليس لغوياً، ولكن هو إسناد الشيء إلى غير ما هو له⁽²⁾.

وفيما يأتي نستعرض عدداً من المجازات القرآنية في "جزء عم" مبيّنين الأغراض البلاغية منها. وأولها نجد في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَتَبَصَّرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (النازعات: 8-9)، فقرينة أبصارها جعلت من "قلوب" مجازاً مرسلًا، حيث أتى بالجزء "قلوب" وأراد الكل وهو الناس. لأن القلوب ليس لها أبصار، وإنما الأبصار للناس أصحاب القلوب. وربما كان الغرض البلاغي من هذا المجاز هو تسليط الضوء على أكثر أعضاء الإنسان تأثراً في ذلك اليوم الرهيب وهو القلب، حيث هو مركز الخوف والرعب الشديد الذي سيتولّد بفعل ذلك اليوم.

ومثله في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (الغاشية: 2-3). قال الزركشي عنها: "يريد الأجساد لأن العمل والنصب من صفاتها"⁽³⁾. وهي على ذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء وأراد الكل. وربما غرضه الإشارة إلى الوجوه التي هي مرآة للنفس، تعكس ما يختلج فيها من مشاعر واعتمالات، لذلك يظهر عليها الشعور بالمهانة والخسران.

(1) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، دارالفرقان، عمان، ط 11، 2007م، ص 134، 136.

(2) السابق: ص 140-142.

(3) الزركشي: البرهان، ج 2، ص 264.

ومن المجازات قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: 6). قال عنها العز بن عبد السلام: "بإنعام ربك أو بحكم ربك"⁽¹⁾. ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار: 13). أي: لفي مكان فيه نعيم. وكذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6)، أي فملاقٍ جزاءه. وهذا المجاز غرضه تبيان أن الجزاء سوف يكون من جنس العمل، فكأنه هو. وهذا بحث ديني مفاده أن أنواع العذاب التي سيجازى بها الإنسان في الآخرة ما هي إلا حقائق ما كان يفعل من معاصي، لكنه كان في حجاب عنها. لذا يقول المولى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: 22).

ومن مجازات الجزء أيضا قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: 2)، أي يتلو مضمونها⁽²⁾. وهنا ذكر المحل وأراد الحال، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية. والغرض منه الإيجاز وتبيان أن المحل يستمد قدسية من الحال فيه، وكما يقال المكان بالمكين.

ومن تلك المجازات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (الماعون: 3). أي لا يحض على بذل طعام المسكين⁽³⁾. وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبِيَّةٌ خَاطِئَةٌ﴾ (العلق: 16). قال عنها الزركشي: "أخطأ صفة الكل فوصف به الناصية، أما الكاذبة فصفة اللسان"⁽⁴⁾. فهو مجاز علاقته الجزئية. وربما كان الغرض تبيان أن أبرز ما فيه الكذب والتكذيب بالحق، فكأنه بمثابة الناصية له، أي الجهة البارزة.

ومن المجاز في "جزء عم" ما يطلق عليه إطلاق اسم المطلق على المقيد. ويمثله قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ (الشمس: 14)، إشارة إلى ناقة صالح عليه السلام. قال الزركشي: "والعاقرة لها من قوم صالح هو قدار، لكنهم لما رضوا الفعل نُزِلُوا منزلة الفاعل"⁽⁵⁾ وفي كلام الزركشي "الكفاية في تبيان غرض هذا المجاز.

(1) العز بن عبد السلام: مجاز القرآن، ص 472.

(2) السابق: ص 476.

(3) السابق، ص 478.

(4) الزركشي: البرهان، ج 2، ص 269.

(5) السابق: ص 270.

ومن المجاز في 'جزء عم' ما يسمى إطلاق اسم الخاص وإرادة العام، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾ (التكوير: 14)، أي كل نفس⁽¹⁾. وكذلك إطلاق اسم المحل على الحال كقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (العلق: 17)، أي قومه الذين يجتمعون في النادي. ومن ذلك أيضاً إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الانشقاق: 24)، حيث يقول الزركشي: لما قال بشر هؤلاء بالجنة، قال بشر هؤلاء بالعذاب، والبشارة إنما تكون في الخير، لا في الشر⁽²⁾. وجاء هذا المجاز من باب السخرية بهؤلاء الكفار.

ومن أنواع المجاز كذلك إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل له في الحقيقة: كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النازعات: 39-40)، أي مقامه بين يدي ربه⁽³⁾. وربما كان الغرض منه إعطاء الموقف تلك الرهبة الكبيرة بنسبته إلى الرب تعالى. كانت تلك مجموعة من مجازات القرآن في 'جزء عم'. ورأينا كيف وظفها الأسلوب القرآني توظيفا فنيا بلاغيا، ولاحظنا كيف أنها كانت منسجمة مع سياقاتها، انسجاماً جعلها تخفى إلا على المتأمل.

التشبيه:

أ- التشبيه البسيط

وهو التشبيه المرسل المجمل غير المفصل الذي لا يُذكر فيه وجه الشبه، وإنما يستعان عنه بذكر صفة للمشبه به، كما سيتضح لاحقا. ويُذكر أداة التشبيه وهي الكاف، ولم يقع أن تكون أداة التشبيه اسما في 'جزء عم'، نحو مثل 'أو شبه' وغيرهما.

من التشبيه في 'جزء عم' ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة: 4-5)، فنلاحظ هنا تشبيها مرسلًا مجملًا باستخدام أداة التشبيه الكاف أسهم وجودها في التواؤم الموسيقي للسياق. ولنا أن نلاحظ

(1) الزركشي: البرهان، ج 2، ص 272.

(2) السابق: ص 283.

(3) السابق.

الدقة في تركيب المشبه به من موصوف وصفة فراش مبثوث، وعهن منفوش، حيث الموصوف وحده لا يفني بالمعنى المطلوب في هذا السياق، فالتناس في الحشر ليسوا كالفراش، من حيث هو فراش بذاته، بل من حيث هو مبثوث، لتحقيق معنى انتشارهم بعشوائية واضطرابهم، وكذلك معنى ضعفهم، لأنه من صفة الفراش الضعف والضاكلة. وكذلك الجبال ليست هي كالعهن الصوف، من حيث هو عهن، بل من حيث هو منفوش، لتحقيق معنى خفتها وتلاشيها وذهاب صلابتها. وبما تجدر ملاحظته في هذا الشاهد أن صفة المشبه به مبثوث ومنفوش قد قامت مقام وجه الشبه، فلم يكن هناك من داع للقول مثلاً: يوم يكون الناس كالفراش المبثوث في الانتشار والاضطراب. ذلك أن كلمة مبثوث أدت هذا المعنى أداء بلاغياً.

وهناك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: 5). نلاحظ في هذه الآية تشبيهاً من النوع المرسل المجمل كذلك، فهناك أداة تشبيه هي الكاف، ومشبه: أصحاب الفيل، ومشبه به: العصف، وهو موصوف بصفة مأكول، وهي الصفة التي لا يتم المعنى إلا بها، لأنها في الحقيقة تغني عن وجه الشبه فهي تدل عليه، أو على الأقل تقربه إلى الأذهان، ذلك أن العصف عندما يؤكل ويُطرح من أكله يكون هو العذرة أو الروث، وقد نزه القرآن نفسه عن ذكره، فكفى عنه بهذه العبارة⁽¹⁾. فالشاهد تتقاطع فيه الكناية مع التشبيه.

وإذا سلمنا أن الفعل قد يؤدي عمل أداة التشبيه، بحسب أحد الآراء⁽²⁾. فسيندرج ضمن التشبيهات التي وردت في جزء عم، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝﴾ (النبا: 6-7). وكذلك قوله في السورة نفسها: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيَاسًا ۝﴾ (النبا: 10)، في باب التشبيه، حيث نُظر إلى الفعل نجعل، جعلنا وكأنه أداة التشبيه. وقد التفت العز بن عبد السلام إلى الآية السابقة: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ وذكر أن فيها حذفاً، فالتقدير: جعلنا الأرض كالمهاد⁽³⁾. وأراني أميل إلى تخريج العز، فهو الأقرب إلى القبول.

(1) الزركشي: البرهان، ج2، ص305.

(2) عبدالقادر حسين: القرآن والصورة البيانية، ص76.

(3) العز بن عبد السلام: حجاز القرآن، ص470.

ب- الاستعارة

الاستعارة هي نقل اللفظ من معناه الذي عرف به ووضع له إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل. وهي منبثقة عن التشبيه، بل هي تشبيه مضمّر في النفس، محذوف أحد طرفيه⁽¹⁾. ولأنها من التشبيه فقد تناولناها في هذا الباب.

وقفنا على مجموعة استعارات في جزء عم، هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾⁽²⁾، حيث شبه السماء بالصفحة أو الشيء الذي يُكشط، أي يُزال، فحذف المشبه به، وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الكشط، على سبيل الاستعارة المكنية. والغرض منها فيما يبدو لي لفت الانتباه إلى أن هذه السماء لها نهاية، وأنها تخفي وراءها حقيقة ما، كالزجاج الملون، حين يُكشط اللون عنه يظهر لك ما خلفه.

الاستعارة الثانية نجدتها في قوله تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق: 3)، حيث شبه النجم الذي يشق ضوؤه الساطع الظلام، بالثقب الحاد الذي يشق الجلد وغيره. وهي استعارة مكنية كذلك. وربما كان الغرض منها التأكيد على شدة مراقبة الله للإنسان، فالآية التي تتضمن الاستعارة مرتبطة بالآية التالية لها: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الانشقاق: 24)، استعارة أسماها كثير من البلاغيين استعارة تهكمية أو تلميحية⁽²⁾. فاستعار أحد الضدين أو النقيضين للآخر، بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب، بطريق التهكم أو التلميح، ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر، والإفراد بالذكر ونصب القرينة⁽³⁾.

ويجدر الذكر أن بعض الاستعارات تناولناها في باب التشخيص، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾⁽⁴⁾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ⁽⁵⁾ (التكوير: 17-18). وقد بينا الغرض البلاغي من هاتين الاستعارتين بما يرتبط وموضوع التشخيص.

(1) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبدیع، ص 163.

(2) انظر السكاكي: مفتاح العلوم، ص 378. وأحمد مصطفى الطرودي التونسي: جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، تحقيق: محمد الجري، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1986م، ص 276-277. ومحمد بن علي الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص 215.

(3) السكاكي: مفتاح العلوم، ص 378.

وخلاصة القول في موضوع التشبيه، أن التشبيه البسيط المذكور طرفاه قليل في "جزء عم"، والاستعارة قليلة كذلك بالقياس إلى المجاز والكناية. ولكن مع قلتها فقد كان لها أغراض بلاغية عميقة، وتماهت في سياقاتها ثماها محكماً.

3. المشاهد في "جزء عم".

نقصد بالمشاهد هنا تلك اللوحات التي رسمتها الألفاظ والعبارات القرآنية بدون اللجوء بالضرورة إلى الصور والأدوات البلاغية، من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز، بل هي نقل أو رصد لواقع ما بالألفاظ والجمل التي تساق بأسلوب ما، لتعبر عن حيثيات ذلك الواقع أو ذلك الموقف تعبيراً يثير الانطباع المنشود، ويؤدي الغرض الذي يرمي إليه القرآن.

ومن مشاهد "جزء عم" الميزة ما نجده في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٢٥) إذ ناداه ربه، يَا لَوَادِ الْقُدْسِ طُوى (٢٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى (٢٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (٢٩) فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى (٣٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٣١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٣٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٣٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٣٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٣٥) (النازعات: 15-25). ولك أن تتأمل كيف رسم القرآن مشهد هذا الحاكم الجبار المتعجرف، المتخذ من قبل قومه إلهاً يعبد من دون الله، فرسمه بشكل ساخر شكلته العبارات القصيرة المتلاحقة فكذب وعصى، ثم أذبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى. وقد علق عليها سيد قطب بقوله: "يسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة، مجملاً مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها^(١) لكن "قطب" لم يعلل هذه المسارعة في السياق عند تلك الآيات بالذات. ويبدو لي أن هذه العبارات القصيرة السريعة كانت وكأنها تحريك سريع للمشهد القصد منه السخرية من حاكم متعجرف غبي. فالقرآن هنا أراد أن يزيل عن هذا الحاكم الجبار أي وقار، فحركه كما تحرك الدمى. ولاحظ كيف طالت الآيات نسبياً قبل هذا المشهد السريع وبعده. فآية مثل: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ تتكون من أربع كلمات. وآية: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ تتكون من خمس

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3815.

كلمات. في حين تتكون آيات المشهد الساخر - إن صحَّ التعبير - من كلمتين لكل منها. وقد تضافرت الحركة والصوت في رسم ذلك المشهد الساخر السريع، فتمثلت الحركة بالأفعال: أدبر، يسعى، حشر. أما الصوت فقد تمثل بكذب، عصي، نادى إذ إنها أفعال يعبر عنها بالصوت والكلام، ويلحظ أن هناك توازناً بين الصوت والحركة من حيث عدد الأفعال، فليس إيقاع الحركة هو السريع وحسب، بل إيقاع الصوت كذلك. وهذا من شأنه أن يجعل المشهد أكثر سخرية.

وهناك مشهد آخر لم يلجأ فيه إلى أية صورة بلاغية، ولكنه كان بليغاً في إيقاعاته، واختيار ألفاظه، ودقته في تصوير موقف الكافرين من المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۚ قَالَ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ﴾ (المطففين: 29-36). الفعل كانوا في مستهل الآيات كانت له وظيفة كوظيفة الأرشيف السينمائي، حيث يؤتى بمشهد قديم يُعرض أمام الناس للتدليل على واقعة قد حدثت، فيعرفون حداثتها ويقتنعون بحدوثها، ويكونون الانطباعات، ويتخذون المواقف بناء عليها. فيوضع الشريط، ويبدأ بصورة لكفار مجتمعين يتبادلون النكت والنوادر عن المؤمنين المستضعفين، ويتسابقون في أيهم الأكثر إضحاً للآخرين بما في جعبته من نوادر يسخر فيها من أولئك النفر الأبرياء. ويزيد ضحكهم واستهزاؤهم عندما يمر بهم جماعة من المؤمنين الذين كانوا يتندرون عليهم. ولا يقفون عند هذا الحد، بل ينقلون هذا الجو الساخر إلى بيوتهم، فيعيدون إلقاء كل تلك النوادر عن طائفة المؤمنين على نسائهم وأولادهم وخدمهم، كي يشاركوهم السخرية منهم، تنفيساً عن أحقادهم، ومواساة داخلية لأنفسهم التي ضعفت وجبنت عن مواجهة الحقيقة الناصعة المتمثلة بالإسلام العادل المنصف القويم المنطقي، بل ركنوا إلى أوهامهم وجهلهم، وإلى ما وجدوا عليه آباءهم من المخططات فكري وسلوكي، وأعرضوا عن دعوة الحق والمنطق والعقل. فلذلك عندما تواجههم لحظة تفكر قد تسلت عبر ذلك الظلام الدامس في نفوسهم، فإنهم سرعان ما يصدونها ويردونها بقولهم: إن هؤلاء لضالون.

هذا المشهد الديوي، حيث كانت الغلبة في وقت ما للكافرين، وكان المؤمنون فيه مستضعفين، لكنهم ثابتون على مبادئهم ودينهم القيم. وهو مشهد كما يقول سيد قطب متنزع من واقع البيئة في مكة، ولكنه متكرر في أجيال ومواطن شتى، مما يدل على طبيعة الجرمين المتشابهة في جميع البيئات والعصور⁽¹⁾. هذا المشهد الديوي يقابله مشهد أخروي يمثل قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٦٦﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٦٧﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾. فبعد عرض ذلك الشريط الذي صُوِّر في الدنيا، وشوهدت من خلاله سخرية الكافرين من المؤمنين واحتقارهم لإياهم، انتهى المشهد وقد ملئت القلوب غيظاً على أولئك الكافرين الجرمين الجاحدين المستهزئين. وملئت في الوقت نفسه أسفاً وحزناً على أولئك النفر من المؤمنين المستضعفين ورحمة لهم. وعندها تكون القلوب متعطشة لرؤيتهم وقد أنصفوا وردّ لهم اعتبارهم. فيعرض الشريط الأخروي المتضمن لمشهد المؤمنين وهم يضحكون من الكافرين، ويُفهم ضمناً سبب هذا الضحك منهم حيث هم في النار يُهانون، ويساقون، ويسحبون على وجوههم، ويأكلون الزقوم، ويشربون الصديد، وتضربهم الملائكة بمقامع الحديد. ينظر المؤمنون إلى كل ذلك فيشفي غليلهم، ويدركون أن الله سبحانه قد انتقم لهم من أولئك المستهزئين أتم الانتقام وأشدّه.

ويتهيء المشهد، ويقول العارض للمشهدين الأول والثاني: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ﴾، من باب الاستفهام التقريري. وغرضه تأكيد انتقام الله من أولئك الكفار المستهزئين، ورد الاعتبار إلى عباده المؤمنين.

والمشهد لعبت فيه الحركة دوراً لافتاً معبرة عن نوازع الكفار النفسية المتمثلة بالحقْد على المؤمنين والاستخفاف بهم، واستشعار الكبر والأنفة والفوقية عليهم. والحركة في ذلك المشهد أكثر ما تمثلت في حركات ميدانها الوجه: يضحكون، يتغامزون، فكهين، حيث جعل الوجه هو أداة التعبير عن نوازع أولئك المستهزئين. وما دام الوجه هو السطح للإنسان، عليه تطفو المشاعر الداخلية المختلفة، سلبية كانت أم إيجابية، فقد استخدمه القرآن كثيراً في تعبيره وبالاخص في 'جزء عم' للدلالة على النوازع الداخلية، وتقريبها إلى الذهن.

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 386.

ومما يسترعي الانتباه في ذلك السياق أيضاً هو استعمال لفظة 'أنقلبوا' مكررة مرتين. و'أنقلب' على وزن 'أنفعل' من أفعال المطاوعة، تستدعي وجود مؤثر ومحرك لإحداثها. والمقصود أنهم لم ينقلبوا إلا وقد كان هنالك ما قلبهم. وقد يكون هذا شخصاً أو ظرفاً، نحو جوع أو قضاء حاجة. وفي ذلك دلالة على حبهم للبقاء في اجتماعهم المستهزئ ذلك، وحرصهم على ممارسة ذلك الاستهزاء بدون توقف، لولا وجود ظرف قلبهم إلى أهلهم فانقلبوا.

ونلاحظ أن القرآن أطال في عرض المشهد السابق، وهذه الإطالة يعللها 'سيد قطب' تعليلاً جليلاً حين يقول: 'نجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري، كما أنه فن عال في العلاج الشعوري، فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقى من عنيت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق، وكان ربهم لا يتركهم بلا عون من تثبيتته وتسريته وتأسيسه.. وهذا التصوير المفصل لمواجههم من أذى المشركين، فيه بلسم لقلوبهم.. فربهم هو الذي يصف هذه المواجه، فهو يراها، وهو لا يهملها⁽¹⁾'.

ولا يمكننا أن نتناول المشاهد في 'جزء عم' ولا نتطرق إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة فيه، وهو الجزء الذي شكّل الموضوع الأكبر، والأكثر حضوراً في الجزء. ومن مشاهد يوم القيامة الكثيرة في 'جزء عم' ما نجده في سورة التكويد، حيث يقول تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ

أَنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلَفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾ (التكويد: 1-14). يعلق 'سيد قطب' على هذه السورة بقوله: الإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جاثحة. تنطلق من عقابها. فتقلب كل شيء، وتنتثر كل شيء، وتهيج الساكن وتروع الآمن، وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود..⁽²⁾ وفعلاً، فهنا مشهد خيف ليوم القيامة. ولنفترض أن الألفاظ في سياق هذه الآيات هي بمثابة كاميرا تصوّر ونحن نتابعها. تبدأ الكاميرا من الجزء العلوي للمشهد، أو لنقل الجزء السماوي: فنرى الشمس وقد أطفئت، وقُذِفَ بها في الفضاء.

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3862.

(2) السابق: ص 3837.

ثمّ تتحول الكاميرا إلى النجوم وهي تتناثر وتتساقط إلى الأسفل بشكل مربع. وهذا يستدعي بالطبع أصواتاً رهيبية لا نملك إلا أن نفترضها ونخيلها فتتشعر لها أبداننا. ثمّ تنتقل الكاميرا إلى الجزء السفلي من المشهد وهو الجزء الأرضي، وأول ما يطالعنا الجبال وهي تُنسف وتُزاح عن أماكنها، ويُسار بها وهي خفيفة كالصوف. ثمّ تنقطع صورة الجبال لتظهر فجأة صورة العشار، وهي النوق الحبلى لعشرة شهور والتي هي على وشك الولادة والاستفادة منها، وهي ثمينة نفيسة لدى أصحابها، ولا يمكن أن يدعوها إلا لأمر عظيم، فتهمل وتعطل بسبب الذعر والهلح⁽¹⁾. وتنقطع الصورة لتظهر صورة جديدة وهي صورة الحيوانات البرية المفترسة بكل أنواعها وهي تحشر وتجمع في مكان واحد، وما يستدعيه ذلك من ارتفاع أصواتها وأصوات عدوها، واحتكاك بعضها ببعض، وما يثيره من غبار وضجيج. وتنقطع الصورة لتظهر بعدها مباشرة صورة البحار وهي تشتعل فيها النار بقوة، وكأنها بحار نفط لا بحار ماء، على ما يتطلبه ذلك من أصوات ودخان ورائحة وغيره مما يترافق مع اشتعال رهيب. وتنقطع الصورة، وتظهر بعدها مباشرة صورة جديدة، هي صورة النفوس وهم الناس بأجسادهم، بعد أن تمّ بعثهم من القبور، وقد اقترن كل واحد بعمله يلازمه ولا يفارقه. وتنقطع الصورة، وتظهر الصورة اللاحقة وهي لقطة من موقف الحساب العصيب الرهيب، وهذه اللقطة تمّ اختيارها بعناية لتدمج مع هذا المشهد، وهي لبنت صغيرة كان قد دفنها أبوها وهي حية ظلما بدون أي ذنب اقترفته، ويسألها الرب عن الذنب الذي اقترفته، ذلك السؤال الاستنكاري الذي لا ينتظر له إجابة، بل هو للاستنكار وإظهار فداحة هذا الجرم. وعلينا أن نفترض ذلك المجرم الواصل موجودا في المشهد ولاريب، يستعد للاقتصاص منه بعد إقامة الحجّة عليه. وتنقطع الصورة، وتبرز صورة الصحف، أي كتب الأعمال التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، وهي الآن تنشر وتعرض أمام الناس، وهي أشبه ما تكون بأوراق النتائج التي تعلق للطلاب في موعد محدد ليعرفوا نتائجهم، فيفرح من يفرح، ويتحسر من يتحسر. وتنقطع الصورة لتظهر صورة لاحقة بدون توقف، وهي صورة رهيبية هذه المرة، تخلع القلوب من أماكنها، وهي صورة النار التي تستعر ويزداد اشتعالها وتمتد السنة اللهب فيها إلى أقصى مدى، وما يشتمل عليه ذلك من صوت رهيب لها وتغيظ وزفير وروائح. وتنقطع الصورة لتظهر صورة جديدة مغايرة تماما، صورة مريحة جميلة هذه المرة، صورة الجنة بجمالها وبهائتها وروائحها الطيبة، وابتسام الملائكة فيها مرحبين، والخور وكل النعيم.

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 6، ص 3838.

تنقطع الصورة لتظهر آخر صورة في هذا المشهد، وهي صورة لفئات من الناس قد تباينت مصائرهم، وقد ظهرت أمامهم أعمالهم الدنيوية جليلة، فمن ساءت أعماله فهو ينظر إليها متمثلة بالنار المستعرة المزججة التي تستعد لالتقاطه وافتراسه، ومن حسنت أعماله فهو ينظر إليها متمثلة بالجنة البهية الجميلة المنيرة العابقة تستعد لاستقباله وإغداقه بالنعيم.

هذا المشهد الذي أشبه ما يكون بما نسميه في أيامنا هذه الكليب "clip" التصويري، وهو الفيلم القصير الذي يتكون من مشاهد قصيرة متتابعة بحركة سريعة وإيقاع سريع، ويكون هدفه إحداث أقصى تأثير في نفس المشاهد. وهذا ما حدث فعلاً في هذا المشهد القيامي المتنوع، حيث تكون من مقاطع قصيرة لأحداث يوم القيامة، بعضها في السماء، وبعضها في الأرض، ظهرت متلاحقة سريعة، أحدثت في نفس مشاهدها أقصى الملع والرعبة، مما يجعله يراجع نفسه ويحاسبها ويعدل سيرها في الحياة، كي لا تنوء بأسوأ مصير في ذلك اليوم الرهيب.

والمشهد القيامي الذي صورَه القرآن بهذا الأسلوب الرائع، وبأقصر العبارات، وبأسرع الإيقاع، اشتمل على كلّ عناصر الصورة من حركة ولون ورائحة، وإن كان ظاهر الألفاظ يقدم الحركة حسب، لكن إيجاءات الألفاظ تقدم كذلك اللون والصوت والرائحة، فعلى سبيل المثال لفظة 'سُعِرَتْ' ألا توحى بلون اللهب الأحمر؟ وصوت طقطقة النار المتضرمة؟ وبروائح الاشتعال؟ ومثلها لفظة 'سَجَرَتْ'. وهذا إبداع قرآني يتمثل بجعل اللفظة الواحدة موحية بكلّ عناصر الصورة بدون ذكرها.

و'جزء عمّ مليء بمشاهد القيامة بتباين بينها، من حيث كمية الصور المحشودة، ولكنها كلها تعتمد على المقاطع الصغيرة المتلاحقة على طريقة الكليب' كما ذكرنا، وقد ناسب هذا طبيعة الجزء المتمثلة بقصر الآيات والصور، والإيقاع السريع، وهو ما تواءم مع طبيعة المرحلة المبكرة للدعوة الإسلامية، إذ كان الاعتماد على الومضات الإنمائية السريعة، التي تهدف إلى جذب العقول والقلوب والأنظار والأسماع.

القسم الثاني: المستوى اللفظي 'لجزء عم' (الوحدات السياقية)

1- التكرار اللفظي

التكرار هو: إعادة لفظ بعينه ليعطي فائدتين، إحداهما: معنوية ودلالية تعمق المعنى الذي حملته اللفظة المكررة، وتظهر أثرها في السياق، أو العكس حيث أثر السياق فيها. والفائدة الأخرى: صوتية، حيث يحقق التكرار تردد أصوات معينة تساعد على تهيئة جو لغوي يعمق المعنى ويسهم في تجسيده⁽¹⁾. وهو من جهة التحليل الأسلوبي يندرج في إطار الانزياح الكمي. ويسهم التكرار في تكوين ضرب من الاتساق المعجمي، بما له من بعد أسلوبي، حيث تربط الأدوات الاتساقية بين مكونات النص، وتجعل بناء متماسكا⁽²⁾.

أنواع التكرار اللفظي:

التكرار اللفظي أنواع، أشيعها: تكرار الجملة، وتكرار الكلمة، وتكرار الحرف. وهو يشتمل أنواعه يحدث نوعا خاصا من الإيقاع تلتزمه العبارة، لأغراض فنية ونفسية واجتماعية ودينية. وستتناول فيما يأتي أشهر أنواع التكرار وتطبيقاتها في 'جزء عم': تكرار الجملة، وتكرار الكلمة، وتكرار الحرف.

أ- تكرار الجملة:

نجد تكرار الجملة متحققا في عدد من آيات 'جزء عم'، كما هو في مستهل سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ (النبأ: 1-5)، حيث تكررت جملة ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ مرتين في آيتين متتاليتين كما هو ملحوظ. والتكرار هنا حقق فائدتين: الأولى معنوية؛ إذ إن الغرض من التكرار هو التأكيد والتشديد، ومعنى ثم: الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد⁽³⁾. والأمر نفسه ذكره صاحب التحرير والتنوير فيما يتعلق بفائدة ثم، فقال أن ثم هنا هي للترتيب الربطي؛ وهو أن مدلول الجملة التي بعدها أرقى رتبة

(1) سناء حيد البياتي: البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989م، ص 17.

(2) أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص 236.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 5.

في الغرض من مضمون الجملة التي قبلها، حيث هو أقوى من باب أن المتوعد الثاني أعظم مما يحسبون⁽¹⁾.

والفائدة الثانية: صوتية؛ ذلك أن لحن التهديد هو القرينة على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعاً⁽²⁾.

ونلاحظ هنا أن تردد الأصوات التي حققها تكرير الجملة ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ قد خلق جوا لغويا عمق معنى التهديد والوعيد لمتكري البعث، وجسده أحسن تجسيد. وشبه هاتين الآيتين نجده في سورة التكاثر للغرض نفسه، مع فارق أن الآية هنا استعملت فيها السين للتسويق، في حين استعملت سوف في آيتي سورة التكاثر. وتكرير ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ له فائدة معنوية إلى جانب أنه تأكيد على الوعيد والتهديد، تتمثل في تجسيده لمعنى التدرج في العقوبة، وإظهارها. فعند المعاينة يزداد، ثم عند البعث، ثم عند الحساب، ثم عند دخول النار⁽³⁾. أو أن التكرير أريد منه الفصل بين عذاب القبر وعذاب النار، حيث فصل بالحرف ثم لبعدهما⁽⁴⁾، ويبدو لي أن استعمال السين وسوف في الموضعين القرآنيين المذكورين، قد جاء تبعاً لطبيعة الموضوع؛ فالسين وهي للتسويق القريب، ربما ناسبت سرعة تحقق النبأ وهو البعث نسبياً، إذ سيتحقق للإنسان بمجرد موته، فهو لن يشعر بالأحقاب الطويلة التي ستمر عليه وهو ميت، وكأنه لبث يوماً أو بعض يوم. وربما ناسبت سوف التحقق من نتيجة التكاثر الدنيوي الخاسر بالنظر إلى التكاثر الآخروي الرابع، فالإنسان الكافر لن يتحقق من هذا بمجرد بعثه، بل إنه سيبقى خمسين ألف سنة، هي مدة حشره، إلى أن يتحدد مصيره، فيعرف حيثئذ خسارة التكاثر الدنيوي الذي كان يلهث وراءه، وإذا به وهم وباطل.

ونجد تكرار الجملة كذلك في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا

وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾

(الانشقاق: 1-5)، حيث تكررت جملة ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ مرتين في آيتين منفصلتين، جاءت الأولى متعلقة بالسماء، والثانية متعلقة بالأرض. والفائدة المعنوية لهذا التكرار هي تبيان أن كلاً من

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 12.

(2) الطباطبائي: الميزان، مج 20، ص 160.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج 32، ص 78.

(4) السابق.

السماء والأرض مخلوقتان لله مطيعتان. قالسماء محقوقة بأن تأذن لربها لأنها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سمكها، و اشتد خلقها، وطال زمان رتقها، فما ذلك كله إلا من تقدير الله لها، فهو الذي إذا شاء أزالها⁽¹⁾. والأرض كذلك.

أما الفائدة الصوتية لهذا التكرار، فهي متمثلة بالترديد الصوتي لآية ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، ما أشاع جواً صوتياً معبراً عن الانقياد والخضوع لأمر الله. ولنا أن نلاحظ هنا التواء الساكنة في كل من أذنت وحقت في كلتا الآيتين المتكررتين، وما حققه هذا التسكين الصوتي من تجسيد لتسكين معنوي يمثل الاستسلام والخضوع للأمر الإلهي.

وسورة الشرح تتضمن تكرار الجملة في آيتين المتتاليتين: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5-6)، حيث إن التأكيد والتثيت هما الفائدة المعنوية لهذا التكرار. أو قد يكون الاستئناف من باب أن في الآيتين دلالة على أن مع العسر الواحد يسرين، بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الأولى بخلاف النكرة⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن التنوين في كلمة يسراً للتنوين، لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، والمعية معية التوالي دون المعية بمعنى التحقق في زمن واحد⁽³⁾. بالمجمل فإن الفائدة المعنوية لهذا التكرار هي التأكيد الذي هدفه: "تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنه خبر عجيب"⁽⁴⁾.

أما الفائدة الصوتية لهذا التكرار فهي تتمثل بتضافر حرف الراء في الآيتين، وهو حرف يوصف في علم التجويد بأنه حرف تكرير، وتكراره أربع مرات في الآيتين في لفظي العسر، يسراً أوحى بتكرار هذين الفعلين في حياة الإنسان. غير أن لحوق تنوين الفتح بحرف الراء في يسراً، وهو التنوين الذي يتحول إلى ألف الإطلاق عند الوقف، أعطى - كما يبدو لي - لصفة التكرير في صوت الراء تحقّقاً أكبر، ووضوحاً أشد منه في لفظة العسر التي خففت حركة الكسرة تحت الراء فيها من حدة التكرير.

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 219.

(2) الطباطبائي: مج 20، ص 316.

(3) السابق.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 415.

ومن أمثلة تكرار الجملة أيضاً ما نلاحظه في سورة الزلزلة وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٦) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٧) (الزلزلة: 7-8)، فقد تكررت جملة ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وأرى أن تكرار ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾ بالتحديد هو للفصل بين عمل الخير وعمل الشر، فلم يجمعهما في فعل واحد، فلم يقل: ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومثقال ذرة شراً يره. وهو كذلك تأكيد على أهمية العمل مقروناً بالاعتقاد، وهو ما ذهب إليه كذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير^(١). وروي أن هاتين الآيتين أحكم آيتين في القرآن^(٢). لما فيهما من الوضوح في الدلالة التي حققها التكرار.

ب- تكرار الكلمة

ومثال عليه في جزء عمّ ما نجده في سورة المطففين: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ (٢) (المطففين: 7-8). وكذلك: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ﴾ (٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُون (٤) (المطففين: 18-19). فقد تكررت كل من لفظتي 'سجين' و'عليين' مرتين، ومن معاني 'سجين' أنها 'علم لواد في جهنم'^(٣). و'عليين' هو 'علم على مكان الأبرار في الجنة'^(٤). أما فائدة التكرار المعنوية للفظ 'سجين' فهي تهويل لأمر السجين^(٥)، وخصوصاً أنه سبقها الاستفهام بـ 'ما أدراك'، والأمر ذاته في تكرار لفظ 'عليين'. أما الفائدة الصوتية فهي متمثلة في النبر القوي المنبعث من التشديد في كل من 'سجين' و'عليين'، إذ يؤدي دوره بوصفه صوتاً تهويلياً إنذارياً في 'سجين'، وبوصفه صوتاً ترغيبياً حثياً في 'عليين'.

ونلاحظ تكرار كلمة الذي في سورة الأعلى في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) (الأعلى: 1-4)، حيث

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 495.

(٢) السابق.

(٣) السابق: ص 195.

(٤) السابق: ص 203.

(٥) السابق: ص 195.

تكررت ثلاث مرات، ولم يكتف بعطف الأفعال بعضها على بعض. وتتمثل الفائدة المعنوية لهذا التكرار - فيما أرى - بأوجه عدة: فهو من جهة تأكيد على عظمة الخالق و حضوره القوي في كل نعمة من تلك النعم المذكورة في الآيات. ومن جهة أخرى هو فصل للنعم بعضها عن بعض فصلاً زمانياً، حيث الهداية تتلو الخلق، وإخراج المرعى يتلو الهداية، وهكذا. وفصلها فصلاً رتیباً، إذ إن كل نعمة لها رتبها وأهميتها وخصائصها، فاستهلها بـ 'الذي' وكأنه بدأ بها. ومن ناحية صوتية فقد حقق هذا التكرار جوا لغوياً لافتاً مثيراً للتأمل في عظمة الخالق، ونعمه المتعددة، وعنايته بمخلوقاته في كل مراحلها.

وفي سورة الفجر يطالعنا تكرار لفظة 'دكا' مرتين في الآية 21: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. والتكرار هنا معناه: 'دكا بعد دك، كقولك حسبته باباً باباً، وعلمته حرفاً حرفاً، أي كرّر عليها الدك حتى صارت هباءً منثوراً'⁽¹⁾. ومن الناحية الصوتية أوحى صوت 'الألف' الذي مر معنا سابقاً باستمرار الدك، وهو ما وافق المعنى الحقيقي الذي ذكره 'الفخر الرازي' تماماً، وقوّته نبرة الشدة في وسط الكلمة.

وفي السورة ذاتها تكرار لفظة 'صفاً' مرتين كذلك في الآية 22: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، حيث أفاد التكرار هنا التقسيم والترتيب، ذلك أنه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفّاً بعد صف محدقين بالجن والإنس⁽²⁾. والفائدة الصوتية حققتها الشدة، وصوت المتمثل بألف الإطلاق وحرف الصاد الذي هو من أصوات الصغير، وهو كذلك صوت مفخّم⁽³⁾. فجسدت نبرة الشدة القطع والفصل بين كل صف وصف، وصوت العلة المستمر عكس استمرار الترتيب بلا خلل، في حين عكست الخاصية التفخيمية لصوت الصاد فخامة الموقف، و أفاد الصغير فيه لفت الانتباه إلى هذا الموقف العظيم.

وفي سورة التكويد يلفت الانتباه تكرار الكلمة إذاً وهي ظرف لما يستقبل من الزمان يستدعي متعلقاً، وهي كذلك شرط يؤذن بذكر جواب بعده⁽⁴⁾. وقد تكررت في السورة عشر مرات

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 173.

(2) السابق: ص 174.

(3) مناهج مهدي: علم الأصوات اللغوية، ص 69.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 140.

على النحو الآتي: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَامَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ⑭ ﴿(التكوير: 1-14).

وتكرارها بهذا النحو هو من قبيل الإطناب الذي يقصد التهويل، وهذا التكرار يشير إلى أن مضمون كل جملة من الجمل الاثني عشرة التي أضيفت إليها إذا هو مضمون مستقل بحصول جملة الجواب عند حصوله بقطع النظر عن تفاوت زمان حصول الشروط، فإن زمن سؤال المؤودة ونشر الصحف أقرب لعلم النفوس بما أحضرت أقرب من زمان تكوير الشمس و ما عطف على ما يحصل قبل البعث⁽¹⁾. والابتداء بـ إذا في كل الآيات المذكورة أدخل في التهويل والتشويق، وأكثر تقوية للمعنى وتأكيد رداً على إنكار منكريه، فلذلك قال: إذا الشمس كورت، ولم يقل: إذا كورت الشمس⁽²⁾.

وهذا التكرار الكثير للكلمة إذا أدى فائدة صوتية هي لفت الانتباه إلى كل تلك الظواهر المتعلقة بقيام القيامة، وأن كل واحد منها يكفي أن يكون إنذاراً قائماً بذاته أخرى أن يخاف منه السامع ويحذر، وخصوصاً إذا ما عرفنا أن الحرف إذا فيها صوت الهمزة، وهو صوت حنجري شديد انفجاري متبوع بصوت مغاير هو صوت الألف، الأمر الذي يوضحها أكثر، ويجعلها أكثر قوة في خدمة المعنى المراد.

وتكرار الكلمة كثير في جزء عم اكتفينا منه بما مر من شواهد، بينت التكرار وفائدتيه المعنوية والصوتية، ولعل فيها الكفاية في إضاءة الموضوع.

3- تكرر الحرف:

وهو كذلك كثير جداً في جزء عم، بل يكاد يكون من سمات الجزء. ومثال عليه ما نلاحظه من تكرار الحرف ثم في سورة عبس. ولنا أن نتأمل الآيات الآتية ليتضح لنا ذلك جلياً:

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج 15، ص 140.

(2) السابق: ص 146.

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٢﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسْرَهُ ﴿٤﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنْشِرَهُ ﴿٦﴾﴾ (عبس: 17-22). فقد تكررت ثم ثلاث مرات في ثلاث آيات متتاليات، مما أضفى على تلك الآيات جوا صوتيا يميزا جسدا أكثر من معنى في آن معاً. فهو إلى جانب إفادته العطف المتراخي، وهي وظيفة هذا الحرف الأساسية، فقد أعطى كذلك معنى السيطرة والهيمنة الإلهية على مخلوقه، بناء على ما تتضمنه ثم من نبرة الشدة القوية. والميم المشددة كما هو معلوم في علم التجويد حرف غنة مشدد يمد بمقدار حركتين مع الغنة، والشدة مع المدّ حققت هذه النعمة المهيمنة^(١).

أساليب التكرار اللفظي:

وتجدر الإشارة في موضوع التكرار اللفظي في 'جزء عم' إلى أنواع أخرى منه، يسهم ذكرها وإيراد الشواهد عليها في تجلية أسلوبية الجزء، وتحديد معالم التعبير فيه. والأنواع التي سنتناولها هي: الترديد، المجاورة، وأخيرا تكرار القالب الصوتي. وستتناول كل نوع بشيء من التفصيل، ونسوق عليه الشواهد التي توضحه في 'جزء عم'.

أ- الترديد:

هو: 'أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام، بمعنى أن يرددها بعينها ويعلقها بمعنى آخر'^(٢). وأطلق عليه ابن منقذ اسم 'التصدير'. وهو يدخل ضمن 'رد الأعجاز على الصدور'. غير أن التصدير مخصوص بالقوافي ترد على الصدور. والتريد يقع في أضعاف البيت^(٣). وقد انتبه المحدثون إلى الأثر الدلالي للتريد. يقول محمد عبد المطلب: 'ويكاد التريد يأخذ طابعا يميزا في قدرته على ترتيب الدلالة، والنمو بها تدريجيا، في نسق أسلوبى يعتمد على التكرار اللفظي'^(٤). وأشار إبراهيم سلامة إلى ما يقدمه هذا النوع من التكرار من دلالة وجمال وإثراء في

(١) حول استخدام حروف العطف في القرآن يمكن الرجوع إلى: عبدالفتاح لاشين: التعبير في القرآن: حروف القرآن، شركة مكتبات عكاظ، الرياض، 1983، ص 68-92.

(٢) ابن أبي الأصم: تحرير حبر التحير، ج 2، ص 253.

(٣) عبدالله بن المعتز: البديع في نقد الشعر، نشره أغناطيوس كراتشوفسكي، أعادت طبعه مكتبة المشي، بغداد ط 2، 1979م، ص 47.

(٤) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص 224.

الكلام العربي، حين قال إنَّ ردَّ الأعجاز على الصدور^١ نابع من ذوق العربي في الشعر، وحسنه يرجع إلى ما فيه من زيادة المعنى المرتكز على الإيجاء النابع من اللفظ الأول بتوقع الثاني، وهذا الإيجاء يذكر به عند الإنشاد، فهو رابط من روابط التذكّر، كما أنه -أي التردد- يسهم في الإيقاع الموسيقي للكلام^(١).

ومن التردد في جزء عمّ ما نلاحظه في سورة الطارق، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق: 15-16)، حيث التردد بين 'يكيدون' و'أكيد'. واضفى هذا النسق الأسلوبى التكراري جمالا على المعنى، وتدرجا لتعميق معنى الإمهال والإرصاء الإلهي لهؤلاء الكفار.

ومن التردد ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: 1-2). فالترديد بين 'بلد' الأولى والثانية. وربما كان الغرض منه الإلفات إلى عظم قدر هذا البلد وهو مكة.

ونلاحظ التردد كذلك في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَتُفَعِّلُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَتُفَعِّلُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 1-6). فنجد تكرار كلمة 'أعبد' في ثلاثة مواضع، وكل كلمة منها هيأت للآخرى على سبيل التردد. والغرض منه كما يظهر لي هو التأكيد على العبودية لله وحده، وعلى الفرق الكبير بين ما يعبده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما يعبده المشركون.

ب- المجاورة:

قال العسكري: 'هي تردّد لفظين في البيت، ووقوع كلّ واحدة منهما بمنجى الأخرى، أو قريبا منها، من غير أن تكون إحداها لغوا لا يحتاج إليها'⁽²⁾.

(1) إبراهيم سلامة: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مصر، ط2، 1952م، ص122.

(2) العسكري: الصناعتين في الكتابة والشعر، ص413.

ومثال عليه في 'جزء عم': ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: 5-7). ولك أن تتأمل تجاور ﴿خُلِقَ﴾ في ختام الآية 5 مع ﴿خُلِقَ﴾ في مستهل الآية 6، حيث جاء تجاوراً منسجماً ليس فيه أي لغو، بل على العكس فقد أضفى جمالاً وإيقاعاً. وأعطى فرصة التأمل والتفكير لدى السامع في خلق الإنسان. فلو أن التعبير كان: فلينظر الإنسان أنه خلق من ماء دافق. لما أثار التأمل والتفكير والتوقف مع النفس بالدرجة التي يثيرها التعبير المتحقق في الآيتين الكريميتين.

والأمر نفسه لنجد في سورة المطففين في الآية رقم 31: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾، حيث جاء تجاوراً أنقلبوا الأولى مع الثانية بشكل منسجم بدون ركاقة أو حشو. وانطوى التعبير على معنى دقيق، لعلّي أحرزته بعد تأمل، وهو أن انقلاب هؤلاء الكفار واختلافهم إلى بيوتهم وأهاليهم قليل، بدليل استعمال إذا، ويبدو لي أنها والفعل أنقلبوا شكلتا أسلوب سخرية منهم. ونحن نستعمل ذلك في حياتنا اليومية، فمثلاً نقول ساخرين من إنسان كثير النوم: هذا الرجل إذا استيقظ يستيقظ ناعساً! فهؤلاء الكفار بطالون، ليس عندهم القدر الكبير من تحمل المسؤولية، وإنما همهم اللهو والتلذذ خارج البيت، والاستهزاء بالآخرين. وليس بمستغرب من مثل هؤلاء أن يعادوا الإسلام ويعارضوه ويرفضوه، وهو دين الالتزام والمسؤولية والعمل. ونجد المجاورة كذلك في سورة العلق: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (العلق: 15-16).

وأمثلة التكرار بشئى أنواعه كثيرة في 'جزء عم'، وهي مزية من مزايا هذا الجزء، تضاف إلى ما ذكرناه في التمهيد، ولو أردنا إحصاء ومناقشة كل أمثلة التكرار فيه لاحتاج الأمر إلى أضعاف هذه الصفحات التي خصصناها لهذا الموضوع، وهذا ما لا تسمح به طبيعة هذه الدراسة ومنهجها، من حيث شمولها وعدم قصرها على موضوع التكرار وحده⁽¹⁾.

(1) للمزيد من شواهد التكرار المتعددة في جزء عم، انظر: سورة النبأ، الآيات 6-13. و سورة النازعات في كل آياتها. سورة البروج: الآيات 10-13. سورة الفجر: الآيات 23-25. سورة العلق: الآيات 9-13، سورة البينة في كل آياتها، وللمزيد حول أغراض التكرار انظر: محمود السيد شيخون: أسرار التكرار في لغة القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1983، ص 52-64.

2- التقابل والتماثل:

إن الملمح الإشاري للغة له ذلك الأثر الكبير في تكوين الدلالة، ذلك التكوين المؤدي إلى بلورة صورة للخطاب الأدبي تساعد على فهمه بطريقة جمالية تترك تأثيرها على المتلقي، بقدر ما انفعل معها المبدع ذاته. ورصد الدلالة وإنتاجها يعتمد على رصد وحدات تعبيرية، كذلك رصد شبكة العلاقات التي تربط بين تلك الوحدات، وبلورة ذلك كله في بوتقة واحدة تعود إلى السطح أولاً، ثم تمتد إلى الذهن ثانية⁽¹⁾.

أولاً: التقابل، وهو قسمان: أ. التقابل المعجمي المفرد: وهو ما سماه أحمد أبو زيد: التقابل البسيط⁽²⁾. وهو أن تقابل كلمة كلمة أخرى، ضمن سياق تقعان فيه، عماده التقابل الكاشف عن الدلالة التي استدعت إيرادها⁽³⁾. ويبدو لي أنه الطباق نفسه.

ونلاحظه في جزء عمّ في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا آلِيلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۚ﴾ (النبأ: 10-11). وفيه دلالة على قدرة الله تعالى على الخلق المتباين. وفي سورة النبأ نفسها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۚ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۚ﴾ (النبأ: 24-25). والتقابل هنا بين برداً وحميماً واضح، والهدف منه جلبي في تعميق الخسارة الكبيرة التي مُني بها الكفار في مصيرهم الآخروي، وكان متاحاً لهم أن يحصلوا على ذلك الشراب البارد لو أنهم أطاعوا الله واتبعوا آياته. فلو كانت الآية على نحو: يذوقون فيها حميماً وغساقاً. ولم تشتمل على ذكر البرد والشراب من باب التقابل، لما تعمق معنى خسارة الكافرين بالمستوى الذي أحدثته التقابل.

وفي سورة عبس نجد التقابل المعجمي المفرد في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ﴾ (عبس: 38-41). ونلاحظ المقابلة الواقعة بين كل من مسفرة وعليها غبرة من جهة، وضاحكة وترهقها قتر من جهة أخرى. حيث هي مقابلة بين حال المؤمنين وحال الكافرين يوم القيامة. والمقابلة في شقها الأول ركزت على الجانب المادي، حيث إشراق وجوه المؤمنين وبياضها وصفائها، في مقابل اغبرار وجوه

(1) محمد عبدالمطلب: بناء الأسلوب في شعر الحديث: التكوين البديعي، 1988، د.ن.

(2) أحمد أبو زيد: التناسب اللفظي في القرآن، ص 137.

(3) عهود عبدالواحد: السور المدنية، ص 106.

الكافرين وعدم صفائها. أما المقابلة في شقها الثاني فقد ركزت على الجانب المعنوي، حيث عزة المؤمنين واستبشارهم وفرحهم ، في مقابل ذلة الكافرين وحسرتهم وحزنهم، التي عبّر عنها بالفترة. وفي سورة التكوين نجد التقابل المفرد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۖ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۖ﴾ (التكوين: 12-13)، حيث تقابل كلمة الجحيم كلمة الجنة ضمن مجموعة من مظاهر يوم القيامة، فالجحيم تُسعر بعد أن تُقرب من الكافرين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۖ﴾. وكذلك الجنة تُقرب من المؤمنين، إما القرب المكاني أو القرب الزمني، بمعنى أن مدة حساب المؤمن تكون قصيرة جداً، فهو قريب من الجنة وهي قريبة إليه، بعكس الكافر الذي يكون مقدار يوم الحساب عليه خمسين ألف سنة، كما صرح القرآن بذلك، لكن بالرغم من ذلك فإن أمامه جحيماً مسعراً يعذب بها نفسياً، قبل أن يدخلها ليعذب بدنياً.

ومن التقابل المفرد الطباق هو متضمن في سورة الشرح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ﴾ (الشرح: 1-6)، حيث التقابل جلي بين وضعنا وزرعنا، فهو يسوق دلالة رائعة، مفادها أن الوضع والرفع بيد الله تعالى، فحيثما يكون الوضع نعمة، لنحو وضع الوزر، ووضع الهم، فالله يضع. وحيثما يكون الرفع هو النعمة، كرفع الذكر، ورفع القيمة، فالله هو الرافع سبحانه. فالتقابل عزز هذا المعنى بطريقة جميلة. وهناك تقابل آخر في السورة، بين العسر ويسراً، وهو تقابل دلالة بث روح التفاؤل والأمل لدى المؤمن، إذ لا بد أن يتلو أي عسر يسراً، وهذا من شأنه ألا يجعل اليأس يتسلل إلى قلوب الفئة المؤمنة.

ب- التقابل المعجمي المركب:

وهو تقابل الجمل، وقد يشتمل على جمل متعددة. ونجده في سورة النازعات في الآيات الآتية: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ (النازعات: 37-41)، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾ (النازعات: 37-41). وفي هذه الآيات تقابلت صفات فئتين متناقضتين: فئة المتقين، وفئة الكافرين على النحو الآتي:

المؤمن

خاف مقام ربه.

الكافر

طغى.

نهى النفس عن الهوى.

آثر الحياة الدنيا.

الجنة هي المأوى.

الجحيم هي المأوى.

وهذا التقابل المركب تدرج من المرحلة الأولى، وهي للكافر الطغيان، وللمؤمن الخوف من مقام الله، إلى المرحلة الثانية، وهي نتيجة للأولى، فنجدها إيثار الدنيا ونسيان الآخرة للكافر، وهي للمؤمن نهى النفس عن الهوى. ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي المصير الآخروي، فنجد الجحيم للكافر، والجنة للمؤمن. وهذا التدرج في التقابل فيه ما فيه من تحذير للإنسان أن لا يتمادى في مراحل المخالفة لله، حتى لا يلحق ذلك المصير السيئ، وكذلك فيه ما فيه من التشجيع للإنسان أن يتدرج في مراحل الطاعة الإلهية، حتى يكون مصيره الآخروي حسناً.

وسورة المطففين تتضمن تقابلاً مركباً جلياً في الآيات الآتية: ﴿كَلَّا إِن كِتَابَ الْفَجَارِ لَئِي سَجِينَ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٣﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٤﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّتِ الدِّينِ ﴿٦﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٢﴾ كَلَّا إِن كِتَابَ الْأَنْبَرِ لَئِي عَلَيْهِتِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْهِتٌ ﴿١٤﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿١٥﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْأَنْبَرِ لَئِي نَعِيمٍ ﴿١٧﴾ عَلَى الْأَرْبَابِ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿١٩﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٠﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌَ ﴿٢١﴾ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَرْجَاهُ مِنْ نَّعِيمٍ ﴿٢٣﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (المطففين: 7-28). وهذا التقابل شأنه شأن التقابل في المثال الأول، فهو يبين صفات متقابلة لحال الأبرار وحال الفجار في الآخرة، على النحو الآتي:

| | |
|-----------------------|--------------------------------------|
| الأبرار | الفجار |
| كتابهم في عليين. | كتابهم في سجين. |
| يشهد كتابهم المقربون. | لا يشهد كتابهم المقربون. |
| لم يكذبوا بيوم الدين. | كانوا يكذبون بيوم الدين. |
| إن الأبرار لفي نعيم | إنهم لصالوا الجحيم |
| على الأرائك ينظرون | إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون |
| في وجوههم نضرة النعيم | يلامون ويقال هذا الذي كنتم به تكذبون |

ولا يخفى كم أسهم هذا التقابل في تعميق وتجلية صفات كل فئة في مقابل صفات الفئة الأخرى، من باب أن الإنسان لا يستشعر قيمة النهار إلا إذا خرج من ظلام دامس قد خبره، ولا يعرف قيمة الصحة إلا إذا خرج من مرض أرهقه، فالضد يظهر حسنه الضد.

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر التقابل، بل معظمه، في 'جزء عم'، تناول هذه القضية بالذات؛ أي مصير كل من المؤمنين والكافرين في الآخرة، وليس هذا بمستغرب على جزء قرآني كان أظهر موضوعاته هو القيامة والحساب والجزاء، كما قد تبين لنا في المستوى الدلالي من هذه الدراسة⁽¹⁾.

ثانياً: التماثل.

هي ظاهرة تتصل بالتقابل، إذ إنها تؤول إلى المشابهة ظاهرياً، لكن عنصر المفارقة فيها سرعان ما يبين عند التأمل فيها، بحيث تتراكم الدوال ملازمة لدلولاتها تارة، ومنحرفة عنها تارة أخرى⁽²⁾. وتناول القدماء مثل هذه الظاهرة تحت اسم 'المشاكلة والعكس'، لكنهم لم يتجاوزوا الشكل فيها، حيث إن المشاكلة عند الفراء 'السكاكي' هي: 'أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته على التحقيق أو التقدير'⁽³⁾. وعرفها التبريزي بقوله: 'المشاكلة أن يجمع الشاعر في البيت كلمتين

(1) للمزيد عن المقابلة في القرآن انظر: ابن عيسى باطاهر: المقابلة في القرآن الكريم، دار عمار، عمان، 2000م، وللإطلاع على شواهد أخرى في جزء عم انظر: سورة الغاشية، الآيات 1-16، وسور الفجر، الآيتين 15-16. والليل، الآيات 5-10، البينة، الآيات 6-8، الزلزلة 7-8، والقارعة 6-11.

(2) محمد عبدالمطلب: بناء الأسلوب في شعر الحداثة، ص 323.

(3) السكاكي: مفتاح العلوم، ص 200.

متجاورتين، أو غير متجاورتين، شكلهما واحد، ومعناها مختلفان⁽¹⁾.

وللمشاكلة أو التماثل أهمية التفت إليها المحدثون أيضاً. يقول محمد عبد المطلب: إن الألفاظ المشاكلة تكتسب من المجاورة تمازجاً في الدلالة، يخرجها عن النمط المألوف، ويعدل بها عن دلالة المطابقة إلى الناحية الإبداعية، وهذا التمازج لا يتمثل بال تكرار المحسم في العبارة، بل إنه يتحقق ذهنياً من خلال تقدير المجاورة للدلالة، وما يستتبع ذلك من تمازجها⁽²⁾.

ونأتي إلى التماثل في 'جزء عم' للوقوف على جماليته، والغايتين الأسلوبية والمعنوية منه، فنلاحظه في سورة الطارق في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ﴾ (الطارق: 15-16). وقد علّق الفخر الرازي على هذه الآية بقوله: أعلم أن الكيد في حق الله تعالى محمول على وجوه: أحدها دفعه تعالى كيد الكفرة عن محمد عليه الصلاة والسلام، ويقابل ذلك الكيد بنصرته وإعلاء دينه، تسمية لأحد المتقابلين باسم مقابله، كقوله تعالى 'وجزاء سيئة سيئة مثلها'⁽³⁾.

ومن التماثل أيضاً ما نجده في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ خَلَلْ وَاسْتَعْتَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ (الليل: 5-10)، حيث روى الفخر الرازي في تفسيره عن القفال معلقاً على آية ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾

التي قابلت آية ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ وشاكلتها، قوله: إن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور قال تعالى: 'وجزاء سيئة سيئة مثلها' وقال: 'فبشرهم بعذاب اليم'، ولما سمى الله فعل الألفاظ الداعية إلى الطاعات تيسيراً لليسر، سمى ترك هذه الألفاظ تيسيراً للعسر⁽⁴⁾. ويتضح من كلام القفال السابق معنى المشاكلة والتماثل بين 'يسره' التي اقترنت باليسر، وهي منسجمة وطبيعية، وبين 'يسره' المقترنة بالعسر، والتي سوّغها التماثل مع ما سبقها. والتماثل أو المشاكلة هنا - فيما أرى - تنطوي على سخرية بأصحاب العسر، وهم الكفار، وإهانة لهم، كقولنا للإنسان السيئ من باب السخرية: يا محترم! وهذا شائع جداً. وفي قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾

(1) الخطيب التبريزي: الوافي في العروض والقوافي، نج: فخر الدين قباوة وعمر مجين، دمشق، 1395 هـ ص 296.

(2) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص 225.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص 133.

(4) السابق: ص 200.

مشكلة أخرى هي مشكلة التجنيس⁽¹⁾. أي أن فيهما جناساً ناقصاً.

واقتران لفظة يُسَرُّه بلفظة العسرى في الآية السابقة يذكرنا بما قاله ريفاتير ضمن نظرياته في الأسلوبية البنيوية حول ما أسماه السياق الأصغر، وهو السياق المولّد بناءً على الخلاف، وله وظيفة بنيوية باعتباره قطبا لثنائية يتقابل عنصراها، ويكونان معا ما يسميه ريفاتير وجها أسلوبيا. ولا ينشأ الأسلوب إلا عند الربط بين الضدين، فليس لأحدهما تأثير بدون الآخر، والربط بينهما هو - عادةً - ربط غير متوقع، يثير دهشة القارئ⁽²⁾.

3- الإجمال والتفصيل:

ويندرج تحت هذا المصطلح ثلاث قضايا بديعية، هي: التقسيم، والجمع، والتفريق. ذلك إن الإجمال والتفصيل مصطلح يشكّل طبيعة أسلوبية تجري فيها الأنساق اللغوية التي تتشكّل على وفق علاقات بنائية مختلفة، تكشف عن الحكمة العقلية التي شكّلت النص المكتوب، وذلك إن العقل يتحرك بطبيعة تفصيلية، تكشف عن أنّ هذه الفكرة تتحلّل إلى عناصر جزئية صغيرة غير قابلة للتجزئة أحيانا، أو إنها تتحرك مع عناصر مختلفة تكون هذه العناصر مجتمعة فكرة عامة أو كلية، ومن هنا فإن ذكر الشيء، ثم تقسيمه إلى عناصر مختلفة، شيء واحد، أو ذكر شيء، وتفريقه مع عناصره، ما هو إلا أسلوب في الإجمال والتفصيل⁽³⁾.

والتقسيم عند البلاغيين هو: أن تقسم الكلام على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه. وقال فيه ابن الأثير: "ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذكرت قام كلّ قسم بنفسه، ولم يشارك غيره"⁽⁴⁾. والتقسيم عند السيوطي هو: استيفاء أقسام الشيء الموجودة، لا الممكنة عقلا⁽⁵⁾.

(1) أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص 264.

(2) حمادي صمود: الوجه والقفاء في تلازم التراث والحداثة، ص 171-172..

(3) فايز الفرعان: الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم: دراسة تحليلية. مجلة أبحاث اليرموك، مج 12، ع 1، 1994م، ص 10.

(4) أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري: المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر، قدمه وحقق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القسم الثاني، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، 1960م، ج 2، ص 204.

(5) السيد الجميلي: البلاغة القرآنية المختارة من الاتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطي، دار المعرفة، القاهرة، 1993م، ص 150.

أما أجمع فقد عرفه السكاكي بقوله: أن تدخل شيئين فصاعداً في نوع واحد⁽¹⁾. والسكاكي ذاته عرف التفريق بقوله: هو أن تقصد إلى شيئين من نوع واحد فتوقع بينهما تبايناً⁽²⁾. وهناك أجمع مع التفريق فهو: أن تدخل شيئين في معنى واحد، وتفرّق بين جهتي الإدخال⁽³⁾. أما أجمع مع التفريق والتقسيم فهو أن تشترك هذه الألوان الثلاثة. والمصطلحات السابقة كلها تدور إما حول تجميع مفرّق، أو تفرّق مجمّع، وله دلالة السياقية التي تستدعي هذه الأشكال التعبيرية.

أبنية الإجمال والتفصيل:

1- البنية الثنائية:

وهي أن يتعلق بالإجمال عنصران متضامنان في التفصيل لا أكثر. وهذه البنية تتحرك وفق مستويين: المستوى الأول: الأفرادي؛ حيث العناصر فردية غير مرتبطة بمفردات أو تراكيب، توصلها إلى الإجمال لعدم حاجتها إليها. ثم المستوى الثاني: التركيبي؛ حيث يعتمد فيه العنصران على الفاظ وتراكيب توصلهما بالإجمال⁽⁴⁾.

ومثال على المستوى الأول في جزء عمّ قوله تعالى في سورة النبأ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (النبأ: 24-25). فالإجمال هنا في لا يذوقون والتفصيل في برداً ولا شراباً. ونلاحظ أن العنصرين برداً، شراباً منفردان على المستوى الشكلي، ويتوصلان معاً على المستوى البنائي بالتركيب، حيث يشكّل كل منهما جزءاً مما يذاق. ثم هناك تفصيل لاحق ذكره جلال الدين عبدالرحمن باسم بيان التغيير وقصد بالبيان أي التفصيل، وأوضحه بقوله: هو أن يتغيّر ببيانه معنى كلامه، فيظهر معنى غير ما أثبت صدر الكلام في نفس السامع عند بدء التلقّف، فصدر الكلام يتعدّد علة لوجوب الكلّ، إلّا أنّ الاستثناء منع إيقاع معناه حتى يتصل باللفظ المغيّر، ويؤدّيان معنى واحداً هو مراد المتكلّم من أول الأمر، وهذا قائم في التعليق بالشرط والاستثناء⁽⁵⁾. فمراد الآية السابقة هو أن تثبت أنّ شراب أهل النار هو الحميم والغساق، لكنّها عبّرت عن ذلك

(1) السكاكي: مفتاح العلوم، ص 200.

(2) السابق: ص 201.

(3) السابق.

(4) السابق.

(5) جلال عبدالرحمن: الإجمال والبيان ووضعهما في نصوص الأحكام، مطبعة السعادة، القاهرة، 1984م، ص 102-103.

بإجمال أولي نفى أنهم يذوقون برداً ولا شراباً، ثم جاء الاستثناء ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ ليوضح المراد من الآية. وهنا الإجمال والتفصيل أعطى بأسلوب جميل دلالة مركبة تتضمن العقاب من شقين، الأول: عقاب شرب الحميم والغساق، وهو الحار والمنتن من الشراب. والشق الثاني: هو الحرمان من الماء الذي يبرد حرّ السعير عنهم، والحرمان من الشراب الذي يرويه من شدة العطش⁽¹⁾.

وفي سورة النبأ نفسها مثال آخر على المستوى الإفرادي من البنية الثنائية للإجمال والتفصيل، في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ (النبأ: 35). فالإجمال في لا يسمعون فيها والتفصيل في لغوا ولا كذاباً حيث إن لغوا، كذاباً مفردان شكلياً، ولكنهما متصلان بنائياً مع الإجمال، ويشكلان جزءاً منه، وكلاهما يدخل في دائرة السمع. والغرض فيما يبدو التأكيد على مدى تنزيه الله تعالى لأسماع أهل الجنة.

ومن الإجمال والتفصيل فيما يبدو لي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (فرعون: ١٧) وَثَمُودَ (١٨). فالإجمال هو الجنود، والتفصيل هو: فرعون وثمود. ونجده في قوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار: 5)، فالإجمال هنا هو علمت، والتفصيل: ما قدمت وأخرت. وربما حققت بنية الإجمال والتفصيل فيما سبق من شواهد وظيفة أسلوبية، تتمثل بتهيئة السامع لتلقي معلومة لاحقة مهمة أو مميزة، فمثلاً: هيا لذكر فرعون وثمود، باعتبارهما أميز المعاندين للحق الإلهي، بلفظة الجنود التي توحى بأنهم كانوا يمتلكون القوة والبطش، ولكن لم يغن عنهم ذلك من الله شيئاً.

وللمستوى التركيبي وهو الثاني من البنية الثنائية للإجمال والتفصيل الكثير مما يمثله في آيات جزء عم. وأول هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (١٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (١٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَى (٢٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٢١) (النازعات: 37-41)، حيث الإجمال هو المأوى، والتفصيل هو في طرفيه المتقابلين

(1) الطبري: مج 7، ص 519.

الجنة والجحيم، ونلاحظ أن هذين الطرفين مرتبطان بعناصر أخرى في السياق: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (١٦) و﴿أَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مرتبطة بالجحيم، في حين أن ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى عَنِ النَّفْسِ أَلْهَوَى﴾ مرتبطة بالجنة.

وفي سورة الليل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ (١٧) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (١٨) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (١٩) وَأَمَّا مَنْ نَحَلَ وَاسْتَفْتَى (٢٠) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٢١) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (٢٢) (الليل: 5-10). فالإجمال هنا في قوله: ﴿فَسَنِيَرُهُ﴾. أما التفصيل فهو ﴿لِلْيُسْرَى﴾ و﴿لِلْعُسْرَى﴾، وهما عنصران مرتبطان بعناصر أخرى في السياق لا يمكن لنا أن نتعامل معهما منفردين ومنسلخين عنه، فهما مركبان باندماجهما مع تلك العناصر، فاليسرى مرتبطة مع ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ (١٧) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (١٨) والعسرى مرتبطة مع ﴿وَأَمَّا مَنْ نَحَلَ وَاسْتَفْتَى﴾ (٢٠) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٢١).

2- البنية المتعددة للإجمال والتفصيل:

ولها كذلك مستويان: المستوى الإفرادي. والمستوى التركيبي. ويقال في تعريفهما ما قيل في مستويي البنية الثنائية. والبنية المتعددة هي التي ترد فيها ثلاثة عناصر أو أكثر في التفصيل. ومثال عليها في مستواها الإفرادي ما نجد في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٣٨) ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) (عبس: 38-39)، حيث الإجمال هو في وجوه، والتفصيل في مسفرة ضاحكة مستبشرة وهي عناصر مفردة شكلياً، ومرتبطة ثنائياً بالإجمال دون أن تحيط بها أية لفظة أخرى أو تركيب.

ونجد كذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ (٢) (الانفطار: 6-7). وهنا الإجمال متمثل باللفظة المقدسة ربك، بينما التفصيل يتمثل بـ 'خلقك، سواك، عدلك' وهي عناصر مفردة شكلية مرتبطة بنائياً بالإجمال بدون الحاجة لألفاظ أو تراكيب تساعد على ذلك الارتباط.

أما المستوى التركيبي لبنية الإجمال والتفصيل المتعددة فنجد في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (٢) فَكُ رَقَبَةً (٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (٤)

يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١١﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٣﴾ (البلد: 11-17). فالإجمال هنا تمثله لفظة العقبه، والتفصيل تمثله الجزئيات: فك، إطعام، ثم كان من الذين آمنوا، وترتبط كل واحدة منها بعناصر أخرى لا يمكن سلبها عنها. فـ 'فك' مرتبطة بـ 'رقبة'، وإطعام مرتبطة بـ ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٢﴾ و ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هي مرتبطة بـ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾. وهنا نلاحظ أن عناصر التفصيل لم تأت مفردة، بل جاءت مركبة مرتبطة بالفاظ وتراكيب حولها ساعدتها على الاتصال بالإجمال الذي تمثله لفظة العقبه. والدلالة التي تعطيها بنية الإجمال والتفصيل هنا هي دلالة الحث المتدرج من الأصغر إلى الأكبر، حيث بدأ بفك الرقبة إلى الأهم وهو إطعام مسكين، ثم الأهم وهو الإيمان، وما يستلزمه من صبر وتراحم بين المؤمنين.

ولجد المستوى التركيبي لبنية الإجمال والتفصيل المتعددة متمثلاً بقوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ

خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾

(النازعات: 27-29). وهذا الإجمال متحقق في السماء وبالتحديد في خلق السماء الذي يوضحه الاستفهام "أأنتم أشد خلقاً، بينما التفصيل تمثّل بأربعة عناصر هي: 'بناها ورفع'، وهي مرتبطة بـ 'سمكها وسواها'. والعنصر الثالث 'أغطش' وهي مرتبطة بـ 'ليلها'. والرابع 'أخرج' وهي مرتبطة بـ 'ضحاهما'. ودلالة الإجمال والتفصيل هنا هي دلالة تجزئية لبيان القدرة الإلهية في خلق كل جزء، لأنه ساق خلق السماء هنا لمقارنته بخلق الإنسان، فكما أن للإنسان أعضاء وأجزاء، فللسماء كذلك أجزاء. والبديع في هذه المقارنة أنها تضمنت مقارنة المادي والمعنوي، فالمادي متمثل بأعضاء الإنسان المادية، وبأجزاء السماء المادية، والمعنوي متمثل بنفس الإنسان بشقيها الصالح المشرق، والطالح المظلم، كما هو الحال في السماء التي لها نهار مشرق وليل مظلم.

والمثال الأخير لهذا المستوى في موضوع الإجمال والتفصيل هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ

يَتِيماً فَكَوَّيْ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾﴾ (الضحى: 6-8).

فالإجمال هنا متضمن في 'وجد'. ومع تكرره في كل آية، إلا أنه يمثل إجمالاً واحداً، هو الإيجاد. وهو هنا بمعنى المعرفة، أي عرف حالك. أما التفصيل فهو متشعب إلى ثلاثة عناصر مركبة مرتبطة بالفاظ

توصلها بالإجمال، وهذه العناصر هي: "يتيماً وهي مرتبطة بـ آوى". وضالاً وهي مرتبطة بـ "هدى". وأخيراً "عائلاً" وهي مرتبطة بـ "أغنى". ودلالة الإجمال والتفصيل هنا مَنِيَّة، إن جاز التعبير، حيث يَمَنُّ الله سبحانه على عبده بأنه اعتنى به في ثلاث من أحواله: يتيماً، وضالاً، وعائلاً. أي عندما كان فاقداً للأب، وفاقداً للنهج المراد من الله، وفاقداً للكسب.

الغاية

اتبعنا في هذه الدراسة لـ 'جزء عمّ' في القرآن الكريم المنهج الأسلوبى الذي يوظف أدوات اللغة كلّها في تحليل النصوص الأدبية، لاستجلاء مكان الإبداع فيها، وللوقوف على خصائصها الأسلوبية، التي تميزها من غيرها. وبما أنّ القرآن الكريم كان هو مجالنا في هذه الدراسة، وهو كتاب الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي كان كذلك مجالاً لعدد ضخم جدا من الدراسات قديما وحديثا، وفي كل الصعد، وما زال وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وما دام الأمر كذلك فإننا في معظم دراساتنا لا نزعّم أنّا أتينا بمجديد لم يلحظه الآخرون، ولكن لعلنا أضأنا جوانب أسلوبية محددة في 'جزء عمّ'، ولا سيما في المستويين الدلالي والتصويري من هذه الدراسة.

فالجانب الأول هو ما يمكن أن نطلق عليه توزيع الموضوع، وهو أن القرآن الكريم يوزّع الموضوع الواحد على مختلف السور والمواضع القرآنية، بحيث يكون لكل موضع أو سورة حظ من بعض تفاصيل ذلك الموضوع، وهذه التفاصيل تجلّي جوانب جديدة في الموضوع كل مرة، بحيث إننا لا نحصل على المشهد المتكامل التام إلاّ بتجميع تلك التفاصيل المبثوثة هنا وهناك، وإلصاقها بعضها ببعض، وذلك على طريقة الصفّ 'الفسيفسائي' للوحة الفنية. لكن وجود كل تفصيل على حده لا ينطوي على أي تشويه أو نقص فيه، بل هو في أمّ الانسجام في موضعه حيث هو، بل إنّ تلك العملية من توزيع التفاصيل وبثها في مواضع متفرقة كان لها أثر بارز في تميّز الأسلوب القرآني من غيره، وهو سمة بارزة فيه، لا تتأتى لغيره كما تأتت له بذلك الاقتدار المعجز.

وتوزيع التفاصيل للموضوع الواحد تبعه تنوع لغوي وموسيقى وبلاغي لافت، حيث برز مع كل قطعة فنية قرآنية ما يناسبها من أوجه البلاغة، والجرم الموسيقي، والأبعاد النحوية والصرفية، ما جعلها متميزة من غيرها من القطع المنتمية إلى الموضوع نفسه، وهذا خلق تنوعا أسلوبيا، وتعددية لغوية بديعة، يتنظمها جميعا أسلوب عام منسجم ليس فيه فطور أو قصور.

ومن أجل تفصّي الخصائص الأسلوبية في 'جزء عمّ' ولا سيما خاصية توزيع الموضوع فيه، فقد أعملنا أدوات أسلوبية للتحليل، ساعدتنا في تناول الألفاظ وتصنيفها إلى مجموعات، بحسب الموضوع الذي تنتمي إليه، واستجلاء ما بينها من عناصر مشتركة، وبما تتميز إحداها من الأخريات،

ومن هذه الأدوات الحقل الدلالي الذي يهتم بتجميع الألفاظ التي تربطها عناصر مشتركة، وتشابه في دلالاتها، ضمن حقل واحد. واستأنسنا بأداة الاختيار والتوزيع التي تهتم بتحري الإرادة المختزنة لدى منشئ النص في اختيار كلماته وتوزيعها في مختلف مواضع نصه.

وحتى لا يتسم تحليلنا الأسلوبي للجزء القرآني بالذاتية، فقد استأنسنا بالكثير من إسهامات الدارسين للقرآن قديما وحديثا، من مفسرين وبلاغيين وصرفيين وغيرهم، تطبيقا لنهج أسلوبي هو القارئ-الجمع الذي ينأى بالتحليل عن الذاتية، والانطباعات الشخصية.

وبتحليلنا المتواضع لجزء عمّ فقد خلصنا إلى مجموعة من النتائج، نلخصها بالنقاط الآتية:

1- يشترك جزء عمّ المكّي بمعظم سورته مع سائر القرآن المكّي بالخصائص الأسلوبية المعروفة للسور المكية. وأهمها قصر الآيات، وكثرة القسم. وكذلك بالخصائص الموضوعية. وأهمها: تناول قصص الأنبياء والأمم السابقة، والتركيز على أصول الإيمان بالله، وزوال الدنيا والحساب. إلا أن الجزء ينفرد بخصائص تميّزه من سائر القرآن بشقيه المكّي والمدني، هي: تكثيف المعنى أو الحدث، حيث يشير إلى موضوع أو قصة ما بأقصر الألفاظ وأقل الآيات، كما رأينا في قصة موسى التي اشتملت عليها سورة النازعات، وقد تبين ذلك جليا عند مقارنتها بالقصة نفسها في سورة طه. ويتميز كذلك بالقصر الشديد في سورته، حيث يشتمل على سور قوامها ثلاث آيات وأربع آيات. وثلاث سور الجزء لم تتجاوز في عدد آيات كل منها الخمس عشرة آية، ونصف سورته لم تتجاوز العشر آيات. وتتميز الجزء كذلك بأنه الأكثرقسما على الإطلاق بين الأجزاء القرآنية. وأخيرا وجدنا أن جزء عمّ تميز بانفراده بفواصل منتهية بحروف لم تتكرر في غيره من الأجزاء؛ نحو الفاصلة السينية في سورة الناس، وغيرها.

2- في المستوى الدلالي من هذه الدراسة، درسنا ثلاثة مجالات دلالية هي: القيامة، والجزاء، ونعم الله. ولمسنا خاصية توزيع الموضوع في تعامل القرآن مع ألفاظه داخل المجال الواحد. مما أضفى على الأسلوب القرآني تفردا وجمالا.

3- في الفصل الثاني درسنا المستوى الصرفي، حيث الطاقة التعبيرية المختزنة في الكلمة الواحدة، وجدنا أن التشكيلات الصرفية المقصودة في الجزء تؤدي إلى ترسيخ فهم معين في ذهن المتلقي، يهدف إليه القرآن الكريم على أساس أنه كتاب ديني يتضمن التشريع والدعوة والإنذار. وأحيانا يعمد القرآن الكريم إلى فرض احتمالات عديدة للفهم على ذهن المتلقي إذا كان ذلك يخدم هدف القرآن. ووجدنا أن جزء عمّ ثري بتشكيلاته الصرفية، حيث

استوعب العناوين الصرفية التي تناولناها كافة، من قبيل إحلال صيغ محل أخرى بكل تفرعاتها التي مرّت معنا. وكذلك تعدّد الصيغ، والحذف في الصيغ، واختيار الصيغ، وغيرها من العنوانات الصرفية. ووجدنا أن كل التشكيلات الصرفية في الجزء قد وُظفت لأغراض دلالية بلاغية تخدم غرض القرآن الكريم، من تقديم للمعنى الدقيق، وتوسيع دائرته أحياناً، وتأثيره في السامع والقارئ.

4- في المستوى الصوتي من هذه الدراسة، وجدنا أن الجانب الصوتي في "جزء عم" قد تواءم مع العاطفة والدلالة، وأن المادة الصوتية القرآنية في "جزء عم" قد تضمنت طاقة تعبيرية كبيرة، حيث لمسنا دقة اختيار اللفظ المناسب للمعنى، وتناولنا ذلك تحت عنوان "جرس الألفاظ" ودرسنا مجموعتين من الألفاظ، إحداها ذات دلالات قوية، والأخرى ذات دلالات لينة، واتضح لنا مدى التواءم بين الصوت والمعنى فيها.

وفي المستوى الصوتي درسنا كذلك موضوع التكرار الصوتي في "جزء عم"، وتبين لنا بمناقشة الأمثلة أن التكرار الصوتي ينطوي على فائدتين؛ معنوية تعزز المعنى المراد، وأخرى صوتية، هدفها التأثير في السامع، وتهيته لتلقي الفكرة المطروحة لتحقيق الغرض الروحي المنشود. ودرسنا كذلك المقاطع الصوتية، وعرفنا أن لها استخداماً فنياً في "جزء عم" يخدم المعاني المطروقة، ويحدث تأثيراً عاطفياً ما في القارئ أو السامع للقرآن المجيد. وخلصنا في المستوى الصوتي إلى دراسة الفاصلة القرآنية، بأنواعها الثلاثة، وتبين لنا أن الفاصلة القرآنية في مجمل القرآن، وفي "جزء عم" بالخصوص لها وظائف صوتية ومعنوية مهمة، وأنها في تنوعها وتوزيعها كانت إحدى ميزات الجزء القرآني المدروس. وفي إطار الفاصلة القرآنية ناقشنا قضية مراعاة الفاصلة، ونحسب أن الدراسة برهنت على أن القرآن لا يعدل من لفظ إلى لفظ مراعاةً للفاصلة، بل تتواءم الفاصلة مع المعنى المقصود بشكل إبداعى إعجازي.

5- في المستوى التركيبي البلاغي انصبت دراستنا على ثنائيات أربع: التقديم والتأخير، الحذف والذكر، التعريف والتنكير، وأخيراً الفصل والوصل. وتناولناها بالتفصيل، وسقنا عليها شواهد جلية من مختلف مواضع الجزء، وخلصنا إلى أن "جزء عم" زاخر بهذه الثنائيات بكل تفرعاتها، وأنه قد وُظفها توظيفات بلاغية فنية مهمة، شكلت ملامح أسلوبية بارزة فيه.

6- في المستوى البلاغي بشقيه: التصويري، واللفظي. توصلنا في المستوى التصويري إلى أن التصوير في "جزء عم" قصر على التصوير الحسي الذي تطرقنا إلى أنواعه ووظائفه من

تشخيص وتجسيم، وتبين لنا من خلال الشواهد التي أوردناها، أن التشخيص كان له وظيفة مهمة تقوم على عقد الصلة الروحية بين النفس البشرية من جهة، والموجودات المنظورة والموجودات غير المنظورة حوله من جهة أخرى. وتنشيط التأمل لدى الإنسان بهدف التقرب من خالقه، والاهتداء إلى طريقه المستقيم. في حين أن التجسيم كانت له وظيفة تقريب الاختلاجات النفسية والمواقف الحياتية، وتقديمها ضمن صور مألوفة يتفاعل معها القارئ، وتحقيق الهدف المنشود من الإرشاد.

وتناولنا ضمن المستوى التصويري كذلك الانزياح في 'جزء عم' وتفرعاته من كناية ومجاز وتشبيه، ومثلنا عليها بمجموعة من الشواهد، وتبين لنا أن القرآن الكريم في هذا الجزء كان زاخراً جداً بالمجاز على وجه الخصوص، وفي المقام الثاني الكناية، التي تماهت بشكل إبداعي مع سياقاتها، واحتاجت إلى عميق التأمل لاستجلائها. أما التشبيه فقد كان قليلاً في الجزء، لم يشكل سمة أسلوبية بارزة فيه.

وفي إطار المستوى التصويري رأينا أن 'جزء عم' يحتفي بالمشاهد التي تتضافر فيها عناصر الصوت واللون والحركة لإحداث التأثير الكبير في نفس القارئ والسامع. ولحظنا كيف أن تلك المشاهد قد أدت فيها الألفاظ الإيحائية المناسبة دوراً أساسياً في التعبير عن تفاصيلها وأبعادها.

وفي القسم الثاني من المستوى البلاغي، وهو المستوى اللفظي، فقد تركزت الدراسة على ثلاثة موضوعات، هي: التكرار اللفظي، التقابل والتماثل، الإجمال والتفصيل. واتضح لنا أن 'جزء عم' قد اشتمل على التكرار اللفظي بكل أنواعه: تكرار الجملة والكلمة والحرف، وقد أدى التكرار اللفظي في كل مستوياته أغراضاً بلاغية فنية، أسهمت في تعميق المعاني المقصودة، كما أدى وظيفة صوتية، تتمثل بالتأثير العاطفي في نفس القارئ. كما تناولت الدراسة أساليب التكرار اللفظي، من ترديد وإرصاد ومجاورة، ومثلت لها، وبينت وظيفتها البلاغية الصوتية، ومدى قيامها سمات أسلوبية في الجزء القرآني.

وضمن المستوى اللفظي تناولت الدراسة ثنائية التقابل والتماثل بكل مستوياتها، وسأقت عليها الشواهد الموضحة، وخلصت إلى أن هذه الثنائية لها حضور في الجزء، وأنها تشكل ملمحاً أسلوبياً فيه، يخدم المعاني المقدّمة، ويحدث التأثير والإقناع في نفوس المتلقين.

وآخر المواضيع التي طرقتها الدراسة ضمن المستوى اللفظي هي ثنائية الإجمال والتفصيل، من خلال بنيتها الثنائية والمتعددة، وتتبع الدراسة بعض شواهدا في الجزء، ويُنْتِظَ وظيفتها البلاغية، وقدمتها ملمحاً أسلوبياً له حضوره في الجزء القرآني الأخير.

ولديّ توصيتان في نهاية هذه الدراسة، أولاًهما: أن يُستأنس بمناهج التحليل الأسلوبية لدراسة شاملة لأجزاء أخرى من القرآن المجيد. وثانيهما: أن يطورَ النقاد العرب مناهج أسلوبية للتحليل منبثقة في أساسها من واقع النظم القرآني المعجز، بحيث تتحرك مصطلحاتها ونظرياتها ضمن هذا الإطار الخاص بالجماعة المؤمنة بهذا الكتاب الحكيم وإعجازه وتفردّه. حتى لا تلجأ دائماً إلى استعارة أدوات التحليل الغربية، تلك الأدوات التي قامت على أساس واقع لغوي واجتماعي وعقدي مختلف كثيراً عما هو موجود عندنا. لكن والساحة العربية خلوّ من مناهج للتحليل خاصة بها، متوائمة مع طبيعة لغتها وتفردّها، فلسنا نجد بدءاً من الأخذ ببعض المناهج الغربية، والاستئناس بها، مع التصرف بها وتجاوز التقليد الحرفي، بما يتواءم مع طبيعة لغتنا الخاصة، والأهمّ مع طبيعة النظم القرآني المعجز، والمتفرد.

وأخيراً، أسأل الله المعين أن أكون قد وفقت في تحقيق ما رمت إليه في هذه الدراسة، وأن أكون قدّمت خدمة متواضعة لقرآن الله المجيد من جهة، ومن جهة أخرى للجانب التطبيقي في المنهج الأسلوبية، وأضفت إلى المكتبة العربية الإسلامية يسيراً من علم مفيد. آملاً أن يلقى القبول من الله الشكور الوهاب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أ- الكتب:

1. ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ، 1963م.
2. ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري: المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر، قدمه وحقق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القسم الثاني، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1960م، ج2.
3. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ج2.
4. ابن حنبل، أحمد: المسند، مج4، ص107، طبعة دار الفكر، بيروت.
5. ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ج30.
6. ابن عبد السلام، عز الدين عبدالعزيز السلمى الشافعي: مجاز القرآن، تح: مصطفى محمد الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999م.
7. ابن عقيل، بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: طه محمد زيني، مكتبة محمد صبيح، القاهرة، 1965.
8. ابن المعتز، عبدالله: البديع في نقد الشعر، نشره أغناطيوس كراتشوفكسي، أعادت طبعه مكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1979م.
9. ابن وهب، أبو حسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحدثي، جامعة بغداد، 1967.
10. ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي (ت643هـ): شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج3.
11. أبو الرضا، سعد: في البنية والدلالة: رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، دار المعارف،

- الإسكندرية، 1987م.
12. أبو زيد، أحمد: التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، المغرب، 1992م.
 13. أبو العدوس، يوسف: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، عمان، 2007م.
 14. باطاهر، بن عيسى: المقابلة في القرآن الكريم، دار عمار، عمان، 2000م.
 15. بدوي، أحمد أحمد: من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط3، 1950م.
 16. البدوي، أحمد عباس: أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، دار عمار، عمان، ط1، 1999.
 17. بركة، فاطمة الطبال: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993م.
 18. بشير، عزيزة يونس: النحو في ظلال القرآن الكريم، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 1998م.
 19. التبريزي، الخطيب: الوافي في العروض والقوافي، تح: فخر الدين قباوة وعمر يحين، دمشق، 1395هـ.
 20. تشيتشرين أ.ف: الأفكار والأسلوب: دراسة في النص الروائي ولغته، ترجمة: حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد (د.ت).
 21. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، مكتبة الجاحظ، بغداد، ط4، 1975م، ج1.
 22. جاكبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988م.
 23. الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد الأسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996.
 24. -----: دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
 25. الجرجاني، محمد بن علي: الإشارات والتبنيات في علم البلاغة، تحقيق: عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
 26. الجطللاوي، الهادي: مدخل إلى الأسلوبية تنظيراً وتطبيقاً، مكتبة عيون، الدار البيضاء، 1992م.

27. الجميلي، السيد: البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطي، دار المعرفة، القاهرة، 1993م.
28. جيرو، بير: الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب - بيروت، ط2، 1994
29. حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1986م، ج1.
30. حسين، عبدالقادر: القرآن والصورة البيانية، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1985.
31. خليل، إبراهيم: الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية، بيروت، 1997م
32. الراجحي، عبده: فقه اللغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م.
33. الرازي، فخرالدين محمد بن ضياء الدين عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، د.ت.
34. راضي، عبدالحكيم: نظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة خانجي، القاهرة، 1980م.
35. الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط6، 1956م.
36. -----: تاريخ آداب العرب، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج2، 1953، ج3، 1954.
37. الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968م.
38. زادة، طاش كبري: مفتاح السعادة ومصباح الزيادة، تحقيق كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، د.ت، ج2.
39. الزبيدي، محمد مرتضى: معجم تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، مج 9
40. الزرقاني، محمد عبدالعظيم: مناهل العرفان، ج1 دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995.
41. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله: البرهان في علوم القرآن، ج1، دار المعرفة، بيروت، 1972.
42. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن الخوارزمي: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار

- الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج1. وطبعة مصر 1307هـ ج2.
43. السعران، محمود: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، بنغازي 1968.
44. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم، القاهرة، 1937م.
45. سلامة، إبراهيم: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مصر، ط2، 1952م.
46. السلامي، عمر: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبدالكريم عبدالله، تونس، 1980م.
47. سلطان، منير: الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1997.
48. سيبويه: الكتاب، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخالجي، القاهرة، ط3، 1988، ج1.
49. السيد، شفيح: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م.
50. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد: الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1987م، ج1. وطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى.
51. -----: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاري، دار الفكر العربي، د.ت، ج1.
52. الشايب، أحمد: الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط6، 1966م.
53. شتريلكا، ليوزف: الأسلوب الأدبي من كتاب: مناهج علم الأدب، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول، مج5، ع1.
54. شريم، جوزيف ميشال: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1984.
55. شيخون، محمود السيد: أسرار التكرار في لغة القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1983.
56. الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1974م.
57. الصايغ، عبدالإله: الصورة الفنية: معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.
58. صمود، حمادي: الوجه والقفا في تلازم الحداثة والتراث، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م.
59. الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير: تفسير غريب القرآن، تح: محمد صبحي بن حسن

- حلاق، دار ابن كثير، دمشق، 2000م.
60. الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 2، 1974، مج 20.
61. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، ج 7.
62. طحان، ريمون: الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م، ج 2.
63. الطرابلسي، محمد الهادي: خصائص الأسلوب في الشوقيات، الجامعة التونسية، 1984م.
64. أحمد مصطفى الطرودي التونسي: جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، تحقيق: محمد الجربي، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1986م.
65. العامري، حميد: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996م.
66. عباس، فضل حسن: البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، دارالفرقان، عمان، ط 11، 2007م.
67. -----: البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني)، دار الفرقان، عمان، ط 9، 2004م.
68. العبد، محمد: اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1989م.
69. عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ضبط: محمد سعيد اللحام، دار المعرفة، بيروت، ط 6، 2008.
70. عبدالرحمن، جلال: الإجمال والبيان ووضعهما في نصوص الأحكام، مطبعة السعادة، القاهرة، 1984م.
71. عبدالرحمن، عائشة: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف القاهرة، ط 2، 1984.
72. عبدالقادر، حامد: دراسة في علم النفس الأدبي، القاهرة، د.ن.
73. عبدالمطلب، محمد: البلاغة و الأسلوبية، القاهرة، 1984م، د.ن
74. -----: بناء الأسلوب في شعر الحداثة: التكوين البديعي، 1988، د.ن.
75. عبدالنور، جبور: المعجم الأدبي، بيروت، 1979م.

76. عبدالواحد، عهدود: السور المدنية: دراسة أسلوبية وبلاغية، دار الفكر، عمان، ط 1، 1999.
77. عبده، محمد: تفسير جزء عم، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1985م.
78. عرفة، محمد: مشكلة اللغة العربية، القاهرة، (د.ن)، (د.ت).
79. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل: الصناعتين في الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1952م.
80. عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت، ط2، 1983م.
81. عمايرة، خليل: في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر، عالم المعرفة، جدة، 1984م.
82. عمر، أحمد مختار: دراسة الصوت اللغوي، مطبعة سجل العرب، توزيع عالم الكتب، القاهرة، 1976م.
83. -----: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط 1، 1982م.
84. عياد، شكري: مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم، الرياض، 1982.
85. -----: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، انترناشونال برس، القاهرة، 1988م.
86. الفراء، يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط3، 2001م.
87. فضل، صلاح: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1985.
88. فليح، أحمد: حروف الجر ومعانيها، المركز القومي للنشر، 2001م.
89. فندريس-ج: اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950م.
90. القزويني، محمد بن عبدالرحمن الخطيب: تلخيص المفتاح، مطبعة الحلبي، مصر، 1938م.
91. قطب، سيد: تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط1982، 10، مج6.
92. -----: التصوير الفني في القرآن، دار الشرق، بيروت، ط8، 1982.
93. القمي، محمد بن محمد رضا بن إسماعيل المشهدي: تفسير كنز الدقائق، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1413هـ.

94. كوهين، جاك: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الوالي و محمد العربي، دار تويقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م.
95. لاشين، عبدالفتاح: التعبير في القرآن: حروف القرآن، مكتبات عكاظ، الرياض، 1983.
96. -----: الفاصلة القرآنية، دار المريخ، الرياض، 1982.
97. -----: المعاني في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1999م.
98. المالقي، أحمد بن عبدالنور: وصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد الخراط، دمشق، 1975.
99. المبارك، محمد محمد: خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد، مطبعة نهضة مصر، 1960م.
100. المخزومي، مهدي: في النحو العربي: نقد وتوجيه على المنهج العلمي الحديث، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1966.
101. مرتاض، عبدالملك: بنية الخطاب الشعري: دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية، دار الحدائق، بيروت، ط1، 1986.
102. المسدي، عبدالسلام: الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل السني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1977م.
103. معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط1.
104. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط1 ج1.
105. مفتاح، محمد: دينامية النص: تنظير وإلحجاز، المركز الثقافي العربي، الرباط، 1987.
106. المقدسي، شهاب الدين أبو محمد، كتاب البسملة، تحقيق: عدنان بن عبدالرزاق الحموي، منشورات المجمع الثقافي في أبوظبي، 2004.
107. المنجد، محمد نور الدين: الترادف في القرآن الكريم: بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1997م.
108. نحلة، محمود: دراسات قرآنية في جزء عم، دار العلوم العربية، بيروت، 1989م.
109. الهاشمي، أحمد: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، المكتبة التجارية الكبرى، ط16، 1966م.

110. اليافي، نعيم: مقدمة لدراسة الصورة الفنية، دمشق، 1982م.

ب- الدوريات:

1. عبدالمطلب، محمد: بحث النحو بين عبدالقاهر الجرجاني وتشومسكي، مجلة فصول، مج 5/ع 1.
2. القرعان، فايز: الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم: دراسة تحليلية، مجلة أبحاث اليرموك، مج 12، ع 1، 1994.

ج- الرسائل الجامعية:

1. البياتي، سناء حميد: البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989م.
2. الحجاج، إبراهيم عقل: جزء عم: دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة مؤتة، الأردن، 2006م.

